

# مركز جيل البحث العلمي

## مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية



ISSN 2311-5181

مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي

Liban - Tripoli: Branche Abou Samra P.O. Box 8 - [jilrc-magazines.com](http://jilrc-magazines.com) - [social@jilrc-magazines.com](mailto:social@jilrc-magazines.com)



العام الرابع - العدد 33 - جويلية 2017



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# المشرفة العامة: د. سرور طالبلي

المؤسس ورئيس التحرير: أ. جمال بلبكاي

jilrc-magazines.com - social@jilrc-magazines.com



ISSN 2311-5181

## هيئة التحرير:

- أ.د. عاصم شحادة علي (الجامعة الإسلامية العالمية، ماليزيا).  
د. ديبش فاتح (جامعة 8 ماي 1945، قالمة، الجزائر).  
أ.م.د. فليح مضحي أحمد السامرائي (جامعة المدينة العالمية، ماليزيا).  
د. سامية ابريغم (جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي، الجزائر).  
أ.م.د. السيد محمد سالم سالم العوضي (جامعة المدينة العالمية، ماليزيا).  
د. رضوان شافو (جامعة الشهيد حمّة لخضر، الوادي، الجزائر).

رئيس اللجنة العلمية: أ.د. علي صباغ (جامعة قسنطينة 2، الجزائر)

## اللجنة العلمية:

- د. نعموني مراد (جامعة لونيبي علي، البليدة 2، الجزائر).  
د. براك خضراء (جامعة تبسة، الجزائر).  
أ.م.د. داود عبد القادر إيليغا (جامعة المدينة العالمية، ماليزيا).  
د. بوزيد مومني (جامعة محمد الصديق بن يحي جيجل، الجزائر).  
د. بشرى سعدي (جامعة مولاي اسماعيل، المغرب).  
د. مراد علة (جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر).  
د. طيب العيادي (جامعة محمد الخامس الرباط، المغرب).  
د. ساسي سفيان (جامعة الطارف، الجزائر).  
د. تاج الدين المناني (جامعة كيرالا، الهند).

## أعضاء لجنة التحكيم الاستشارية لهذا العدد:

- د. الحاج بنيرد (جامعة مولود معمري- تيزي وزو، الجزائر).  
د. براك خضراء (جامعة تبسة، الجزائر).  
د. سامية شينار، جامعة باتنة 1، الجزائر.  
د. عبد الفتاح أبي مولود (جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر).  
د. مراد علة (جامعة زيان عاشور، الجلفة، الجزائر).  
د. مروان معزي (جامعة الجزائر 1).  
د. نوري محمد أحمد شقلايو (جامعة الزاوية، ليبيا).

## التدقيق اللغوي:

- أ.م.د. ميعاد جاسم السراي (الجامعة المستنصرية، العراق).  
د. عبلة حسن (جامعة لينكولن، نبراسكا، الولايات المتحدة الأمريكية).  
د. صلاح كاظم هادي العبيدي (جامعة بغداد، العراق).

## التعريف بالمجلة:

مجلة علمية دولية محكمة تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي تعنى بالدراسات الإنسانية والاجتماعية، بإشراف هيئة تحرير مشكلة من أساتذة وباحثين وهيئة علمية تتألف من نخبة من الباحثين وهيئة تحكيم تتشكل دوريا في كل عدد.

## اهتمامات المجلة وأبعادها:

مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية عبارة عن مجلة متعددة التخصصات، تستهدف نشر المقالات ذات القيمة العلمية العالية في مختلف مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية. تعرض المجلة جميع مقالاتها للعموم عبر مواقع مركز جيل البحث العلمي، بهدف المساهمة في إثراء موضوعات البحث العلمي.

## مجالات النشر بالمجلة:

تنشر المجلة الأبحاث في المجالات التالية: علم النفس وعلوم التربية والأرطوفونيا، علم الاجتماع، الفلسفة التاريخ، علم المكتبات والتوثيق، علوم الإعلام والاتصال، علم الآثار.

تنشر مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية البحوث العلمية الأصيلة للباحثين في هذه التخصصات كافة مكتوبة باللغة العربية أو الفرنسية أو الإنجليزية.

# شروط النشر



تقبل المجلة الأبحاث والمقالات التي تلتزم الموضوعية والمنهجية، وتتوافر فيها الأصالة العلمية والدقة والجدية وتحترم قواعد النشر التالية :

ISSN 2311-5181

- أن يكون البحث المقدم ضمن الموضوعات التي تعنى المجلة بنشرها.
- ألا يكون البحث قد نشر أو قدم للنشر لأي مجلة ، أو مؤتمر في الوقت نفسه ، ويتحمل الباحث كامل المسؤولية في حال اكتشاف بأن مساهمته منشورة أو معروضة للنشر.
- أن تحتوي الصفحة الأولى من البحث على:
  - عنوان البحث.
  - اسم الباحث ودرجته العلميّة، والجامعة التي ينتمي إليها.
  - البريد الإلكتروني للباحث.
  - ملخّص للدراسة في حدود 150 كلمة وبحجم خط 12.
  - الكلمات المفتاحية بعد الملخص.
- أن تكون البحوث المقدمة بإحدى اللغات التالية: العربية، الفرنسية والإنجليزية
- أن لا يزيد عدد صفحات البحث على (20) صفحة بما في ذلك الأشكال والرسومات والمراجع والجداول والملاحق.
- أن يكونَ البحثُ خاليًا من الأخطاء اللغوية والنحوية والإملائية.
- أن يلتزم الباحث بالخطوط وأحجامها على النحو الآتي:
  - اللغة العربية: نوع الخط (Traditional Arabic) وحجم الخط (16) في المتن ، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (12).
  - اللغة الأجنبية: نوع الخط ( Times New Roman ) وحجم الخط (14) في المتن، وفي الهامش نفس الخط مع حجم (10).
  - تكتب العناوين الرئيسية والفرعية للفقرات بحجم 16 نقطة مثلها مثل النص الرئيسي لكن مع تضخيم الخط.
- أن تكتب الحواشي بشكل نظامي حسب شروط برنامج Microsoft Word في نهاية كل صفحة.
- أن يرفق صاحب البحث تعريفا مختصرا بنفسه ونشاطه العلمي والثقافي.
- عند إرسال الباحث لمشاركته عبر البريد الإلكتروني ، سيستقبل مباشرة رسالة إشعار بذلك .
- تخضع كل الأبحاث المقدمة للمجلة للقراءة والتحكيم من قبل لجنة مختصة ويلقى البحث القبول النهائي بعد أن يجري الباحث التعديلات التي يطلبها المحكمون.
- لا تلتزم المجلة بنشر كل ما يرسل إليها .

ترسل المساهمات بصيغة الكترونية حصراً على عنوان المجلة:

social@jilrc-magazines.com

## الفهرس

### الصفحة

- 7 • الافتتاحية
- 9 • النموذج السكاني المرغوب من الجماهير الجزائرية د. بوشعور الغازي رضية وبوزيان محمد/جامعة تلمسان.
- 29 • الثقافة التنظيمية ومسألة الهوية المهنية داخل مجال العمل أية علاقة؟ دراسة ميدانية بمؤسسة اتصالات الجزائر تيارت، د. هيشور محمد لمين/جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر
- 45 • الرحلة السفارية المغربية وسؤال الإصلاح بالمغرب الحديث: رحلة الصفار التطواني نموذجاً، د. العربي بنرمضان/كلية الآداب سايس فاس ، المغرب.
- 57 • الجنون والإقصاء الاجتماعي: النكات كمدخل لفهم وضع الجنون داخل المجتمع المغربي، محمد خيدون/جامعة مولاي اسماعيل، المغرب.
- 65 • بعض الفنيات المعرفية الخاصة بالعلاج المعرفي السلوكي: أ. ناجية دايلي/جامعة محمد لمين دباغين.
- 81 • المنطق والرياضيات عند إخوان الصفا: أ. الناصر الهمامي/كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس.
- 95 • سياسة الاستعمار الفرنسي تجاه ظاهرة التسول والفئات المتسولة في المدن التونسية: عبد العزيز بن عبد النبي، جامعة صفاقس، تونس.
- 111 • اتجاهات معلّمي المدارس لبرنامج إكساب الثقافة الاستهلاكية للطلبة: بحث تطبيقي: أ. د. بيداء ستار لفته/مركز بحوث السوق وحماية المستهلك/جامعة بغداد، العراق؛ أ. م. د. محمد عبد الرزاق الصوفي/مركز بحوث السوق وحماية المستهلك/جامعة بغداد، العراق
- 131 • انعكاسات ظاهرة الهجرة الخارجية على بنية الأسرة ووظائف أفرادها في المجتمع النفاوي: "دراسة سوسيوديموغرافية" د. نعيمة الفقيه وحدي حرشاني/تونس.

### مقالات باللغات الأجنبية

- 147 • LA PME FAMILIALE EN ALGERIE ET LES PROGRAMMES DE MISE A NIVEAU : Lyes OUABDESSELAM/ Centre de recherche scientifique et technique en Analyses Physico-chimiques (CRAPC), Algérie.

## الافتتاحية

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

يسعدنا أن نضع بين أيادي الباحثين العدد الثالث و الثلاثين من مجلة جيل العلوم الانسانية والاجتماعية التي يصدرها مركز جيل البحث العلمي، سائلين الله تعالى أن ينفع بما فيه من بحوث علمية متنوّعة، راجين أن يجدوا فيه ما يفيدهم وينفعهم في بحوثهم ودراساتهم الأكاديمية.

كما نرجو أن تكون هذه المجلة نبراساً لحل إشكاليات علمية معقدة تربط العديد من المتغيرات النظرية والتطبيقية.

يبقى المبدأ الأساسي للمجلة هو انتقاء الأفضل، وهذا لن يتم إلا ببحوثكم وأعمالكم العلمية، لذلك كلنا شرف باستقبال جل الأعمال سواءً من طرف أساتذة أو طلبة الدراسات العليا.

**وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا وإليه ننيب.**

**رئيس التحرير / أ.جمال بلكاي**

تخلي أسرة تحرير المجلة مسؤوليتها عن أي انتهاك لحقوق الملكية الفكرية

لا تعبر الآراء الواردة في هذا العدد بالضرورة عن رأي إدارة المركز

جميع الحقوق محفوظة لمركز جيل البحث العلمي © 2017

## النموذج السكني المرغوب من الجماهير الجزائرية

بوزيان محمد/جامعة تلمسان

د. بوشعور الغازي رضية/جامعة تلمسان

9

### ملخص:

يكتسي السكن أهمية بالغة على جميع المستويات خاصة بعد انتقاله من مجرد فضاء يأوي الأسرة إلى مجال تتحكم فيه قيم ثقافية واقتصادية ومادية للأسرة والمجتمع والدولة ككل. والجزائر بحكم موقعها الجغرافي ومسيرتها التاريخية وأوضاعها المادية والثقافية التي ساهمت جميعا في إحداث التصور العام للسكن الحالي، خاصة مع القيم التقنية والهندسية التي تركها الاستعمار الفرنسي بعد رحيله. مشكلة الأساس الذي تم في إطارها تصور نموذج البناء في الجزائر، والذي يستند على معايير حديثة و حجب كلي للبيئة المحلية و النموذج الأصلي في الدولة الذي تم إلغائه، محدثا تحول كلي في المجتمع بزوال - الدار الكبيرة - أو المنزل التقليدي و معه الأسرة التقليدية.

ونميز نموذجين من البناء في الجزائر من وجهة نظر شكلية، بين توجه عمومي هو بالأساس نحو البناء العمودي مقابل البناء الفردي الذي هو على عاتق الأفراد. هذا الانفصال بين التوجهين ليس في مجال نموذج البناء وحده بل يتجاوزه إلى مجال الاستراتيجيات، التي تختلف بين السلطة والأفراد، و الدولة لها توجه كمي في الأساس من الهش إلى اللائق، هذا الأخير الذي يقره المهندس العمومي، و الذي يضم مجموعة من السكنات في نفس الفضاء لاعتبارات مادية واقتصادية. ومقابل هذا، هناك توجهات فردية معاكسة بالميل لتفضيل البناء الذاتي باعتبار ان المتحكم في سلوك العائلات يتجاوز المعايير المادية و يسمح بطغيان القيم الثقافية و النفسية و الأنثروبولوجية، و البناء الفردي هو المجال الاقصى لتحقيق المطالب الشعبية، و الأحلام الجماهيرية، و تجسيد الذاتيات، و بين التوجهان يحدث نوع من الرفض للبناء العمودي ليس رفض حقيقي مع عدم امكانية وجود عائلات أرجعت ورائق الاستفادة باعتبار أن المسكن لا يستجيب لحاجتها، و لكنه يظهر من خلال عدم الراحة و القلق و عدم الطمأنينة للسكان في هذا النموذج العمودي إلا أن هذا التوجه يأتي مرحلة بعدية بعد الحصول على المسكن و الاستفادة من الدولة، التي لا تمثل أكثر من حصول الأفراد على رأسمال يعطي لهم إمكانيات للتفاوض و أول خطوة للوصول إلى تحقيق أهداف الأسرة السكنية. هذا ما نحاول التطرق إليه من خلال هذه الورقة البحثية.

الكلمات المفتاحية: السكن - الجزائر - البناء العمودي - البناء الذاتي - المهندس العمومي.

### مقدمة:

لقد أصبح السكن في العصر الحالي موضوع شامل و عام و حقل للبحث في عدة علوم و تخصصات التي ساهمت في إثراء الحقل العلمي و المعرفي في إطاره، و المسكن هو انعكاس اجتماعي في مجال البحث عن مأوى، يبرز شكل هندسي و طبيعة مواد البناء و نموذج أو شكل من البناء الذي يكون مجال لتجسيد القيم الثقافية، و الروابط الاجتماعية و الوضع الاقتصادي، و بهذا فالمسكن هو وحدة سكنية في عمارة أو منزل من النموذج الفردي تشغله أسرة يمكن ان تضم عائلة واحدة او عدة عائلات. و

يمكن أن نميز بين شكلين في مجال العمران نموذج البناء الذاتي و الذي يقع على عاتق الافراد المستفيدين منه سواء بجهودهم الذاتية، المالية و التموينية أو بمساعدة من الدولة، ثم هناك البناء العمودي أو الجماعي و نجد فيه عدة صيغ و نماذج و تبدأ عموما من البناءات التي تجمع أسرتين أو أكثر إلى تلك التي تحوي أكثر من أربع طوابق وصولا إلى المجموعات الكبرى و التجمعات الحضرية التي تحوي عدة عمارات من خمس إلى خمس عشرة طابق و أكثر هي عموما الصيغ التي تتكفل بها الدولة. و الجزائر اهتمت في العقود الاخيرة بالسكن اهتماما منقطع النظير و تحول إلى قطاع محرك للاقتصاد الوطني، و كان هذا التوجه بعد التحولات العميقة التي عرفها المجتمع و تفاقم أزمة السكن خاصة بداية من 1980 و الذي شكل عائق أمام التقدم و التنمية الاجتماعية فاعتمدت الدولة على الإيرادات المرتفعة للبتروال التي مهدت الطريق للدولة من أجل فتح الورشات- المليونية - بداية من المخطط (2000-2004) الذي تم إنجاز فيه أكثر 500 ألف وحدة مجسدا لتحول جذري للسياسات الاستثمارية العمومية إلى اعتبار قطاع السكن لا يقل أهمية عن القطاعات الأخرى، التي استهلكت استثمارات الدولة منذ الاستقلال مقابل تهميش لقطاع السكن. خاصة خلال السنوات اللاحقة للاستقلال لأن الدولة اعتبرت ان الحضيرة التي هجرها الاوربيون يمكن ان تعطي للدولة وقت كافي في مجال التخطيط و بهذا توجهت السياسات العمومية إلى اعطاء الأولوية للقطاعات التي تعتبر منتجة و تساهم في الإيرادات، و اعتبار الشغل الهم الشاغل للدولة و هو الحل الذي يقدم الافاق للقطاعات الأخرى التي تعتبر لاحقة له، هذه السياسة اضافة إلى بلوغ الحضيرة الشاغرة اقصاها في فترة قياسية، ساهم في ظهور أزمة سكن حادة لم يتوقعها المخطط، معبرة بوضوح و بشكل ملثم عن عجز الدولة في التوقع و ان سياستها المنتهجة لا تقوم على أسس و مبادئ علمية و دراسات حقيقية واقعية تضع في قاعدتها المطلب الشعبي الذي هو الصورة الأعلى للحاجات الفعلية.

#### 1- رفض - رسوب - البناء العمودي:

يعتبر البناء العمودي من النماذج الجديدة التي ظهرت في العصر الحديث، خاصة مع التقدم العلمي و التكنولوجي الكبير في مجال مواد البناء و الأدوات و التقنيات الهندسية، التي اعطت قدرات لا نهاية لها للخلق و الابداع، خاصة للتطور الرأسي للبناء الذي ظل طويلا محكوما بقياسات بسيطة لا تسمح بالارتفاع إلى أكثر من طابقين أو ثلاث، و مع تجاوز هذه الصورة خاصة في المدن الكبرى و الميتروبولات التي شهدت انفتاح أفقي ضخم مع التطور الاقتصادي و التنمية الاجتماعية، و الذي استلزم أيضا توسع عمودي انطلاقا من معطيات اقتصادية محكومة بالتكاليف، و مجالية تتعلق بالسعي إلى استغلال الامكانيات العقارية إلى أقصى حد، و التي كان مصاحب لها أيضا بروز ناطحات السحاب كهيكل يعكس قوة و رمزية لهذه المدن التي تأويها، هذا البناء الذي يتميز بجمال الفن المعماري، الذي يسير دائما جنبا إلى جنب مع دقة هندسية متناهية و الخلاصة شكل مميز و ظاهرة حديثة لم تعرفها الامم السابقة بل كاستثناء للقرون المعاصرة و هي العمارة أو البناء العمودي.

الحديث عن هذا النمط في الجزائر لا بد أن يرتبط بالاستعمار الفرنسي، و كانت فرنسا تمثل أحد الاقطاب العالمية المجسدة للتطور العلمي و التكنولوجي و منها قطاع البناء، فقد كان العمران قبل الاستقلال بسيط و المعاش بسيط، و رغم وجود عدة أشكال و نماذج للسكن التي تصنف اليوم كمسكن تقليدي، الا انه كان يشترك في الصورة المعيارية حيث أن المعاش كان مساوي للبيئة فالعيش من الطبيعة من الزراعة و الرعي، وكذلك الحاجات الأخرى من لباس و سكن... و أهم ما يميزها أنها تتوافق مع الثقافة المحلية « التي تعتبر كإرث عن الماضي العربي الإسلامي المعدل من الثقافة التركية »<sup>1</sup>. فالمجتمع الجزائري وصل إلى هذا النموذج التقليدي بعد صراع طويل بين ثقافات متنازعة و متعارضة، و استعمارات متلاحقة اعطت هوية لهذا الشعب و لمسكنه. مع الإشارة إلى وجود تشابه في المميزات العريضة و التصورات التي ساهمت في تشكيل هذا المنزل و أهمها أنه منفتح على الداخل و منغلق على الخارج و اعتبار المرأة مجال للحماية، و الذي لم يمنع وجود اختلافات جهوية و اقليمية لهذا

المسكن. فتصف رجاء مكي هذا النمط السكني « من مميزاته أن السماء هي العنصر الذي يلطف الجو فانفتح عليها بواسطة الحوش، و المسكن مرتب لعزل الأسرة و المرأة لكنه مهياً لاستقبال الجار أو القريب غابت فيه غرف النوم لصالح غرف الاستقبال، غاب المطبخ و الحمام لأنها كانت حاجات جماعية»<sup>1</sup>. فالاستعمار أحدث شخ في التصورات حول المسكن، فرض منظومة متعلقة بالثقافة الغربية فتحوّل شكل المنزل و الخدمات المرتبطة به، وشكل عامل حاسم في التطور الحضري و التنمية الاجتماعية التي ساهمت في التحول الاجتماعي الشامل، و الذي انعكس بالضرورة على مختلف الأنساق المكونة للمجتمع، حيث ساهم هذا السكن في تحطيم بقايا العائلة التقليدية التي كانت النواة المركزية للنموذج السكني التقليدي، و العلاقات في مجال تنظيم الفضاء، فحدث تحول جذري في مجال العمران، تميز بانتشار البناء العمودي حياة داخلية و نموذج اقتصادي جديد، و أيضاً في مجال التنظيم للفضاء الداخلي كانعكاس عن التحول، و تنظيم خارجي وفق أسس و مبادئ يقرها القانون و العقلنة و احترام الحقوق و الحريات و الرقي بالمواطنة فيما يسمى بالفضاء العام كتعبير عن الحداثة و العصرية، وهذا التطور يستلزم تحكّم مطلق للسلطة من أجل التمييز بشكل تنظيمي، و هذه الأطارات المفاهيمية التي هي إرث استعماري التي تستوجب العيش المشترك و الملكية الجماعية، فيصف بشير مقييس هذا النمط أن « الأحياء المخصصة للأوروبيين في وهران بأنها مناطق سكنية نموذجية تتعدد فيها الأدوار»<sup>2</sup>، هذا النموذج السكني الذي لا يمكن تناوله فقط كفاعل انعكاسي للتقدم التقني في مجال البناء بل في كتلة من القيم و المعايير التي كانت غائبة عن التاريخ الجزائري و عن التهيئة. و يضيف نفس الكاتب « هذه المباني التي قامت السلطات الجزائرية بعد الاستقلال بترميمها و اتمام تشييد الجزء غير المكتمل، و رغم ارتفاعها و تعدد مساكنها فهي توفر لسكانها الاستمتاع بأشعة الشمس و المياه و الكهرباء و الغاز»<sup>3</sup> و هي أهم مظاهر الحياة العصرية التي كان يبحث عنها المهندس الفرنسي في مخططه و كذلك المطالب الشعبية التي كانت أغلب الأسر تبحث عنها، بعيداً عن أي تصور آخر نجده في ذلك الوقت و حتى اليوم في نمط تفكير الشعب الجزائري الذي يرتبط بالتاريخ و التركيب الاجتماعي و الاقتصادي و منها شكل الأسرة و مصادر العيش، في اختلال زمني واضح بين التفكير الذي أنتج هذا النمط و التفكير الذي ورثه فيما بعد، لمجتمع لم يستطع تجاوز ملامح البناء التقليدي. فكان لمغادرة المستعمرين الذي ساهم في تحرير أكثر من 300 ألف مسكن أغلبها من النموذج العمودي، غنيمة من المستعمر تركوا ديوان كبير من المدن والوحدات السكنية. هذا النموذج الذي عرف تطور أكبر في العقود الأخيرة موازاتاً مع تحول جهود الدولة للاستثمار أكثر في هذا القطاع، بعد تفاقم أزمة السكن و زيادة الطلب و أخذت على عاتقها مهمة توفير مسكن لكل أسرة، خاصة بعد ارتفاع تكاليف الانجاز بارتفاع قياسي لأسعار العقار و مواد البناء و اليد العاملة، فأصبح السكن خاصة للفئات ضعيفة الدخل أمراً في غاية الصعوبة، و أصبح السكن العمودي مؤشراً على قوة و أهمية السياسة السكنية في الدولة، و على العلاقة بين البناء عند الدولة مقابل الخواص و كمجال يمكن أن تبرز فيه هيبة الدولة و هو ما أسماه مرحوم فريد بالطابع الخيري للدولة « فخير تشكيل المدن من خلال نموذج السكن الجماعي وضع في الساحة الحضريّة فاعلاً أساسياً هو الدولة السخية»<sup>4</sup> و هذا التوجه يتواز مع توجه الدولة الاجتماعي فهي رغم مرورها إلى مرحلة انتقالية إلا أنها لم تستطع التخلي عن التوزيع الاجتماعي، و منها في مجال السكن وتبني سياسة سكنية تؤدي إلى الانتقال بالجزائر من مرحلة تبعية إلى دولة رائدة في قطاع البناء.

1 - رجاء مكي طيارة، مقارنة نفس - اجتماعية للمجال السكني - دراسة ميدانية، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، 1995، الطبعة الأولى، ص 99.

3- بشير مقييس، مدينة وهران، دراسة في جغرافية العمران، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص 87.

3- نفس المرجع، ص 96.

4 - مرحوم فريد « السكن الجماعي في الجزائر: سكان حي الصباح (وهران) بين الاجتماع و الصراع » أطروحة دكتوراه، ص 110.

## 2- ملامح الرفض:

ورثنا عن الاستعمار حظيرة سكنية معتبرة، ديوان من البنايات المختلفة، خاصة في المدن التي كانت مصنفة حسب استراتيجيات المستعمر والتي كانت المجال الأكثر توافقا مع أهدافه، والتي فرضت معايير وأسس بناء تجمع التكنولوجيا والتقنية مع المعايير والقيم الثقافية التي تحكم المجموعة، وهذا ما جعل منهج البناء الذي هو في الغالب انعكاس اجتماعي يحدث له نوع من الاختلال والتعارض بين القيم الثقافية التي ساهمت في تكوينه والقيم الأخرى التي تستقبله، والذي ساهم في وضع هذا المنهج كمجال للمراجعة، فنحن ورثنا ديوان وليس منهج بناء وهو ما يظهر بوضوح في الإشارة إلى رفض التقنيات الحديثة للبناء، هذه النماذج والأشكال والتقنيات البناء التي ورثناها لم تمتد فينا ولم تتأثر بها<sup>1</sup> مع عدم توافق المجال الذي بقي فيه آثار وبصمات الاستعمار التي لا تتطابق مع الوقت والخصوصيات المحلية<sup>2</sup> حيث أن الانفصال التاريخي بين الحضارتين لا بد أن يكون له انعكاس على الواقع المعيش، وهو أيضا ما أظهره التحقيق الميداني الذي قام به فاروق بن عتية أن الريفين يرغبون بالعيش في المدن ولكنهم يتبعون معايير قديمة فهم يرفضون السكن العمودي<sup>3</sup>. ومن الملامح الجوهرية لهذا المسكن التي تعبر عن الحاجات اليومية للناس، هناك الحديقة التي لها دور مركزي في السكن الفردي، مقابل الشرفة التي تمثل أهم مميزات العمارة، وتتوحد في تصور الشكل الداخلي بردهة وغرف متخصصة، هذه وتلك التي لم يكن لها مكان في الضمير الجمعي والهوية العمرانية المحلية. فقد شكل السكن العمودي نفي لحضارة مستمرة، وانقطاع تقني وهندسي مع ما كان سائدا طويلا، وهو ما انعكس في مجال الممارسات والسلوك الاجتماعي لنمط عيش في تضارب ورفض للتنظيم الفضائي الذي يبدو غريب ومتجاهل، هذا السلوك الرفض استمر حتى بعد الاستقلال طويلا في العلاقة بين الساكن والسكن، والمعبر عنه من خلال التعديلات التي كانت تتعرض لها الوحدات السكنية في العمارات من طرف شاغليها مباشرة بعد الحصول عليها، وهو نفس ما أشار إليه "لقجع" عندما تناول إعادة التنظيم الداخلي للمسكن العمودي بعد احتلاله من شاغليه «لا نتردد بالتضحية أولا بالشرفة بحوالي 6% من العينة وأيضا الحمام بحوالي 2% وحتى المطبخ 2% إلى غرف وعزل المطبخ، تصغير أبعاد النوافذ (الحميمية) نلغي الشرفة لتوسيع غرفة أو الصالة»<sup>3</sup>. ورغم هذا الرفض الذي كان ظاهرا منذ البداية فإن الجزائر مدفوعة بأزمة السكن المتراكمة منذ 1970 والإمكانات المتاحة، التي فرضت على الدولة التجند في البرامج العاجلة والكمية، بتبني سياسات همها الوحيد هو توفير مساكن للناس، بأسرع وقت وبأقل تكلفة، فكان الحل المجمع عليه هو السكن العمودي، وتصور المخطط الوطني أن هذا النموذج هو الحل الأمثل، وهو وضع يفرضه التاريخ والسياسة مع تفاقم أزمة السكن والوضع الديموغرافي الذي يكون مصاحب لهذه المرحلة بمعدل ولادات وزواج مرتفع، حيث كانت الخصوبة تبلغ معدل 7.4 طفل لكل امرأة<sup>4</sup> وبمعدل زواج بلغ 68.7% للفتة من 25 إلى 29 سنة ليرتفع إلى 89.9% للفتة من 30 إلى 34 سنة<sup>5</sup>، دون أن ننسى الوضع الاجتماعي المزري، فالتجهت السلطة إلى بذل مجهودات متتالية في محاولة التعويض عن هذا الشعب الذي عانى طويلا، والسعي لتحسين ظروف عيشه وتوفير ظروف ملائمة ليحيى حياة كريمة وفق المعيار العالمي، ومع توجه السلطة للاستمرار وفق المنهج الاستعماري في إجراءات البناء لغياب بديل لها كما أن هذا النموذج له بعد اقتصادي كبير، من خلال عمليات القياس الدقيق التي يركز عليها في عملية تصور البناء الذي يتلاءم مع الأسرة ويحقق حاجاتها السكنية الأساسية بتوفير ملجأ ومأوى لها، وإلى ما سماه فريد ناصر بالنموذج العملياتي<sup>6</sup> و يتيح فرصة الاستثمار

<sup>6</sup> - Farouk Benatia, L'Appropriation de l'espace à Alger Après 1962, Société Nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1978, p 41-42.

<sup>2</sup> - Ibid , p 42.

<sup>3</sup> - Revue Algérienne d'anthropologie et de science social, « espace habiter. Vécus domestique et forme d'urbanité », N° 02, 1997, p 80.

<sup>4</sup> - Rachid hamidou, Le logement un défis, imprimerie Aissat Idir, 1989, p 47.

<sup>5</sup> - ONS 1977.

الامتثل للأرض و الاقتصاد في التكاليف من خلال التوحيد القياسي و الإنتاج بالجملة مما يحقق ربح اقتصادي بفعل الاجراءات الموحدة و الصناعة المسبقة<sup>1</sup> هذا النمط الذي كان يقام في أرض منخفضة الثمن نسبيا، باعتبار أنه كان يقام في الضواحي و تخفيض تكاليف الدراسة و الإعداد، من خلال عمليات التوحيد للتصور و التخطيط، كما أن الانجاز الجماعي لحجم كبير من البناء، لا بد أن يساهم في اقتصاد في تكاليف مواد البناء و اليد العاملة، إضافة إلى الفوائد الناتجة عن التكتل التي تجعل تزويدها بالمرافق و الخدمات أسهل، سرعان ما تعرض هذا النموذج إلى تراجع و انحطاط بعد عدم قدرته على تحقيق الآمال الجماهيرية، فالأهداف المسطرة من طرف المخطط اصطدمت مع الواقع الاجتماعي الذي كان معبر حقيقي عن فشلها، بعد عدم الارتياح و القلق الذي ظهر بعد احتلال هذه الوحدات، فتعرض هذا النموذج إلى تراجع و انهيار و رغم البعد الاقتصادي و الاجتماعي الذي يتميز به إلا أنه فرض على سكان بحجة الكثافة و كان لا بد من الوصول إليه لسكان هم إلى وقت قريب، كان ما يزال الرابط الاجتماعي القبلي هو المسيطر و التمثيلات التقليدية و الثقافة الأبوية هي المحرك الأساسي للمجتمع، و ما تفرضه من معايير في العلاقات و في تنظيم المجال بالتركيز على الانعزال الفضائي و الرابط العصبي، فتعرض هذا النموذج لانتقادات كثيرة كما أشار بن ماتي أن « أغلب السكنات التي تنجز تهمل تقاليد البناء و لأهداف اقتصادية بدأنا إنجاز مدن بدون روح تحوي آلاف السكنات في عمارات<sup>2</sup> هذا الرفض و عدم السعادة لا يرتبط فقط بغياب النظافة، الضجيج، المساحات الخضراء التي أشار إليها برنارد<sup>3</sup>، و لكن أيضا للتنظيم الشامل للسكن الذي لم يراعي خصوصيات الثقافة الأسرية و الاجتماعية، فيتم تعديل السكن مع الوقت لأنه محكوم بمعيار قوة ( الإدارة ) فهو مفروض إداريا و غير مناقش و لهذا يتم إعادة تنظيمه داخليا، يستبدلون البلاط، الشرفة، المطبخ يتغير، يضيفون غرف، يفصلون غرفة الزوجين عن الاولاد، يعزلون إذا أمكن المرحاض، هذه الصورة و إن كانت تمثل أهم وجه لهذا الانزعاج للسكن في هذا النمط فإن وجهة النظر الأكثر تعبيراً عن الحقيقة تكون باتجاه أن الميل السكني هو باتجاه السكن الفردي و الذهاب للعمارة لا يمثل إلا صورة مفروضة بوضع اقتصادي أو اجتماعي حيث أن هذا النموذج هو استجابة للتحول الاجتماعي و الديموغرافي و الاقتصادي، و هذا ما يؤدي إلى طرح قضية جوهرية هي أن الدولة تبنت هذا النموذج انطلاقاً من واقع اجتماعي تهيكل أغلب المجتمعات في إطاره هو أن السكن العمودي هو استجابة ضرورية إن لم تكن عفوية يفرضها الوضع السكني. و لعل من أهم الأسباب المساهمة في هذا الرفض هي القيم الثقافية و الأنثروبولوجية التي تؤدي إلى تفضيل السكن الفردي فهو يمثل صورة للتفوق الاجتماعي و هذا إضافة إلى العوامل الثانوية التي كثيرا ما يتم الإشارة إليها مثل افتقارها إلى للتجهيزات و المرافق الملحقة، أو بعدها عن المدينة أو تجهيزها بفضاءات خضراء و أماكن لعب الأطفال<sup>4</sup> أو أن تكون خالية من الجمال. فقد كان يعتقد أن انتقاد هذه العمارات السكنية كان بسبب الوضع أو الحالة المادية لها مثل نقص المرافق، أو الاجتماعية و منها ارتفاع نسبة الإشغال للغرفة أو المسكن و المساحة المخصصة لكل فرد، مع أي اعتقد أن الناس ترفضها كشكل و نموذج و ليس لوضعها لأن الناس التي جاءت لشغلها لم تكن في وضع سكني أحسن منها و لم تأتي من فضاءات حضرية أكثر تطورا أو أكثر استجابة لتطلعاتها، هذا الحقيقة لا يتم الإشارة إليها في الغالب بل أننا نجعل الوضعية السكنية في 1966 كمرجع.

3-حجم البناء العمودي : إن الدراسات الاحصائية و الكمية في الجزائر تشير في الغالب إلى وجود أزمة سكن خانقة، حيث تقوم بالمقارنة بين حجم الإنجاز العمومي الذي يمثل المصدر الرئيسي للعرض السكني مقابل الطلب على السكن المعبر عنه في قوائم الانتظار، هذه الدراسات تحلل الوضع السكني بطريقة تشاؤمية فتشير إلى عجز

<sup>1</sup> -Revue Algérienne d'anthropologie et de science social, N° 29-30, 2005.

<sup>2</sup> - N. A. Benmatti. Nadir Abdellah, L'habitat du tiers - monde. Cas de l'Algérie, S.N.E.D, Alger, 1982, p 178.

<sup>3</sup> - Bernard Préal, La ville à venir .habitat. Technologie. Environnement, Descartes et cie,1994, p 58.

<sup>4</sup> - crasc 22/2003, p 78.

سكني كبير وهو في تزايد وصل العجز إلى 600 ألف في 1977 إلى 800 ألف في 1998<sup>1</sup> وهو في ارتفاع. هذا العجز الذي يمثل الحاجات التي يجب على الدولة أن تلبها، وهذا التوجه الذي يهمل جانب كبير من القطاع هو البناء الفردي الذي ينمو في الجزائر بشكل سريع و عشوائي وغير متحكم فيه، والذي لا يقتصر على البناء الفوضوي أو أحياء الهش بل أنه يشمل أيضا مجموعة من الفيلات الجميلة والضخمة التي تنتشر في الأحياء والتجمعات البشرية سواء كان لها طابع شرعي من خلال اتباع الإجراءات الادارية والقانونية في المجال ومنها الحصول على رخص بناء أو بدون ذلك، خاصة بعد كل عملية تخصيص و تقسيم للأراضي في منطقة ما بشكل رسمي أو غير رسمي، هذا الشكل من البناء الذي يشكل موضوع للنقاش عندما يتعلق الأمر بالدراسات والإحصاءات حوله. ورغم تعدد المصادر الإحصائية في الجزائر في مجال السكن بداية بالديوان الوطني للإحصاء إلى وزارة السكن والعمران والمديريات التابعة لها، ثم إلى مختلف أجهزة الرقابة في الجزائر إلا أنها تبقى قاصرة كما أشار بن عمران «و ترتبط الإحصاءات عموما بالإنتاج العمومي في الغالب و تصبح أكثر غموضا عندما يتعلق الأمر بالسكن الفردي، خاصة في الجزائر التي ينمو فيها هذا النموذج بعيدا عن أعين السلطات في غياب إجراءات إدارية أو قانونية تعطي لهذه البناءات شرعية»<sup>2</sup>، فرغم أن هذا المشكل مرتبط بالسكن الفردي الذي ينمو في الخفاء إلا أن الإحصاءات الشاملة التي يقوم بها الديوان للإحصاء لا تستثني أي نموذج سكني و في إطار العلاقة بين السكن الفردي و العمودي فإن الإحصاءات اثبتت تفوق مستمر للبناء الفردي، ورغم تجند الدولة الشامل في مجال البناء خاصة وفق صيغ العمودي فإن نسبته ما تزال ضئيلة إلى قطاع البناء، و يبين الجدول التالي شكل الحضيرة السكنية حسب الإحصاءات:

جدول رقم (01): شكل الحضيرة السكنية في الجزائر من 1977 إلى 2008

الإحصاءات		1977		1987		1998		2008	
النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد	النسبة	العدد
الحضيرة	2013661	100	2991972	100	4102064	100	5304344	100	
عمودي	8.3	13.95	16.78	19.14					
فردى	91.7	86.05	83.22	80.86					

#### المصدر: الديوان الوطني للإحصاء

يوضح الجدول تفوق واضح للبناء الذاتي مقابل العمودي الذي كان ضئيل وفق إحصاء 1977 بحوالي 8.3 % من حجم البناء، هذه النسبة التي تعبر عن التراث الموروث عن الاستعمار في الغالب لأن البناء إلى غاية الاستقلال بالنسبة للجزائريين كان متروك للمبادرات الفردية فالسلطات الاستعمارية لم تضع في أجندتها اقتراح برامج اسكان للأهالي، وباستثناء مشروع قسنطينة لم يستفد المسلمون في العهد الاستعماري من أي برنامج. و مع ضعف البناء و الورشات التي تعرضت إلى شبه توقف إلى غاية 1970 فإن حجم البناء العمودي بقي ضئيل ليعرف ارتفاع نسبي في الإحصاء الثالث إلى حوالي 13.98 % و هذا يعود

<sup>1</sup> - عبد القادر بلطاس، استراتيجية تمويل السكن في الجزائر، Edition légende، الجزائر، 2007، ص 56.

<sup>2</sup> - Djilali Benamrane, Crise de l'habitat. Perspective de développement socialiste en Algérie, Société Nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1980, p 24

إلى تراجع الدولة عن قرارها باعتبار السكن قطاع تابع و هامشي، وبداية اطلاق البرامج خاصة وفق تقنيات التصنيع و التركيب المتزامن مع توجه الدولة لتطوير قطاع الصناعة، هذه التكنولوجيا التي أحدثت شبه قطيعة مع ما كان سائدا في مجال البناء، ليستمر في الارتفاع ليبلغ 16.78 % في إحصاء 1998 و الذي رغم توجه الدولة للاهتمام بقطاع البناء و اعتباره قطاع حيوي ومن أولويات السلطة الحاكمة ومع الانفتاح الاقتصادي إلا أن حجم البناء العمودي بقي قليل مقارنة بالبناء الذاتي الذي يستفيد في الغالب أكثر من غيره من الوضع الاقتصادي و يحول الوضع لصالحه، و رغم إطلاق البرامج الضخمة بداية من 2000 باعتبار السكن قطاع حيوي و الجانب الاجتماعي الأكثر حيوية بالنسبة للسلطة لامتناس غضب الشعب و أيضا للأسرة التي اعتبرت أن امتلاك سكن غير قابل للنقاش و كأهم العناصر التي تحدد العقد الاجتماعي. و بالاستفادة من ارتفاع أسعار البترول بدأت الدولة في اطلاق البرامج المليونية، حيث ثم في المخطط 2010-2014 توقع إنجاز 1.2 مليون وحدة و استكمال خلال المخطط 2015-2019 إنجاز 800 ألف وحدة<sup>1</sup> و حتى الملاحظ البسيط يمكنه أن يدرك بسهولة تفوق البناء الذاتي في مدنا أولا قبل التوجه إلى البوادي حيث « يمثل المسكن الفردي و التقليدي 70 % في الأوساط الحضرية في 1996 »<sup>2</sup> مع أن هذه النسبة ترتفع أكثر في المعدل العام الشامل، كما و قامت دراسات بالإشارة أن هذا النموذج دخل على الجزائر فقد أشارت فريدة ناصر في دراسة مدينة باتنة « أنها تتميز بسيطرة النموذج الفردي مما يدل أن السكن العمودي يمثل تجربة حضرية حديثة و غريبة عن عادات و تقاليد السكان »<sup>3</sup> و رغم أن هذا النموذج جاء منذ العهد الاستعماري و وجد ملاذ له و فرصة سانحة لكي يتوسع مع السياسات الاقتصادية من السلطة، بتبنيها باكرا استراتيجيات التصنيع المصنع التي لم تستثني قطاع البناء و باستيراد تقنيات البناء المصنع كآلية بناء حديثة، ليجد هذا النمط من البناء فرصة أقوى مع اشتداد أزمة السكن خاصة خلال الثمانينات، التي يمكن أن تساهم في تحول النظرة إلى هذا النمط من الرفض إلى محاولة التأقلم معه و الانسجام في إطاره، و لكن أمام هذه العوامل لم يحقق البناء العمودي أي تفوق رغم نموه المتسارع مقابل بناء ذاتي طليق، الذي استغل فرصة اغفاله من السلطة من جانب و عجزها من جانب آخر، ليتوسع بشكل رهيب و بسرعة كبيرة، هو كثيف يمثل حوالي 80 % من جملة البناء و لولا هذا البناء الذي له قوة كبيرة للتوسع السريع لكان الناس في الشارع. لهذا تغض الدولة الطرف عنه لأنها لا تستطيع تحقيق حاجات الناس السكنية و الحل هو الذاتي، و نسبة 80 % من السكان الذين لم تستطع الدولة توفير سكن لها و إن أضفنا السكن الريفي و السكن الحضري الفردي المدعم يمكن أن يساهم في خفض النسبة إلى 70 %، و لكن هذه النسبة نفسها هي كبيرة جدا و تعبر عن أزمة دولة و ليس أزمة سكن فقط، فلو راقبت السلطة هذا البناء الفردي بأكبر صرامة لوجد 70 % من السكان أنفسهم في العراء و الشارع و هذا وضع لا يمكن تصوره. و أيضا شرعت الدولة في إعداد اجراءات قانونية و تنظيمية لتأطير عمليات البناء و عليه حدد القانون رقم 08/15 المارخ في 20 جويلية 2008 مبادئ إنشاء المباني و استغلالها و أساليب مطابقة المباني بهدف انهاء حالات عدم استكمال البنايات التي تشوه مدنا<sup>4</sup> هذا القانون الذي له وجهان فهو استدراك يعطي حق الملكية للمساكن العشوائية، و اعطاء شرعية للأحياء من اجل تزويدها بالمرافق و التجهيزات، و العمل على إعطاء المدن صورة خارجية مقبولة، و من جانب آخر اعتراف من الدولة بفشلها و اخفاقها و من عدم قدرتها على تحقيق مطامحها في مجال السكن، و في أن تكون المتحكم في القطاع و العمل على تحسين الظروف السكنية للناس، من خلال اقتراح هذا النموذج الذي يجمع بين الجانب الاقتصادي و التقنيات الحديثة، و السعي للوصول للمعيار العالمي بأن يساوي كل مسكن أسرة، ولكن هذا كله أنهار أمام عجز حكومي و البديل هو تكفل هذه الأسر نفسها باستغلال

1 - Revue Algérienne d'anthropologie et de science social, N° 03, 2009, p 54.

2 - ons.

3 - Revue Algérienne d'anthropologie et de science social, N° 29-30, 2005, p42.

4 - Revue Algérienne d'anthropologie et de science social, N° 03., 2009, p

كل الامكانيات المتاحة من أجل تحقيق مطامحها السكنية، و لولا البناء الذاتي لكانت الأزمة أقصى و لن تتحملها السلطة، هذا القانون هو اعتراف ضمني أن الدولة منهارة و عاجزة أمام حظيرة بها 70% من البناء يتكفل به الخواص.

#### 4- الفاعلون في المجال السكني:

بالنسبة للفاعلين في قطاع السكن و هم الفئات التي لها دور في عمليات الإنجاز، و يمكن تحديد ثلاث طبقات رئيسية، الأولى هي التي تقع على عاتقها مسؤولية اتخاذ القرار، و يتعلق الامر بالسلطة ممثلة بوزارة السكن و العمران و المديرية التابعة لها و الأجهزة الملحقة بها، و اكتسبت هذه الصفة باحتكارها لمصادر الدعم و التمويل، ثم تأتي الفئة الثانية و هي فئة التنفيذ، و تبدأ مهمتها من عملية تصور البناء إلى غاية الأعمال النهائية، و تضم المهندسين و المعمارين و شركات البناء و العمال المؤهلين و غير المؤهلين، و تتكفل هذه الفئة بتنفيذ البرامج وفق الإجراءات و أنماط التسيير التي تحددها الفئة الأولى، و في الأخير يأتي المستفيدين وهم المحور الأساسي في عمليات البناء، لأنهم هم الفئة التي تشغل هذه المساكن و لهم غاية وحيدة هي تحقيق حاجاتهم إلى سقف يأويهم، هذه الحاجة إلى المأوى التي لا ترتبط بجمع مواد أولية في شكل نهائي قابل للسكن، و إنما هناك عوامل تتحكم في هذا الشكل النهائي و منها الرغبات و الطموحات الفردية و الاسرية التي تتأثر بالقيم الثقافية و العادات و التي كثيرا ما يتم إهمالها « فالمهندس الذي ليس بالضرورة عالم اجتماع يزوي في أغلب الأحيان في يقينية لا يقيم وزنا إلا لوجهة نظر رب العمل و يهمل الحاجات الحقيقية و الاجتماعية لشاغلي المساكن »<sup>1</sup> و هي أهم العوامل التي توجد الاختلافات في هذا المجال، و التي تطرح للنقاش أكثر باعتبار أن المسكن لا يؤدي وظيفة إيواء فقط، بل أن من يشغلها هو الإنسان الذي تتحكم فيه هذه المتغيرات الاجتماعية و النفسية و الاقتصادية.

و بهذا نجد تنوع و اختلاف في النظرة إلى هذا الإطار المبني بالنسبة لهؤلاء الفاعلين، التي تتحدد من خلال التوجهات الإيديولوجية و المناهج الفكرية و الأهداف المسطرة، و نتناول في هذه الورقة طبقتين فاعلتين في السكن بقليل من التحليل هي الفئة التي تملك القرار و هي الإدارة أو الخبراء، و هم الفاعلين الحقيقيين في المجال السكني و لديهم دور كبير في مجال تصور الإطار المبني، و تنازلت الدولة لصالح هذه الفئة عن سلطة اتخاذ القرار، و أصبحت الوسيط بين جميع الفاعلين الآخرين، هذه الفئة هي التي تحدد الخطوط العريضة للسياسات السكنية و هي التي تحرص على تطبيق الإجراءات القانونية التي تسطرها الدولة، و أيضا في مجال الأشكال و نماذج و تقنيات البناء و الصيغ السكنية المقترحة، و الفئة الثانية التي نشير إليها والتي تندرج ضمن طبقة التنفيذ و هو المهندس أو المعمار، و هو الصوت الذي يحدد الجامعة، و التي يندرج دورها إضافة إلى تلقين الطلاب المبادئ الجوهرية و الأساسية في الميدان، و الفرق بين الجامعة و الإدارة رغم أن هؤلاء الخبراء هم خريجي هذه المعاهد الهندسية، هو أن الإدارة جعلت هؤلاء الخريجين ينتقلون من البحث و التحقيق في إطار الجامعة إلى مرحلة اتخاذ القرار. و مقابل هذا تكتفي الجامعة في الغالب بتقديم تعليقات على هذه الإدارة أو على المنجز منها، دون تأسيس علمي و مناقشة، ليس لها إطار مرجعي حقيقي و هو نفس ما أشار إليه الكثير من الباحثين أن « أزمة البناء تتمثل في أزمة الفعل و الفهم لهذا البناء حيث الانفصال الداخلي بين إطارين: العمليانية (المختصين بالإنجاز) و التكوينية (الجامعة في مجال الهندسة) التي لا يتم مراجعتها في الواقع »<sup>2</sup> و يمكن أن نشير هنا إلى الاستثناء التقني و الهندسي مقابل إهمال الجوانب الأخرى رغم أهميتها خاصة علم الاجتماع، الاقتصاد و الديموغرافيا. فالوضع السكني محدد من الإدارة و هي تثبت أزمة السكن من خلال الطلبات، هذا الموقف الذي يحتاج إلى دراسات عميقة و تحليل بأدوات و وسائل علمية ميدانية، و لكن الحال عندنا مختلف فلا نكاد نفرق

<sup>1</sup> - روبير اوزيل، ترجمة بهيج شعبان، فن تخطيط المدن، المكتبة العلمية، لبنان، ص 102.

<sup>2</sup> - L'Architecture en Attente, H.T.M « Habitat. Tradition et modernité », Revue d'Architecture et d'Urbanisme, éditée par le Sarl ARCCO – Architecture et communication, 1993, p 22.

بين التحليل الصحفي و التحليل العلمي الذي تقوم به الجامعة ليس في الجانب الهندسي فقط بل و أيضا في جميع التخصصات التي تتناول مشكل السكن بنفس الحالة التي تصفها الإدارة و تقرها الصحافة.

#### 1-4 - الخبراء:

إن اعتبار السكن كمطلب شعبي لا ينكره الواقع الاجتماعي و الذي يظهر من خلال أزمة السكن الحادة التي تعاني منها الدولة، ويجسدها الشعب إداريا من خلال الطلبات المودعة لذا المصالح البلدية في مختلف أقطار الوطن، و الإحصاءات للحاجات السكنية تقوم في الغالب على الربط بين معدل الإنجاز العمومي، و هذا الطلب المسجل إداريا والذي يمثل دليل حقيقي على وجود أزمة سكن، هذا الطلب الذي وصل حسب وزارة السكن إلى غاية 2013 على المستوى الوطني إلى حوالي 3,2 مليون ملف طلب سكن<sup>1</sup>، و الذي يعتبر كعجز و كحاجة يجب على الدولة تلبيةها من أجل توفير حاجات الناس السكنية، و رغم أن هذه النظرة يمكن مناقشتها بإجراءات و أدوات تحليلية ميدانية من أجل إثباتها أو نفيها إلا أن الإدارة لا تريد الدخول في مباحث عميقة، حول فعالية هذه الصفوف المتراكمة من الطلبات، و هو الأمر الذي تفتن إليه رشيد حميدو « أنه من غير المفيد جمع معلومات حول الطلب على السكن و من الأجدر هنا الإشارة أنه من أجل تأسيس سياسة عقلانية للسكن فإنه من الضروري امتلاك عناصر كافية و حقيقية تتعلق بالوضعية الوطنية في مجال السكن<sup>2</sup> هذا التقدير الحقيقي الذي يمكن أن يقدم إمكانات كبيرة، التي تسمح بخفض و بنسب كبيرة لهذا الاختلال الكمي، و كل هذا لم تأخذ الدولة بعين الاعتبار و سمحت للتحليل الإداري أن يسموا، و أن يكون المعبر الحقيقي. هذه السلطة الممنوحة للإدارة كانت العامل الحاسم الذي جعلها المتحكم الحقيقي في سياسة السكن العمومي، بتبني نماذج وصيغ بناء وتقنيات إنجاز معينة، والتي تعرضت لانتقادات شديدة، ومع اختلاف أوجه النقد و مصادره ظهر هذا المهندس المختص، و المحتكر لسلطة اتخاذ القرار و الذي كان له الدور الأكبر في عملية التخطيط السكاني، الذي كان يواجه الاختلافات من أقرب الناس إليه وهي الجامعة نفسها، وهذا رغم درجة الارتباط بينهما، خاصة في مجال الإسقاط النظري الذي يشكل محور النقاش، في أن الإدارة تبنت نماذج بناء غربية تم إسقاطها من مجتمعات مختلفة، ظهرت في بيئة مختلفة عن بيئتنا الثقافية في الأساس، و تم استنطاقها في واقع ثقافي واجتماعي واقتصادي مغاير تماما للبيئة التي ظهرت فيها، هي نماذج مستوحات من الغرب وهو ما أشار إليه فيفيان « إن التقليد الوفي من طرف الآخرين للتقنيات الغربية التي من خلالها يعلن بشكل صائب ان العالم الثالث مزود بمصانع عاطلة عن العمل، وإذا كان هذا واقع إفريقيا فمن الضروري استثمار بحوث حول طرق ونماذج محلية وأصلية، من اجل تفادي تبذير الوسائل هذا النموذج يمكن أن يتعلق أيضا بمجال تصور وبناء السكن<sup>3</sup> فالنماذج المستوردة عقيمة لا تقدم حلول حقيقية طويلة الأمد، بل لابد من ابتكار حلول واقعية وجدرية من خلال إدماج القيم الثقافية والاجتماعية مع التقنية الحديثة. إسقاط هذه النظريات الغربية هو إنكار للمتغير الحضاري والثقافي والتاريخي المحلي في مجال العمران، هو في شكل إلغاء شامل وجذري للمسكن التقليدي، وللبناء الاجتماعي والطبقي الذي ساهم في تشكل الوعي والضمير الجمعي الجزائري. الإصلاحات في مجال السكن اهتمت بالجانب التقني والإجرائي وشكل البناء ومناهجه والجانب الاقتصادي منه، وإدخال الأنماط الكلية والمعايير المتداولة عالميا في مجال الأبعاد التقنية الشكلية والهندسية والتكنولوجيات الحديثة، ومقابل كل هذا غضت الطرف عن الأبعاد السوسيو- ثقافية المتصلة بالإنسان داخل النظم الاجتماعية و الاقتصادية، فلا يوجد قاعدة علمية لتقدير حاجات ورغبات الناس وطموحاتهم السكنية بل نموذج أجنبي، و الحديث هنا عن الطابع الكيفي و تجاوز الطرح الكلاسيكي الكمي، أن

1 - www. Crisha/moh.com

2 - Rachid hamidou, op cit, p 63.

3 - Jean Pierre Bwalwel, Famille et Habitat. Implication éthiques de l'éclatement urbain. Cas de la ville de Kinshasa, édition scientifique européennes, Berne, 1998, p 112.

المهندسين يتصورون مخططات أكثر تقنية تركز على معادلات رياضية دقيقة متناسين نمط عيش وهوية الجزائريين « مع العلم أن تكوين المهندسين في الجامعات الجزائرية يبقى بالفعل مفتوح على النماذج الغربية مع الإشارة أنه في كل دول العال فإن السكن يأخذ بعين الاعتبار المعايير الثقافية للمجتمع». <sup>1</sup> فالمعيار مفروض على الناس من الخبراء وهم مهندسون أخذوا على عاتقهم وضع نماذج سكنية معينة، دون استشارة المجتمع ودون أخذ رأيه، فالمسكن العمودي لم يكن مطلب شعبي ولم يتم إدماج جميع الفاعلين في عملية تصور الإطار المبني المرتبط به « والذي ساهم إضافة إلى إلغاء المتغير الحضاري، إلى الغاء أيضا الإحساس والشعور البشري والاجتماعي، الذي هو في الغالب غير موجود في خيال المهندس» <sup>2</sup>. وكان يجب على السلطة أن تشارك الحضريين وأن تأخذ رأي الناس وهو ما أشار إليه ريني « أن السلطة ليس لها بديل غير الحوار من أجل إقناع السكان بالتجند في العقد الجماعي، وهذا من خلال المشاركة وفعالية هذه المشاركة تتعلق في جزء كبير منها بمشاركة المعرفة» <sup>3</sup>، ومنها علم الاجتماع الذي له دور جوهري في عملية الربط بين الإنسان وبيئته، من خلال البحث عن محددات السلوك الحقيقي في الإطار السكني والعمران، والرابط الاجتماعي الأسري والقيمي للفاعلين في لحظة تفاعل، وكل هذا من أجل إقامة نموذج عقلائي، يمكنه أن يجمع الحاجات والرغبات مع النظرة الاقتصادية والتقنية، لإعداد إطار مبني حقيقي مقبول، ومجسد لواقع اجتماعي، فإسقاط هذه النظريات على مجتمع دون أخذ رأيه، هو ما جعل النموذج العمودي كمنتج للموانع والعوائق الهيكلية والمعيارية التي تهدم القيم السوسيو-ثقافية <sup>4</sup> فكانت معايير الدولة في البناء تعتمد على الخبراء وحدهم، وإهمال جميع الفاعلين المجاورين والذي يرسخ دورها أكثر هو البعثات السنوية التي تقوم بها إدارات السكن للتكوين في الخارج لمؤطرين وعمال مهنيين من مختلف التخصصات خاصة الهندسية والمعمارية. وهو ما جعل هؤلاء التقنيين إضافة إلى التكوين في الجامعة الجزائرية التي تعتمد على الاقتباس في التبعية أكثر إلى نموذج غربي محض « وبالفعل فإن المدرسة تضع في السوق نموذج هندسي أكثر فأكثر نظري وغريب عن الواقع ... والأستاذ يغرق بشكل آلي في عالم مثالي حيث الهندسة انتهت بعدم الرد سوى عن معايير جمالية صالحة لنظام من القيم» <sup>5</sup>. والذهاب إلى اختيار نماذج وأشكال للبناء وتملك وسائل للسكن تكون مشابهة لما هو موجود في هذه البلاد المسيطرة، ولا يمكن في ميدان السكن في بلد معين لنموذج سكني مقتبس إجمالاً من بلد آخر لاسيما أن هذا النموذج ينجم حتما عن تطور تاريخي اجتماعي وثقافي أنتجه، وهو الذي لم يحدث حتما عندنا.

#### 2-4- المهندس العمومي

رغم صعوبة التمييز بين المستويين الإدارة والمهندس لأن لهما منبع واحد هي الجامعة، و الفرق الوحيد بينها يتمثل في أن الإدارة تمثل مركز القوة و سلطة اتخاذ القرار، مقابل الجامعة التي لا تملك سوى مجال للملاحظة المختصة و التعليق، خاصة في البناء العمودي أو الجماعي الذي شكل مجال خصب للإبداع و البحث و تفجير القدرات، في مجال دمج المعايير التقنية و الإمكانيات الاقتصادية، التي منبعها التكنولوجيا الحديثة، مع الرغبات و الحاجات التي ترتبط بتكوين و بناء الأسرة و هي في الغالب ذات طبيعة نفسية ثقافية و أنتروبولوجية.

1 - Revue Algérienne d'anthropologie et de science social, « espace habiter. Vécus domestique et forme d'urbanité », N° 02, 1997, p 69.

2 - Rachid hamidou, Le logement un défis, imprimerie Aissat Idir, 1989, p 181.

3 - Jean Pierre Bwalwel, op cit, p 120.

4 - Moudjari Messaoud. Dahmani Krimo, projet urbain efficence d'un paradigme conceptuel de l'habitat durable, Office des publications Universitaire, 2013, p 91.

5 - L'Architecture en Attente, op cit , p83.

ونظرا لتعدد مشكل السكن و الانتقادات المتراكمة على قطاع البناء خاصة العمودي، باعتباره دخیل على ثقافتنا من ثقافة مغايرة، من مصدر أصلا منبوذ ( الاستعمار ) و تحول اجتماعي ما يزال يراوح مكانه - بين التقليدي و العصري - و هو مطلوب لتحقيق توازن شامل في إطاره « و أن ما هو موجود في الميدان من بناء، ليس جيد في مجال السكن و حتى لمشاهدته مع أن المهندس هو المستهدف الأول، إلا أن هذا القطاع اصبح أكثر تعقيدا بحيث أن المهندس لا يتدخل إلا كحلقة في سلسلة<sup>1</sup>، و لكن هذا لا ينفي أن جميع الأنظار تتجه إلى هذا المهندس، الذي لا يمكن إنكار دوره في إعداد نماذج و صيغ أكثر ما يقال عنها أنها مرفوضة اجتماعيا، و بغياب تأقلم أو توافق معها، و ضرورة الربط بين الجانب الهندسي و السكن الذي تم تقديره من طرف برودون، و الذي كشف صراعات حول الفضاء بين الواقع الهندسي و القدرات التي أظهرها السكان من خلال تحولات تتوافق مع ما أوجده هذا الجانب الهندسي<sup>2</sup> و التي تمثل جوهر العلاقة في البناء، و المقياس الأكثر أهمية الذي يمكن أن يميز و يحدد درجة التوافق و القدرة على تحقيق التوازن بين البناء و السكان، و الذي يمثل معيار جوهري للحكم على هذا المهندس « فتنظيم المجال و السكن يجب أن يأخذ بعين الاعتبار الرغبات و الحاجات الحقيقية للمستفيدين، و ليس الأولوية للمهندسة المثالية<sup>3</sup> و التي تكون في الغالب مفروضة إداريا أثناء عمليات الموازنة الاقتصادية بين المساحة و الحاجات. و بهذا يضع المهندس مخطط للسكن و هو متطلع لتحقيق حاجات الناس السكنية، فيضع غرف نوم، مطبخ مستقل، مرحاض، حمام، فضاء مشتركة، شرفة، ..... و هي أهم المحاور التي تحدد حاجات الأسرة من خلال التخصص الوظيفي للعناصر المكونة للسكن، و كل جزء هو مخصص لقضاء حاجة معينة، فالمطبخ لإعداد الاكل و الغرف للنوم و هكذا. هذا النموذج الذي يتم من خلال الربط العقلاني بين المساحة الضرورية التي تتحدد في إطار متوسط 60 إلى 70 متر مربع لأسرة من أربع أفراد أو خمسة، و الذي يحدد مساحة حوالي 12 متر مربع لكل فرد، وهذا وفق المعيار العالمي « و هذا ما أدى إلى اختيار نماذج أكثر مردودية مالية، مع استبعاد ما هو مهم اجتماعيا و هكذا سوف نغامر بمشاهدة بناءات متميزة بخصائص معينة مقابل البناء الجماعي الرخيص<sup>4</sup> هذا البعد الاقتصادي رغم دوره الكبير فإنه ليس العامل الوحيد الذي يحدد النموذج السكني المناسب لهذا المجتمع، هذا السكن الحديث الذي لم يراعي الخصوصيات الاجتماعية، و القيم الثقافية و يرتكز على عقلانية مرفوضة و بدون نقاش، فمسكن حضري هو في أغلبه من النوع F3 بمتوسط مساحة 65 متر مربع<sup>5</sup> هو ضرورة تفرضها عدة مؤشرات، اجتماعية كاستمرار ورشات التنمية التي استهدفتها الدولة و ما تزال تسعى إلى خفض الخصوبة من خلالها، خاصة عندما نشير إلى تراجع كبير في المؤشر التركيبي للخصوبة في الجزائر من 8.63 عام 1970 إلى 2.6 في 2006<sup>6</sup>، و الذي هو دليل واضح على التحول العميق الذي عرفته الأسرة الجزائرية في بنائها، إلا أن المشكل الذي يظهر هو عدم التوافق بين هذا التحول الأخير، مع التحول الفكري و القيمي للأسرة، في شكل من الاختلال التاريخي بين أسرة عصرية في تركيبها، تقليدية في تصوراتها، و أيضا مؤشرات اقتصادية مدفوعة بتكاليف الإنجاز، ثم سياسية بضرورة احترام الفضاء العمومي و التوازن بين التوسع الأفقي و العمودي، فلا يمكن تصور مدن متوسعة أفقيا خالية من الطابع الجمالي، و أخيرا ما يفرضه النمو الديموغرافي و الكثافة. هذا

<sup>1</sup> - Ibid, p 92

<sup>2</sup> - Marion segaud, catherine bonvalet, jacques brun, Logement et Habitat l'état des savoirs, éditions la découverte, Paris 8, 1998, p 104

<sup>3</sup> - Dominique Chevallier, « L'espace social de La ville Arabe », Action thématique programmée du centre national de la recherche scientifique, Actes de colloque tenu le 24-1-25-26 novembre 1977, p 79

<sup>4</sup> - Actes des journées sur l'habitat urbain, Organisées par l'ONRS de la wilaya d'Alger « La question du logement a Alger », organisation national de la recherche scientifique, Office des publications Universitaire, 19 mars 1976, p123

<sup>5</sup> - www.factditem/ crise.com

<sup>6</sup> - سهام عبد العزيز « وسائل منع الحمل و أثرها على الخصوبة في الجزائر » أطروحة ماجستير، 2014/2013، ص 107.

الشكل السكني الذي يحقق حاجات الأسرة المتحولة بتوفير مأوى لها في حدود الإمكانيات التي تسمح لها بالتزود بالخدمات و التجهيزات و المرافق الضرورية و المساحة اللازمة و الاساسية لتعيش في رفاهية و حياة كريمة، ولكن شكل البناء النهائي الذي يضعه المهندس مضايق، لا يشعر فيه الفرد بالراحة لأن هذا المهندس يبني لتوفير حاجة السكن، و لكن الناس ليس لها حاجات فقط بل و أيضا رغبات و ميول و أذواق، هي حاجات نفسية أنثروبولوجية تتحكم فيها القيم الثقافية و المعايير الاجتماعية و أسلوب العيش و نمط الحياة و التمثلات « لأن الحداثة في هذا النموذج يجب أن تبحث عن وظائف الأشياء، دون أن تتخلى عن الطابع الجمالي و تسعى إلى إدراك الحاجات الحقيقية للإنسان في نماذج ذات دلالات<sup>1</sup> فإذا كان دور المهندس هو إعداد المخطط الجماعي و إعداد تنظيم داخلي و خارجي لهذا المسكن وفق متغيرات محددة و منها الجانب التقني المتوفر و الإمكانيات المتاحة، فيضع المهندس السكن اللائق و فيه تهوية، تعرض للشمس، إنارة ملائمة، مرافق و تجهيزات و تنظيم داخلي محدد للوظائف بدقة باستغلال المساحة المتوفرة إلى أقصى حد ممكن، و هذه كلها ضرورية لتوفير ظروف عيش ملائمة لأسرة نووية و كل ما تحتاجه العائلة. و لكن هذه تعتبر مساكن للفقراء عند الناس فهذه الخصائص التي أشرنا إليها نجدها في الغالب في السكن الاجتماعي الحضري الموجه للفئات التي لا تسمح لها إيراداتها بالوصول إلى ملكية سكن، و بهذا تجتهد الدولة من أجل توفير مسكن ملائم لهذه الفئة في الحدود العقلانية، هذا التصور للبناء الذي يتوصل إليه المهندس، الذي هو خلاصة جملة من العوامل المترابطة، كان أولها الاستعمار، ثم الثورة الصناعية العالمية و ما أحدثته من تطور في مجال الفكر و التقنية ثم في مواد و وسائل البناء، التي اعطت إمكانيات كبيرة للمهندس للبحث و الابتكار و الهدف الاسمي هو البحث عن الانسجام في مجال العمران، بين القيم الثقافية و الإطار المبني، و قد كثرت الحديث عن أزمة الهندسة أو أزمة الإطار المبني. هذا الرافض الذي يقره المهندسين أنفسهم فهم يعترفون « أن الإطار المبني غير مريح، مريض، هو في أزمة ولكن دون التوصل إلى تمييز الأسباب الهندسية التي أدت إلى ذلك، خاصة إلى اعتبار المهندس له مهمة شرعية و لكن يتم حاليا مجادلته من تخصصات خارجية<sup>2</sup>، هذه المناقشات التي يرفضها باعتبار نظرة هذا المهندس التي لها توجيهين الأول مادي أن البناء هو مجال تقني محض، و أن السكن من المنظور الهندسي هو القدرة على توفير مسكن تقنيا مناسب، فالمنتظر من هذا المسكن أن يكون عملياتي، جودة الرتوشات النهائية، و استخدام المعايير الحديثة التي ترفع درجة مقاومة و عمر المساكن، و استخدام معادلات رياضية دقيقة لحساب العلاقات التقنية في البناء، و الثاني هو أن المهندس هو المسؤول الاول عن حاجات الناس السكنية، و الاجتهاد لتوفير مأوى للناس و سقف للجميع حيث يستخدم كثير من المهندسين العجز الاقتصادي (و هو الفرق بين العرض و الطلب) الذي يستخدم كتبرير للإنتاج الهندسي في شكل معين<sup>3</sup>.

##### 5- البناء الذاتي :

إلى جانب البناء العمودي كنموذج سكني تبنته الدولة في إطار سعيها الدؤوب لتوفير حاجات الناس السكنية، خاصة الكمية للفئات التي لا تملك الإمكانيات من أجل الولوج إلى الملكية، و التي تبقى العامل الحاسم الذي يحدد آمال و طموحات الأسر كفعل انعكاسي عن التحول الاجتماعي، و التنمية البشرية و الاقتصادية، و التي وفرت الامكانيات للأسرة النووية بأن يكون لها سكن خاص بها، و رغم تعدد نماذج هذه الصيغة و أمام عجزها جميعا في تحقيق حاجات الناس التي تتوسع أكثر فأكثر كرد فعل عن مجموعة من العوامل بداية من النمو الديموغرافي المتسارع بمعدل نمو سنوي 1.72% خلال الفترة (1998 – 2008

1 - Bernard Prével, op cit, p 52.

2 - L'Architecture en Attente, op cit, , p 111

3 - Ibid, p 112

<sup>1</sup> إضافة إلى النمو والانقسام الاسري بحوالي 300 ألف أسرة جديدة سنويا<sup>2</sup>، ويرتبط النمو بالزواج مقابل الانقسام الذي يرتبط بتحلل العوائل التقليدية، و الذي يرتبط بدوره بعاملين هما التركيب السكاني أن أغلبية السكان هم شباب مما يؤدي إلى ارتفاع عدد الزوجات، ثم إلى تفتت الاسرة الموسعة أو المركبة و بروز الأسرة النواة كوحدة مركزية و جوهرية اجتماعيا و سياسيا و أصبحت هي المستهدف في السياسات العمومية، حيث ان الدولة توجه سياساتها لصالح ظهور الاسرة الصغيرة حتى يمكن التحكم فيها، فمسكن لأسرة صغيرة هو أمر مقبول عكس الأسرة التقليدية التي لا يمكن التعامل معها، هذا الانقسام الذي شكل مجال ضغط رهيب على الدولة فأصبحت غير قادرة على التوقع للطلب، و أمام هذه الوضعية كان يبرز في الخفاء نموذج البناء الذاتي أو الخاص و نقصد به المسكن الفردي الذي يتكفل به أصحابه و الذي يتموقع في قطعة أرض محددة و مفصولة بحدود عن غيره مع وجود عدد كبير من الأشكال في هذا النموذج أيضا تبدأ من السكن الهش إلى البناء العادي أو التقليدي إلى المنزل العصري وصولا إلى الفيلا الضخمة و غيرها، و عموما فإن البناء الذاتي هو البناء المقابل للعمودي، و يتميز عنه في عدة مجالات بداية بالملكية ثم شكل البناء و الأكثر أهمية هو أن العمودي هو النموذج الذي تضعه الدولة في السوق و الفاعل الرئيسي فيه هو الإدارة، فإن البناء الذاتي هو من اختصاص الأفراد و الفاعل المحوري فيه هو المستفيد نفسه « حيث أنه في مجال البناء الذاتي من الأفراد فإن هذه الطريقة لإنتاج المدينة، لا يتم دون طرح مشاكل في مجال السكن العائلي، خاصة أن المساكن ثم إنشائها من طرف حرفيين في مجال البناء الذاتي»<sup>3</sup>. فإذا اعتبر جون بيار أن الاعتماد على الحرفيين يؤدي إلى تراجع الإطار المبني فإني أعتقد أن هذه النقطة بالذات تمثل أكبر مساهم في تفوق هذا النموذج من البناء، فهذا الشكل السكني هو أحسن من الدولة التي فيها مهندس، مقال، و مكاتب دراسات، أما الفردي فالتكفل به بناء بسيط و صاحب المنزل و مع هذا فهو أكثر نجاعة و أحسن في المجال الداخلي و الخارجي و التصميم، لأنه بالأساس تعبير عن الرغبات الواقعية، لأن المشاركة الجماهيرية هي الأكثر قوة و فعالية، و فيه عقلانية في مجال المصاريف عكس العمومي الذي فيه إسراف و تبذير. و مع التطور الهندسي و التقني فإن هذا البناء تجاوز مرحلة البناء البسيط وفق الخصائص الطبيعية و أخذ توجهات أخرى بالميل إلى الضخامة و الجمال و الرونق، و هو ما أشار إليه اسماعيل عامر « أن المدن الجزائرية أخذت منعطف جديد بانتشار الفيلا الحديثة و في كثير من الحالات تتعدى هذه البنايات الضرورية السكنية الملحة لتأخذ طابع الفخامة»<sup>4</sup> و نعتبر أن هذا البناء الذاتي الحديث كان الحل أمام عجز الدولة في بناء وحدات سكنية للجميع، و الدولة لم تستطع التكفل بانشغالات الناس و تحقيق حاجاتهم السكنية، فشكل البناء الذاتي البديل عن هذا العمومي و لولا هذا النمط لكان الناس في الشارع، في الخيام أو القربي كما أنه ساهم في الحفاظ على بنية و تركيب العائلة الجزائرية، وهذا ليس رغما عنها بل كمطلب لها، فما تزال تسود العائلة التقليدية و هو ما ساهم في المحافظة على التنوع و التعدد الأسري.

ونشير كما سبق أنه ينمو في السر ذلك أنه غير مراقب، و الدولة غير متحكمة فيه في بنايات في أغلبها بدون رخص بناء أو أي وثيقة إدارية، و الدولة غير حاضرة لهذا النمو و التوسع أو أنها تغض الطرف عنه كاعتراف منها عن عجزها في تلبية حاجات الناس. و هو ما سماه صفرزيتوني بالبناء غير الشرعي لأنه خرج عن تحكم الدولة، « حيث يمكن اعتبار هذا الشكل غير الرسمي و غير المراقب و أنه يوفر حظوظ ليس فقط بتخفيض الضغط على العرض العمومي و أيضا في نفس الوقت فرصة للفئات الشعبية»<sup>5</sup>، فيمثل هذا البناء الفردي في الغالب الملاذ الأخير لفئة معتبرة من الاسر، التي لم تجد آمالها و حظوظها في النماذج

1 - ons n 496

2 - www.Creditban.com

3 - Jean Pierre Bwalwel, op cit, p 72

4 - فعاليات الملتقى الوطني حول أزمة المدينة الجزائرية، مطبعة جامعة منتوري، قسنطينة، 2003، ص 144 .

5 - درويش شريف « العائلة الجزائرية و المسكن » أطروحة دكتوراه، 2007/2008، ص 56.

التي تقدمها الدولة و التي تمثل نسب ضئيلة نظرا للوائح الانتظار الطويلة على مستوى البلديات مقابل إنجاز ضعيف. ومن جانب آخر فإن الشكل النهائي للمدن لا يمكن ان يقصي هذه البناءات التي تنتمي للخواص، و حتى أن هذا يظهر أكثر حدة في البوادي التي تغيرت ملامحها كلية، فلا يكاد المتجول لأطرافها يجد الفرق بين التكتلات الكبرى ممثلة في المدن، و الصغرى و هي الأرياف في مجال العمران، إلا قليلا من الاختلاف فقد « ساهم البناء الذاتي في تحسين المنظر الهندسي العام و الجمالي للمدينة التي تمثل مجال للصراع ضد الحضرية و البناء الفوضوي»<sup>1</sup>، حيث أن المشهد العام للبوادي تحول بسيطرة البناء من طابق واحد إلى اثنين، خاصة بعد تجند الدولة في سعيها لتحسين ظروف عيش البوادي و تخصيص إعانات معتبرة في هذا الإطار كانت تصل إلى 40 % من البرامج المتوقعة في شكل دعم يقدر بـ 70 مليون سنتيم، و التي كان لها دور بارز في الحد من الهجرة الريفية و تغيير الصورة العامة للبوادي و حتى في المناطق الحضرية تعمل الدولة على إيجاد صيغ في إطار البناء الذاتي المدعم من طرف الدولة أو من خلال عمليات التحصيل و توزيع الأراضي على الاسر، و التي تعمل الدولة من خلالها على دفع الأفراد للمشاركة و المساهمة الفعالة في بناء مساكنهم، و تشجيع هذا النمط يسمح لكل عضو في المجتمع بالبناء حسب حاجاته الحقيقية المرتبطة بإطار عيشه « و بهذا بقي البناء الذاتي النموذج الأكثر تعبيرا عن الطبقات الفقيرة»<sup>2</sup> مع أن الاختلاف في أشكال هذا النموذج هو الذي يحدد هذا الوضع فالبناء الذاتي خاصة في الاحياء الراقية لا يمكن أن يصل إليه أي أحد، فهو امتياز لا يمكن أن تحصل عليه إلا فئات معينة، و هم الأغنياء .

#### 5-1- ملامح تفوق الذاتي

أمام عجز الدولة في تحقيق مطالب شريحة معتبرة من الناس، يبرز البناء الفردي كملجأ وملاذ لهذه الشرائح من جانب، وكتعبير عن تعدد واختلاف الرغبات والحاجات التي تظهر تبعا للتنوع في الاشكال السكنية أيضا. ولكن أهم ما يميز البناء الذاتي هو أنه مقصد وغاية الأغلبية الكبرى من الأسر ويمثل مطلب لها وهو متفوق على العمودي في هذا المجال، و تعبیر عن الحاجات الحقيقية للأفراد إضافة إلى رغباتهم في تحقيق حاجة المأوى، فإن المحدد الأساسي ليس توفير مكان للنوم فقط، فتمثل ملكية المنزل الفردي في الجزائر أعلى مرتبة سكنية يمكن أن يصل إليها الفرد و لها قيمة رمزية كبيرة أنها تقع في قمة التدرج السكني و بينت دراسة لـ 1986-1988 في العاصمة « أن الوصول إلى السكن في وحدة سكنية، لا يمثل سوى مرحلة انتقالية في مجال السكن، و أغلب الملاك في الوحدات السكنية يأملون في ملكية منزل فردي»<sup>3</sup> و هذه حالة أغلب الأسر التي رغم اختلاف وضعها الثقافي و الاجتماعي، إلا أن الجميع يسعى إلى اكتساب مسكن فردي، و هذا راجع لتداخل مجموعة من العوامل التي ترتبط في أغلبها بأمور ثقافية و أنتروبولوجية و اجتماعية أكثر من أي متغير آخر، رغم وجود عوامل أخرى منها السعي إلى الاختلاف عن الآخرين<sup>4</sup> الذي يمثل العنصر الأولي و الجوهرى لمشروع الفيلا، و أضيف أن هذا المشروع له جوانب اجتماعية و نفسية أخرى من خلال السعي إلى تحقيق الذات أو التفوق الاجتماعي، هذا البناء الذاتي الذي برز تفوقه أكثر من خلال تطوره و تحوله موازاتاً مع التحول الاجتماعي و المطالب الشعبية، فأمام غياب مذهب هندسي محلي فإنه تطور بانعكاس وفق نمط انتماءه للديناميكية الثقافية<sup>5</sup> في الميل لتعميم استخدام عناصر هندسية ممثلة للسلوك الهندسي الذي ينتمي إلى فضاءنا الثقافي، هذا النمط الذي دمج القيم مع العصرية، و نجد هذا العنصر برز منذ تبنى الدولة للتجمعات السكنية الكبرى،

<sup>1</sup> - Jean Pierre Bwalwel, op cit, p 163.

<sup>2</sup> - Ibid, p 164.

<sup>3</sup> - Revue Algérienne d'anthropologie et de science social, « famille hier et aujourd'hui », N° 04, janvier. Avril 1998, p81.

<sup>4</sup> - L'Architecture en Attente, op cit, p87.

<sup>5</sup> - أحمد منير سليمان، الإسكان و التنمية المستدامة في الدول النامية، دار الراتب الجامعية، لبنان، 1996، ص 94.

التي كان الانتقاد الأكبر لها هو أنها لا تتوافق مع القيم الثقافية للمجتمع الجزائري، ومنها طبيعة و تركيب هذا المجتمع الذي كان في أغلبيته ريفي، ثم إلى تركيب الأسرة و حجمها، الذي لا يتوافق مع حجم المساكن، و استمر هذا الحال حتى في الوقت الحالي حيث أن الرغبة في البناء الذاتي التي أشار إليها محمد مدني من ملاحظة السلوك و نمط العيش في العمارات « حيث تظهر أزمة السكن في العمارة و الحل العملي هو السكن الفردي و هذا الانتقال هو تسرب حقيقي أمام بيئة لا يمكن تحملها ( العمارة)»<sup>1</sup> و أضيف إلى ما قاله السيد مدني الذي أشار أن العمارة تمثل تجسيد حقيقي لأزمة السكن (عيش سيء)، إلا أن العمارة كنمط بناء من الجانب التقني و الاقتصادي هي النموذج العملي أكثر، الذي يمكنه دمج الجانب الاقتصادي و الامكانيات مع حجم الطلب، هنا تكون العمارة هي الأكثر نجاعة و مع هذا فإن الرغبة هي في السكن الفردي لأن الناس لا تسعى إلى تحقيق حاجات سكنية كما أشرنا من قبل و لكن هناك أمور نفسية، اجتماعية تتحكم أكثر في هذا الميل السكني .

و نلاحظ أن هذا البناء الذاتي الذي يعني أن المتكفل بعملية الإنجاز هم المستفيدين أنفسهم، و هو ما يقدم فرصة لهؤلاء للتعبير بكل حرية عن رغباتهم، التي تنعكس من خلال بروز نموذج يجمع القيم التاريخية و الثقافية مع تقنيات البناء الحديث، و انتاج نموذج عصري مقبول و حتى مرغوب يستجيب أكثر للأدواق، يجمع في إطاره الحاجات للأمن و الحماية التي يوفرها الجانب المادي للمسكن، و موازاتاً معها الجانب الروحي و العاطفي للأفراد «فيتفق البناء الذاتي مع الواقع الثقافي المحلي الذي يظهر في المكونات التخطيطية و على مستوى المساحات و الجانب المعماري ناتج عن التراث الشعبي معبرا عن ثقافات و عادات المجتمع»<sup>2</sup>، فما يميز البناء الذاتي و الذي يجعل الجميع يفضلوه هو أن المستفيد يقوم بعمليات التصور في مجال الإنجاز و التخطيط و الجانب المعماري الداخلي و الخارجي مقابل العمارة التي لا يتدخل في إطارها المستفيد، و لا يحق له إبداء رأيه و غالبا نجد المسكن في العمارة ضيق و فق التوجه المعياري أكثر من أي شيء آخر، و التنظيم الداخلي يخالف القيم و عادات و تقاليد الأسر. الفردي هو المطلوب لأن المجتمع ما يزال قائم على النظام العرقي في جزء كبير منه، و- أنا- الأفراد غير محصورة، في مظهر أن الفرد يعيش ضد المجتمع و ضد الأفراد الآخرين، بعيدا عن الحس الجماعي و التضامن العضوي و بالتالي حالة نفور و انزعاج و عدم التزام بمقتضى عيش الآخر، السلوكات في العمارة منتقدة من أصحابها قبل غيرهم في غياب المجتمع الشامل (مجتمع المجموعة) الذي أشار إليه ماكس فيبر « أنه لا يمكنه أن يأتي بحق إيجابي إلا إذا أدركه المجتمع كجسم سياسي حر، يستطيع أن يخلق قواعده القانونية»<sup>3</sup> و هذه أهم الركائز التي تقوم عليها الحداثة و الفضاء العام، في علاقة ارتباط بين الداخل و الخارج للمسكن، و التي تضع في علاقات، السلوكات المنزلية مع الخصوصيات الفيزيقية، و إضافة إلى غياب الحس الجماعي و الاحترام و التقدير و الخضوع للقوانين و العقلانية، التي تحصر في إطارها مفاهيم غامضة مثل الحرية و المواطنة و التي جعلت مجتمعة العيش في العمارة صعب، و الحل هو الإخلاء و السعي إلى اقتناء مسكن فردي الذي يزيل هذه الهموم و الغموم، و يحقق حرية الفرد المنعزل في - قطعة أرض منفصلة - بعيدا عن الاحتكاك اليومي و الالتقاء المباشر الذي تفرضه الملكية الجماعية و رفض السكن مع الآخرين. و هو هناك أيضا الوضع العام و في الغالب غائب، يبدأ مع المهندس الذي يتصور شكل البناء و التهيئة وفق نمط تفكير غريب عن الواقع فالمنزل الفردي يتفوق بمكان لركن السيارة، و الذي أصبح مطلب حقيقي مقابل العمودي الذي يضع هذا المكان في الخلاء - parking - مع أن الشرطة تتسم بعدم التدخل و عدم الوعي بالوضع العام و تدخل الدولة في مجال الشجار، سرقة، ... لا يتم « إن المدينة لا تنتجها عقول أفرادها أو أنها

<sup>1</sup> - Revue Algérienne d'anthropologie et de science social, « espace habiter. Vécus domestique et forme d'urbanité », N° 02, 1997, p. 86.

<sup>2</sup> - أحمد منير سليمان، مرجع سابق، ص 96.

<sup>3</sup> - Lahouri Addi, Les mutation de la Société Algérienne – Famille et lien Social dans l'Algérie contemporaine, éditions la découverte, Paris 8, 1999, p. 241.

بالمصادفة، وهذه لا تكفي مع أن دورها جوهري ولكن الأكثر أهمية أنها تكون استجابة لطموحات، وإجابة عن الأسئلة التي يطرحها سكانها<sup>1</sup>، ومقابل هذا يمثل البناء الذاتي تعبير حقيقي يعكس الواقع الاجتماعي بكل جوانبه ومع التحول الاجتماعي فإنه قابل وبسرعة للتأقلم مع الظروف والمستجدات التي تحدث فهو له قدرات كبيرة على المقاومة ضد الاختلالات التي تحدث ويمكن الأفراد والأسرة من التعبير بحرية وانسجام مع الوضع القائم، « وقد فقد الجزائري المدينة في ظل غياب الأمن وفقدان الضبط الاجتماعي ولم يستطع بناء مجتمع قائم على معايير أخرى عدا معيار القرابة<sup>2</sup> أو ما سماه دوركايم بالتضامن الآلي، دون القدرة على تجاوز المرحلة الآلية والوصول إلى التقسيم العضوي، مقابل إنتاج نموذج جزائري يجمع التقليد مع العصرية والذي يبرز من خلال الشجار والخلافات وعدم التجند في الحياة الجموعية، وأيضا في مجال البناء حيث يضع المهندس أن الجزائر دولة اسلامية آمنة وعصرية تحترم الحياة الخاصة والفضاء العام فلا يضع إطارات معدنية في النوافذ للوقاية وركن السيارة في مكان عام مفتوح، وهو ما يدفع الناس إلى إعادة توجيه العلاقات في مجال البناء مع الواقع الاجتماعي، ويتم وضع الشبابيك على النوافذ في صورة مشوهة لهذا الإطار المبني، يصل بالحد إلى الطابق الخامس وأكثر، والذي يدفع المشاهدين لهذا المنظر أن يتساءلوا عن قدرات السارقين في الوصول إلى الطوابق العليا. فيجعل الواقع الناس يعيشون في انغلاق ثنائي كما أشار عبد الرزاق جيلالي<sup>3</sup> سياج على النوافذ والخوف من الآخرين وسياحة في عالم الخيال من خلال القنوات الفضائية.

#### 6- العلاقة بين الذاتي والعمودي

الصورة النهائية للبناء تتداخل فيها مواد البناء وعمليات التصور، هذه الصورة التي لا بد أيضا أن يكون لها انعكاس على القيم الثقافية وأنماط التفكير، وفي الجانب الآخر نجد الأسرة التي تسعى إلى تحقيق حاجاتها في علاقة ارتباط كبير بينها وبين المسكن، فلا يمكن أن نجد أحدهما بدون الآخر، والصورة النهائية للمسكن لا بد أن تتداخل فيها هذه العوامل، ولكن مع التحول الاجتماعي الكبير والتقدم العلمي الذي فرض منظومة من الأفكار والمبادئ، التي جعلت الحياة بأكملها تخضع لأمر نسبية ومعايير، وبهذا لا بد من الاختلاف بين أنماط السكن، مع أن الاختلاف الأكبر هو بين الذاتي وهو الذي يتميز في الغالب بالملكية الفردية، مقابل الثاني أي العمودي الذي يتميز بالجمع بين الفضاء العام والخاص هذا المفهوم الذي لا بد أن يرتبط بالحدثة<sup>4</sup> وهي القواعد التي تشكل المجتمع الحضري الحقيقي، والمجتمع الجزائري وجد مدن جاهزة، وهي لم تنشأ انطلاقا من ثقافته ومؤسساته وقيم وقواعد اقتصادية وروابط اجتماعية انتجها في مجال التحول والتطور من مجتمع ريفي إلى حضري. وهذه السياقات هي التي أوجدت النظرة والتصوير للمجال السكني، والاختلاف بين الفضاء العام والخاص، مع انهيار واضح للفضاء العام الذي أصبح مجال للحرب وليس للسلم المدني، والدولة تبنى من خلال أن الفضاء العام هو خلاء محورنا العثمانيون أن الخلاء أو القطاع العام هو شر، ففي المعتقد الجزائري هي سلبية وأيضا أننا عشنا في قبائل متفرقة والمجال المفتوح، والمشمتمل في تمثالتنا للفضاء العام والفضاء المشترك الذي فرضته الكثافة أكثر من أي شيء آخر واحتلال الفضاء من طرف المواطنين يمكنه وحده تقديم المفتاح الوظيفي الحقيقي لاستخدام المكان، وأن الاستخدام يقترح حلول تسمح بتقدير نجاح الاقتراحات الهندسية<sup>5</sup> وهو ما ينعكس على الوضع العام الذي أشير إليه دائما وهو تفوق البناء الذاتي مقابل العمودي ومنهج البناء في الجزائر هو تلقائي وليس مناقش و ليس نقدي، فلا يوجد نقاش مسبق ولا يوجد مناقشة

<sup>1</sup> - Bernard Prével, op cit, p 82.

<sup>2</sup> - فعاليات المنتدى الوطني حول أزمة المدينة الجزائرية، مرجع سابق، ص 171.

<sup>3</sup> - فعاليات المنتدى الوطني حول أزمة المدينة الجزائرية، مرجع سابق، ص 90.

<sup>4</sup> - Lahouri Addi, op cit, p 264.

<sup>5</sup> - L'Architecture en Attente, op cit, p 131

استدراكية، و لا تقوم على منهجية عقلانية التي تضع الأسس التي ترتبط بالمعايير العالمية، التي تدمج الكثافة مع المساحة مع أن المعايير في الجزائر غالبا ما يتم إيجادها بطرق آلية، دون الأخذ بعين الاعتبار للبيئة السوسيو- الثقافية و القدرات و الإمكانيات التي تتوفر عليها الدولة، و الذي يمثل استمرار للبناء و التوجه الأيديولوجي الذي تتبناه الدولة، و التخطيط لعملية التوازن بين الصراعات على المصادر و تحقيق التوفيق بين المصالح المتصارعة، « و كان المفروض في الاشتراكية أن تتكفل الدولة و تستحوذ على سلطة البناء و تخطيط المدن<sup>1</sup> و الذي لم يحدث في الجزائر و نلاحظ انتشار للبناء الفردي و التهيئة الحضرية يتكفل بها الخواص، فرغم تبني الدولة للاشتراكية و إلى غاية 1990 إلا أن ملامحها لم تبرز في الواقع، حيث اللاتجانس و اللاعدل يظهر للعيان فنجد أحياء الأغنياء و أخرى للفقراء و تمييز طبقي واضح، و هو مستوحى من النموذج الفرنسي « في قالب لا شخصي بدأت منذ الاستقلال باحتلال النخبة الجزائرية للمساكن الفرنسية<sup>2</sup> التي وزعت حسب الوضع الاجتماعي لهذه النخبة، في تمييز بين الأحياء السكنية الراقية إلى عمارات الضباط و الإداريون السامون، إلى العمارات للفئات الشعبية المتوسطة، فالجزائر تبنت الاشتراكية و لم تلتزم بها، مع أن هذا لا ينفي مجهودات الدولة في القطاع. هذا الانفصال الاجتماعي الطبقي هو الذي ساهم في محورة الجزائر و قبله لم يوجد تمييز، هذا الأخير الذي ساهم في إهمال كل المتغيرات الأخرى الأسرية و الاجتماعية، فنجد أن الأسرة شهدت تحولات كبيرة و من عدة جوانب ديموغرافيا ببلوغها مرحلة متقدمة في الانتقالية الديموغرافية في فترة وجيزة، و يوضح الجدول التالي ذلك

جدول رقم (02): المؤشر التركيبي للخصوبة

السنوات	1966	1970	1977	1985	1992	1996	2006
المؤشر التركيبي للخصوبة	7.1	8.36	7.4	6.2	4.26	3.14	2.27

#### المصدر: الديوان الوطني للإحصاء

و نلاحظ أنه رغم انتقال نصيب المرأة من الأطفال من 8.3 في 1970 إلى 2.2 طفل لكل امرأة في 2006، إلا أن هذا الانخفاض الذي سوف ينعكس على الأسر بشكل كبير مساهما في خفض حجمها، فإنه لم يؤثر في المجال السكني حيث ظل المطلب الشعبي هو المسكن الفردي، كانعكاس حقيقي و تعبير عن عدم وجود علاقة بين المساحة القابلة للسكن و حاجات الأسرة، و أن هذا التوجه التفضيلي نجده انعكاس لمتغيرات أخرى لسنا بصدد هنا. إلا أن هذا لا ينفي وجود بوادر تحول اجتماعي كبير هو مرتقب في هذا المتغير المرتبط بالميل السكني، والذي بدأ مع العمليات الترقوية الخاصة بالضخمة، الموجهة لطبقات اجتماعية مترفة التي أصبح لها ميل سكني للعيش في سكنات عمودية بشروط، كتعبير عن بداية التحول في النظرة للملكية الجماعية وبداية رسوخ هذا النمط من البناء في تمثلات الناس خاصة إذا أشرنا هنا إلى موضوع ديموغرافي جديد في الجزائر، أن المجتمع الجزائري بدأ يتجه نحو الشيخوخة والذي نجده في الجدول<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> - حسين عبد الحميد أحمد رشوان، دور المتغيرات الاجتماعية في التنمية الحضرية، دراسة في علم اجتماع الحضري، مؤسسة شباب الجامعة للنشر و التحليل، مصر، 2004، ص 105.

<sup>2</sup> - فعاليات الملتقى الوطني حول أزمة المدينة الجزائرية، مرجع سابق، ص 136.

<sup>3</sup> - أمزيان نعيمة « الآثار السوسيو اقتصادية لحدث التقاعد على فئة العمر الثالث » أطروحة ماجستير، 2005/2004، ص 164.

جدول رقم (03): تطور الفئة الأكثر من 60 سنة

السنوات	1994	1998	2001	2003
الفئة أكثر من 60 سنة	5.92	6.6	6.84	7.06

المصدر: الديوان الوطني للإحصاء

26

فهذا التحول للهيكلة العمري في الجزائر لا بد أن يكون له انعكاسات على الواقع الاجتماعي وخاصة السكني بالتوجه إلى تفضيل السكن العمودي، مع أن هذا الطرح ما يزال يحتاج إلى الكثير من البحث والتحقيق، خاصة إذا أشرنا أن العوائل أصبحت تصل إلى مرحلة التوقف عن الإنجاب في وقت مبكر فنجد أن معدل الخصوبة للفئة العمرية عرف تراجع كبير من 101% في 1987 إلى 81% في 1995 إلى 47% في 2006، ليعرف تراجع أكبر في الفئة العمرية 45 – 49 سنة من 23% في 1992 إلى 9% في 2000 إلى 2.5% في 2006<sup>1</sup> فالأسرة أصبحت تتوقف عن الإنجاب في وقت مبكر وهذا رغم ارتفاع سن الزواج الأول والذي يظهر حسب الجدول<sup>2</sup>:

جدول رقم (04): ارتفاع سن الزواج الأول

السنوات	1966	1977	1987	1998	2008
إناث	18.3	20.9	23.7	27.6	29.1
ذكور	23.8	25.3	27.7	31.3	33.5

المصدر: الديوان الوطني للإحصاء

ورغم هذا الارتفاع من 18 سنة في 1966 إلى أكثر من 29 سنة في 2008 والذي هو مرتبط أساسا بالنظرة إلى هذه العلاقة بين الذكر والأنثى، التي عرفت تغيرات كبيرة والتي أصبحت مطلب جوهرية لهذه الفئة، وهي تسعى جاهدة للوصول إليها، وفي هذه المراحل الأولى لا يتم الاختيار السكني ولا تكون هناك تفضيلات سكنية لأن هم الأسرة هناك هو هذه الحرية قبل أي شيء آخر، هذا الوضع يتغير مع الوقت ومع وصول الأبناء إلى مراحل متوسطة من العمر، ومع زيادة حاجاتهم والتي تحول كلية النظرة إلى السكن بالرغبة الجوهرية للعائلة نحو السكن الفردي الذي يظهر أكثر قدرة على تحقيق حاجات هذه الأسرة وفي انسجام أكبر مع أذواقها، هذه الفترة المعبرة عن مرحلة الذروة بالنسبة لهذه الأسرة، والتي تتلاشى بدورها مع الوقت خاصة مع بلوغ الأبوين مرحلة متقدمة من العمر، وبداية انتهاء مسيرة الأسرة فاتحة الطريق أمام آفاق أسر جديدة وانقسامات وانفصالات عائلية، في هذه المرحلة يعود كما أشرنا إلى تفضيل الأبوين للعودة إلى نقطة البداية والسكن العمودي في هدوء وسكون إلى نهاية العمر تاركين المنزل الفردي في تناقضاته وصراعاته العائلية، في الإنجاب وقضاء حوائج الأفراد من فئات عمرية مختلفة، والأبوين يفضلون ترك هذه المهمات لهذه الأسرة الناشئة التي ما تزال تملك القدرات البدنية والعقلية التي تمكنها

1 - سهام عبد العزيز، مرجع سابق (أطروحة ماجستير) 2013/2014، ص 81 .

2- مروان مهداوي « تأخر سن الزواج وعلاقته بانخفاض معدلات الخصوبة في الوسط الحضري » أطروحة ماجستير، 2010/2011، ص 75 .

أن تواجه المشاكل اليومية العادية لأي أسرة، و ينعزلون بعيدا في هذه العمارة مع بقائهم محتفظين بتلك السلطة الرمزية من خلال الزيارات و المشاورات و غيرها.

خاتمة:

إن السكن باعتباره حاجة أولية لا بد من تحقيقها لجميع الناس مهما كانت درجة ارتفاعهم أو انخفاضهم في السلم الاجتماعي السياسي أو الاقتصادي، و الذي يمثل منطق لا يمكن فتح النقاش حوله باعتبار أن هذا المسكن كان مصاحب للإنسان منذ وجد، و اختلف سكنه عبر الزمان و الفضاء و الذي كان يخضع لمجموعة من العوامل الثقافية و البيئية و الاجتماعية، و هذا الاختلاف هو الذي يمكن في إطاره فتح المجال للنقاشات أو الحوار حول النموذج السكني الذي ثم انتاجه في هذا الإطار الثقافي، و بإسقاط هذا على الجزائر تبرز فكرة الميل السكني نحو البناء الفردي، مقابل العمودي هذا الأخير الذي يمثل ضرورة تفرضه أزمة السكن، مقابل الحداثة و كنموذج عصري، و لكن في الجزائر ما يزال غير مقبول و معرض لاستنكار شعبي، و الحل هو السكن الفردي هو المطلوب شعبيا و الدولة كان من المفروض أن تشجع هذا النمط من البناء لأن الناس لا يهتمها الجانب الاقتصادي في أزمة السكن، أي معادلة الكثافة التي تربط النمو الديموغرافي مع المساحة بل يهتمها أكثر تحقيق رغباتها في هذا البناء الذاتي الذي هو تجسيد حقيقي لآمالها و طموحها، لأن فرض الدولة لنموذج يعرض شاغليه لانزعاج يومي هو في حد ذاته رسوب، مقابل حلول طويلة الامد تركز على القيم الديمقراطية على العدالة، المساوات، أساسها اعتبار المجتمع كالجسم الواحد و أعضائه هي المؤسسات و أجهزة الدولة التي يجب ان تتوحد لفرض هذا النموذج، ليس بالقوة بل عن طريق عمليات التثاقف و التنشئة الاجتماعية في إطاره، و أن يصبح الحل العملي و ذلك من خلال دمج الإيجابيات التي يتمتع بها خاصة الاقتصادية، فهو يساهم في تقليل التكاليف إلى أقصى درجة و من جانب آخر يعمل على إيجاد حلول للمشاكل التي تعيقه و في مقدمتها النظرة للملكية المشتركة و الإطار القانوني و الفضاء العام، و السهر على إخراج هذا المجتمع من الازدواجية التي يتمتع بها في مجال الجمع بين العصري و التقليدي و التركيز على الحداثة و مبادئ العقلانية.

#### قائمة المراجع:

1. رجاء مكي طيارة، مقارنة نفس - اجتماعية للمجال السكني - دراسة ميدانية، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، 1995، الطبعة الأولى.
2. بشير مقببس، مدينة وهران، دراسة في جغرافية العمران، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.
3. أحمد منير سليمان، الإسكان و التنمية المستدامة في الدول النامية، دار الراتب الجامعية، لبنان، 1996.
4. حسين عبد الحميد أحمد رشوان، دور المتغيرات الاجتماعية في التنمية الحضرية، دراسة في علم اجتماع الحضري، مؤسسة شباب الجامعة للنشر و التحليل، مصر، 2004.
5. فعاليات الملتقى الوطني حول أزمة المدينة الجزائرية، مطبعة جامعة منتوري، قسنطينة، 2003.
6. روبير اوزيل، ترجمة بهيج شعبان، فن تخطيط المدن، المكتبة العلمية، لبنان.
7. عبد القادر بلطاس، استراتيجية تمويل السكن في الجزائر، Edition légende، الجزائر، 2007.
8. مرحوم فريد « السكن الجماعي في الجزائر: سكان حي الصباح (وهران) بين الاجتماع و الصراع » أطروحة دكتوراه، 27 - سهام عبد العزيز « وسائل منع الحمل و أثرها على الخصوبة في الجزائر » أطروحة ماجستير، 2014/2013.
9. درويش شريف « العائلة الجزائرية و المسكن » أطروحة دكتوراه، 2008/2007.
10. أمزيان نعيمة « الآثار السوسيو اقتصادية لحدث التقاعد على فئة العمر الثالث » أطروحة ماجستير، 2005/2004.



11. مروان مهداوي « تأخر سن الزواج و علاقته بانخفاض معدلات الخصوبة في الوسط الحضري » أطروحة ماجستير، 2011/2010.
12. Rachid hamidou, Le logement un défis, imprimerie Aissat Idir, 1989.
13. N. A. Benmatti. Nadir Abdellah, L'habitat du tiers – monde. Cas de l'Algérie, S.N.E.D, Alger, 1982.
14. Bernard Prével, La ville à venir .habitat. Technologie. Environnement, Descartes et cie, 1994.
15. Djilali Benamrane, Crise de l'habitat. Perspective de développement socialiste en Algérie, , Société Nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1980.
16. L'Architecture en Attente, H.T.M « Habitat. Tradition et modernité », Revue d'Architecture et d'Urbanisme, éditée par le Sarl ARCCO – Architecture et communication, 1993.
17. Jean Pierre Bwalwel, Famille et Habitat. Implication éthiques de l'éclatement urbain. Cas de la ville de Kinshasa, édition scientifique européennes, Berne, 1998.
18. Moudjari Messaoud. Dahmani Krimo, projet urbain efficience d'un paradigme conceptuel de l'habitat durable, Office des publications Universitaire, 2013.
19. Marion segaud, catherine bonvalet, jacques brun, Logement et Habitat l'état des savoirs, , éditions la découverte, Paris 8, 1998.
20. Dominique Chevallier, « L'espace social de La ville Arabe », Action thématique programmée du centre national de la recherche scientifique, Actes de colloque tenu le 24-1-25-26 novembre 1977.
21. Actes des journées sur l'habitat urbain, Organisées par l'ONRS de la wilaya d'Alger « La question du logement a Alger », organisation national de la recherche scientifique, Office des publications Universitaire, 19 mars 1976.
22. Lahouri Addi, Les mutation de la Société Algérienne – Famille et lien Social dans l'Algérie contemporaine, éditions la découverte, Paris 8, 1999.
23. Farouk Benatia, L'Appropriation de l'espace à Alger Après 1962, Société Nationale d'édition et de diffusion, Alger, 1978.
24. Revue Algérienne d'anthropologie et de science social, « Pratiques maghrébines de la ville », N° 22, décembre 2003.
25. Revue Algérienne d'anthropologie et de science social, « espace habiter. Vécus domestique et forme d'urbanité », N° 02, 1997.
- 26.- Revue Algérienne d'anthropologie et de science social, N° 29-30, 2005.
- 27.- Revue Algérienne d'anthropologie et de science social, N° 03, 2009.
28. Revue Algérienne d'anthropologie et de science social, « espace habiter. Vécus domestique et forme d'urbanité », N° 02, 1997.
29. Annuaire statistique de l'Algérie

## الثقافة التنظيمية ومسألة الهوية المهنية داخل مجال العمل أية علاقة ؟

### دراسة ميدانية بمؤسسة اتصالات الجزائر تيارت

د. هيشور محمد أمين/جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر

29

#### ملخص:

شكل موضوع الثقافة التنظيمية في الآونة الأخيرة اهتمام كل من منطري علوم الإدارة، والفكر التنظيمي، وعلم الاجتماع المؤسسة، باعتبارها أحد العوامل الأساسية المحددة لنجاح وتفوق وتميز المؤسسات الاقتصادية، فضلا عن كونها تلعب دورا مهما في رسم وتعيين حدود المنظمة، وبهذا تظهر الثقافة التنظيمية كأحد عوامل إثبات الهوية والتميز عن البيئة الخارجية، وذلك انطلاقا من القيم والعناصر الثقافية المشتركة بين العمال والتي تسمح لهم بالتميز والاختلاف عن باقي أفراد المؤسسات الأخرى، وتهدف الدراسة الحالية إلى معرفة مدى إسهام الثقافة التنظيمية في بناء الهوية التنظيمية في المؤسسة الاقتصادية الجزائرية.

الكلمات المفتاحية: الثقافة التنظيمية، الهوية التنظيمية، القيم التنظيمية، المعتقدات التنظيمية، المؤسسة الاقتصادية.

#### مقدمة:

تعتبر الثقافة التنظيمية المرآة العاكسة لمختلف أنشطة المؤسسة وآليات اشتغالها الظاهرية والباطنية، وهي تكسب المؤسسة هويتها التنظيمية وسمعتها وقيمتها ونتائجها الملموسة، وهي الفضاء الذي تلد في رحمة التوجهات الإستراتيجية للمؤسسة والخطط والهياكل وأنماط القيادة، كما تُسهم في بناء المناخ الأخلاقي والقيمي الموجه لسلوك العاملين نحو التميز المؤسسي .

ولذلك يمكن اعتبار الثقافة التنظيمية « كجهاز التنفس » للأنساق التنظيمية، أو أنها جوهر حياة المؤسسة ومواردها البشرية والتي تقود إلى إحراز التفوق التنظيمي، وتكسب المؤسسة صفة الفعالية على المستوى الداخلي والخارجي.

وما دامت الثقافة عنصر أساسي للنظام المؤسسي، فإنه لا يمكن بأي حال من الأحوال تجاهل مزاياها في إدارة المشروعات التنظيمية، وعلاج المشكلات الطارئة، وتحقيق الجودة التشغيلية، وفي ذات الوقت لا ينبغي نسيان أثارها الدراماتيكية على الجسد التنظيمي، ولهذا تلجأ المؤسسات الريادية إلى إبرام صفقات تغييرية على الثقافة تحسبا للعوائق التنظيمية المحتملة، والنتيجة عن إفرازات البيئة الخارجية وتلاعبات زمن عدم اليقين.

## أولاً: الإشكالية:

تعمل المؤسسات في عالم مضطرب فيه الكثير من التحديات البيئية والتهديدات الخارجية، فالتطور التكنولوجي المذهل وعالمية النشاطات وسرعة تدفق المعلومات أتاحت فرصاً للمؤسسات من أجل تطوير ذاتها وكسب مهارات التعلم الثقافي والتنظيمي، وهو ما يفتح الطريق أمام التجديد، والاستعداد لمواجهة السيناريوهات المستقبلية، ويبدو أن استخدام الثقافة كسلاح تنافسي سيمكن المؤسسات من جلب المزايا والأرباح والتغلب على الصعوبات التنظيمية .

30

كما أن سرعة التغيرات المحلية والتحولت الخارجية فرضت على القائمين على شؤون هذه المؤسسات إعادة حساباتهم وتغيير ممارساتهم إزاء واقع جديد، انطلاقاً من التركيز على المفاهيم الرمزية للمؤسسة وتبني المنظور الثقافي في تسيير المشروعات التنظيمية، وبالتالي تصبح الثقافة التنظيمية في المنظمة الاقتصادية عاملاً هاماً جداً في حياة المؤسسة، إذ تسهم الثقافة داخل المؤسسة الاقتصادية في تحسين الأوضاع الداخلية والتكيف المستمر مع الأوضاع الخارجية، كما يمكن اعتبارها ( الثقافة ) الحزام التنظيمي الجديد الذي يسمح بخلق التعبئة وتحقيق الاندماج، فضلاً عن كونها مفتاح التميز المؤسسي والنجاح التنظيمي .

ولتتمكن المؤسسات الاقتصادية الجزائرية من مواجهة التحديات الصعبة والمتمثلة في المنافسة الشرسة والحفاظ على مكانتها وحصتها السوقية، تسعى دائماً الاستعانة بالنظرة الثقافية للمؤسسة، من حيث تسيير التوجهات العمالية وعقلنة دوافعهم، وترسيم الأهداف المستقبلية للمؤسسة وتطلعاتها في الساحة الاقتصادية، وبالتالي تكون المؤسسات في رهان حقيقي وتحدي صعب، إذ تصبح هذه الثقافة هي المتحكمة في تعزيز الهويات التنظيمية، فهي تساعد المؤسسات الاقتصادية في مواجهة التغيرات المتسارعة محلياً وعالمياً، وفي الوقت نفسه قد تكون سبباً في انحسار وتراجع المؤسسة وخروجها من السوق.

ومنه سنحاول في هذه الدراسة تشخيص مدى إسهام الثقافة التنظيمية في بناء الهوية التنظيمية انطلاقاً من الإجابة على التساؤل الرئيسي التالي:

إلى أي حد تسهم الثقافة التنظيمية في بناء الهوية التنظيمية في المؤسسة الاقتصادية ؟

ثانياً: الفرضيات: بناء على سؤال الإشكالية نفتح الفرضيات التالية :

➤ تسهم القيم التنظيمية في بناء الهوية التنظيمية في المؤسسة الاقتصادية.

➤ تسهم المعتقدات التنظيمية في بناء الهوية التنظيمية في المؤسسة الاقتصادية.

ثالثاً : أهمية الدراسة : تكمن أهمية الدراسة في النقاط التالية :

✓ تعتبر الثقافة التنظيمية بمثابة الدليل لتشخيص المواقف والسلوك والتمثلات داخل المؤسسة .

✓ تسهم الثقافة في تنمية الشعور والحس الجماعي بأهداف المؤسسة الاقتصادية.

✓ تعمل الهوية التنظيمية على تعزيز وفرض الالتزام التنظيمي الجماعي وانسجام الرؤية.

✓ الهوية التنظيمية هي الأساس للنجاح التنظيمي ودعامة التميز التنظيمي.

رابعاً - أهداف الدراسة : تهدف الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف كالتالي :

✓ إبراز مدى مساهمة الثقافة التنظيمية في بناء الهوية التنظيمية في المؤسسة الاقتصادية .

✓ تشخيص مدى مساهمة القيم التنظيمية في تشكيل الهوية التنظيمية .

✓ محاولة تحديد مدى مساهمة المعتقدات التنظيمية في بناء الهوية التنظيمية للمؤسسة الاقتصادية .

## خامسا - تحديد المفاهيم:

1- الثقافة التنظيمية: يعرفها Pettigrew بأنها نظام يمثل المعاني المقبولة علنيا وجماعيا والتي تسري على مجموعة معينة وفي زمن معين<sup>1</sup>. ويعرفها ديسلر بأنها: القيم السائدة في المؤسسة وهي أكثر مكونات المؤسسة أهمية، وتشمل على العديد من العناصر والمكونات المعنوية والمادية، وهي تشتمل على سلوك العاملين في المؤسسة ومدى تعاونهم مع بعضهم البعض، ومعايير الترقيات والحوافز والعقوبات<sup>2</sup>. ويعرفها أسامة الفراج بأنها: عبارة عن حالة مستقرة نسبيا من الممارسات السلوكية التي تعيشها المنظمة جراء نقل تجارب الأكثرية المسيطرة أو الأقلية الضاغطة في المنظمة، وأفكارهم ومعتقداتهم وقيمهم وحقنها في النظام السائد لتحقيق أهداف محددة<sup>3</sup>.

وبعد ذكر التعاريف السابقة نقترح التعريف الإجرائي للثقافة التنظيمية: هي مجموع القيم التنظيمية والمعتقدات التنظيمية التي تميز المنظمة عن مثيلاتها، وتسهم إسهاما فعالا في بناء الهوية التنظيمية في المؤسسة الاقتصادية.

2- الهوية التنظيمية: يشكل العمل في المؤسسة الصناعية مصدرا لتشكيل الهوية التنظيمية الفردية والجماعية، ذلك أن العامل يندمج وينتمي إلى جماعة غير رسمية يتبنى مواقفها واتجاهاتها وميولاتها وأفكارها، والفرد العامل في غالب الأحيان يتبنى موقف الجماعة، حيث تكون هذه الأخيرة مصدرا لأهم التوجهات الفردية، مما يضاعف من إخلاص الفرد وسعيه الدؤوب لتحقيق أداء عالي، ورضاء الجماعة الاجتماعية وتحقيق الأهداف التنظيمية.

ويرى حريم حسن الهوية التنظيمية بأنها: تتعلق بمدى انتماء العاملين للمنظمة ككل بدلا من التي يعملون فيها أو مجال تخصصهم<sup>4</sup>.

ويعرف Albert and Whetten الهوية التنظيمية بأنها: فهم أعضاء المنظمة الجماعي للسمات الأكثر جوهرية (مركزية) في المنظمة التي تميزها عن غيرها، وتتصف عادة بالاستمرارية ويُفترض بالسمات الأكثر جوهرية في المنظمة أن تستمر وذلك لأنها مرتبطة بتاريخ المنظمة، كما أنه ينبغي تبحث المنظمة عن الوسائل التي تساعد على أن تميز نفسها عن المنظمات الأخرى المنافسة<sup>5</sup>.

وتتشكل الهوية التنظيمية في المنظمة من القيم الجوهرية والمعتقدات التي توجّه تصرفات العاملين بالمنظمة، إذ يكون للإدارة العليا دورا أساسيا في تشكيلها والإجابة عن السؤال "من نحن" كمنظمة، فذلك يؤثر في تفسير الأمور وتحديد التحديات عند صياغة الإستراتيجية والاتصال بالخارج وحل النزاعات التنظيمية<sup>6</sup>.

1- رضويون حوين: الثقافة التنظيمية وفاعلية المنظمة، دراسة مقارنة بين الكليات العلمية والإنسانية في جامعة بغداد، مجلة الإدارة والاقتصاد، جامعة بغداد، العراق، العدد الخامس والسبعون، 2009، ص 6.

2- مروان محمد النسور: دور الثقافة التنظيمية في تحسين أداء العاملين في القطاع المصرفي الأردني، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الاقتصادية والإدارية، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، المجلد العشرون، العدد الثاني، 2012، ص 132.

3- أسامة الفراج: نموذج مقترح لخصائص الثقافة التنظيمية الملائمة في القطاع العام في سوريا، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، جامعة دمشق، سوريا، المجلد 27، العدد الأول، 2011، ص 164.

4 - حريم حسن: السلوك التنظيمي، سلوك الأفراد والجماعات في منظمات الأعمال، دار حامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2004، ص 328.

5- عبد الطيف عبد الطيف، محفوظ أحمد جودة: دور الثقافة التنظيمية في التنبؤ بالهوية التنظيمية، دراسة ميدانية على أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الأردنية الخاصة، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 26، العدد الثاني، 2010، ص 329.

6- عبد الطيف عبد الطيف، محفوظ أحمد جودة: المرجع نفسه، ص 329.

ومن وجهة نظر عامة فإن مفهوم الهوية المهنية يشير إلى ثلاثة عناصر رئيسية هي: عالم حياة العمل، علاقات العمل، المسار الوظيفي والنظرة إلى المستقبل<sup>1</sup>.

بناءً على هذه التعاريف يمكن القول أن الهوية التنظيمية هي: عبارة عن خصائص فريدة من نوعها تميز المؤسسة الاقتصادية عن غيرها، ويلعب القادة المسيرين دوراً كبيراً في تحديد معالم الهوية التنظيمية أمام الفاعلين داخل المؤسسة، وهذا ما ينبغي ويقوي من مستوى الاندماج والانتماء لدى التركيبة البشرية العمالية، ليأتي سلوكهم صورة طبق الأصل لسلوك وممارسات وتصرفات القادة الإداريين، مما يؤدي في نهاية المطاف إلى تعزيز خصائص المؤسسة الفريدة وتميزها عن مثيلاتها، وتصبح الهوية مصدراً للبرح المادي، والتعبئة، والاندماج العمالي، والامتثال للثقافة التنظيمية، وتحقيق الميزة التنافسية.

سادساً- الدور الرمزي للثقافة التنظيمية: لقد تعددت الأبحاث والدراسات الميدانية حول الثقافة التنظيمية في المؤسسة الاقتصادية، وحسب الباحث Schein فإن الثقافة تساهم في التصدي لنوعين من المشاكل: المشاكل الداخلية لمشاكل الخارجية<sup>2</sup>، وهنا نشير إلى قدرة الثقافة على تحقيق الاندماج الداخلي والتكيف الخارجي، وتلعب الثقافة دوراً مهماً في رسم وتعيين حدود المؤسسة الاقتصادية، وذلك من خلال إعطائها هوية فريدة وخاصة تميزها عن باقي المؤسسات الموجودة في العالم الخارجي، إضافة إلى أن لثقافة المنظمة بالغ الأهمية في إيجاد الالتزام والولاء بين العاملين وتغليب المصلحة الجماعية على المصلحة الشخصية<sup>3</sup>.

ومن ناحية التنظيم الداخلي يتقاسم الموظفون مهارات وخبرات عملية اكتسبوها من جراء عملية التنشئة التنظيمية، كما أن الجمع بين هذه المقدرات العمالية ضروري لزيادة مؤشرات الأداء وتعظيم الأرباح التجارية، وفي هذه الحالة لن تتوجه المؤسسة نحو ثقافة عدم الاستقرار وهشاشة الموارد والأفكار والمهارات، وإنما تحقق الثبات التنظيمي، ولذلك فإن تواصل واستمرار الفئات السوسيو مهنية داخل المؤسسة يستوجب تطوير طرق التفكير الجمعي وتعديل الثقافة التي ستمكن من إنتاج هويات وجنود تنظيمية قادرة على رفع التحدي، وقادرة على ابتكار السلع وإبداع إنتاجات جديدة، فالفعالية التنظيمية للمؤسسة الاقتصادية لا ترتكز على ثقافة النخبة الإدارية فقط بل إن كل الأعوان في هذه الحالة يملكون حصة الأسد من النجاح التنظيمي، وكل تهميش أو إقصاء لهذه الفئة سيؤدي إلى الانخفاض في الأرباح التجارية على المستوى المتوسط والبعيد.

سابعاً: الدراسات السابقة :

الدراسة الأولى: دراسة عبد الطيف عبد اللطيف ومحفوظ أحمد جودة بعنوان: دور الثقافة التنظيمية في التنبؤ بقوة الهوية التنظيمية، هدفت الدراسة إلى تحديد دور الثقافة التنظيمية في التنبؤ بقوة الهوية التنظيمية<sup>4</sup>، ولتحقيق هذا الهدف اختيرت عينة من أربع جامعات أردنية خاصة بصفة عشوائية، وزعت 280 إستبانة على أعضاء هيئة التدريس فيها، وتوصلت الدراسة إلى نتائج أبرزها: هناك رؤية مشتركة لدى أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الخاصة بالأردن إزاء الهوية التنظيمية، وأظهرت نتائج الدراسة أنه لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية في إجابات أفراد العينة إزاء الهوية التنظيمية ترجع إلى العوامل الشخصية المتعلقة بالرتبة الأكاديمية، وقد استطاعت الدراسة بناء نموذج يتكون من الأبعاد الداخلية في التحليل (التعاون،

<sup>1</sup>-Fray Anne –Marie et Picouleau Sterenn : « Le Diagnostic de L'identité Professionnelle ;Une Dimension essentielle pour la qualité au travail », **Revue Management et Avenir**, 2010, /8 N 38 ,PP75-76 .

<sup>2</sup> - Oliver Meier ; **Management Interculturel**, Dunod, Paris, 2004, P16.

<sup>3</sup> - فلاح حسن عداي الحسيني : الإدارة الإستراتيجية، مفاهيمها - مداخلها، وعملياتها المعاصرة، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، 2000، ص 94 .

<sup>4</sup> - عبد الطيف عبد اللطيف، محفوظ أحمد جودة : مرجع سبق ذكره، ص 149 - 150 .

والابتكار، والالتزام، والفاعلية) وقد تمكن النموذج من تصنيف المبحوثين إلى مجموعتين من لديهم شعور ضعيف بالهوية التنظيمية، ومن لديهم شعور قوي بها.

**الدراسة الثانية:** دراسة رائد إسماعيل عباينة وماجد أحمد حتاملة بعنوان: دور الثقافة التنظيمية في دعم إدارة المعرفة في المستشفيات الحكومية في الأردن<sup>1</sup>، هدفت الدراسة إلى التعرف على دور الثقافة التنظيمية السائدة (البيروقراطية، الإبداعية، والمهمة، والداعمة) في دعم إدارة المعرفة (اكتساب الخبرة وتخزينها، ونقلها، وتطبيقها) في مستشفيات القطاع العام في محافظة إربد - الأردن - وخلصت الدراسة إلى نتائج أبرزها: أن نمط الثقافة التنظيمية السائدة في مستشفيات القطاع العام هو النمط البيروقراطي، كما توصلت الدراسة إلى وجود علاقة ارتباطية إيجابية بين الأنماط الثقافية التنظيمية السائدة وبين أبعاد إدارة المعرفة، حيث أن وجود أقوى علاقة كانت بين إدارة المعرفة والنمط الإبداعي، وكان أضعفها بين إدارة المعرفة والنمط البيروقراطي.

**الدراسة الثالثة:** للباحث بوفلجة غياث بعنوان: القيم التقليدية ومتطلبات التنظيم الحديث<sup>2</sup>، حاولت هذه الدراسة أن تعكس الضوء على تلك الاختلافات والفروقات بين القيم داخل التنظيم بين القيم التقليدية وما يقابلها من قيم حديثة، لتخلص الدراسة إلى نتائج أبرزها: أن فعالية التنظيم تتحقق في تطابق القيم داخله، حيث يفرق الباحث بين نمطين من الثقافة، الأول تقليدي متأثر بالعادات والتقاليد وبوسائل الإنتاج التقليدية، في حين يمثل النمط الثاني تلك الثقافة المتأثرة بقيم العصر من استقلالية وحرية، وطرق تنظيم عصرية، ويشير الباحث إلى أن المؤسسات الجزائرية شأنها شأن مؤسسات دول العالم الثالث تعيش بل وتتخبط في ازدواجية القيم داخل نفس التنظيم، مما أدى إلى ظهور مجموعة من السلوكيات السلبية المؤثرة على التنظيم وفعاليتها، مما سوف يجعل المؤسسة تفقد بريقها وحيويتها وفعاليتها.

**الدراسة الرابعة:** للباحث بشير محمد الموسومة بعنوان: الثقافة والتسيير في الجزائر، بحث في تفاعل الثقافة التقليدية والثقافة الصناعية<sup>3</sup>، حيث يرى الباحث أن كل دراسة سوسيولوجية أو أنثروبولوجية حول المؤسسة الجزائرية هي بحث في إشكالية الانتقال الثقافي من المرجعية التقليدية "الزراعية" إلى المرجعية الصناعية "العصرية" الذي يقوم على التحليل الثقافي، والذي يعتمد على ثلاثة مقاربات منهجية وهي: التاريخية، والتطورية، والثقافية، التي يراها الأنسب لأي طرح علمي سوسيولوجي، إلا أنه فضل الاعتماد على منهج علم الاجتماع الديناميكي، بهدف إبراز التغيرات التي قد تظهر على سلوكيات وممارسات العمال في حال تفاعل الثقافتين التقليدية والصناعية، وقد خلص الباحث إلى أن عملية المثاقفة التي كانت تسعى إليها عملية التصنيع من خلال بث القيم العصرية لدى العامل الجزائري لم تلق ذلك النجاح الذي كان منتظرا منها، ذلك أن القيم العصرية قد تم تحويرها عندما اصطدمت بالمرجعية الأصلية التقليدية التي أصبحت أمرا مثاليا لدى العامل الجزائري.

<sup>1</sup> رائد إسماعيل عباينة، ماجد أحمد حتاملة: دور الثقافة التنظيمية في دعم إدارة المعرفة في المستشفيات الحكومية في الأردن، المجلة الأردنية في إدارة الأعمال، المجلد 9، العدد 4، 2013، ص 665 ..

<sup>2</sup> بوفلجة غياث: القيم الثقافية والتسيير، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2003، ص 25.

<sup>3</sup> بشير محمد: الثقافة والتسيير، بحث في تفاعل الثقافة والتقليدية والثقافة الصناعية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.

ثامنا : الإجراءات المنهجية للدراسة :

### 1- مجالات الدراسة

1-1 **المجال الجغرافي** : تم إجراء الدراسة بمؤسسة اتصالات الجزائر بولاية تيارت، وهي مؤسسة اقتصادية حديثة النشأة تأسست بموجب قرار 03-2000 المؤرخ في 05 أوت 2000 المتعلق بإصلاح البريد والمواصلات، وتسعى المؤسسة إلى تقديم خدمات موجهة للزبائن ومختلف العملاء، ومن بين الخدمات التي تقدمها المؤسسة هي: خدمات الانترنت، خدمات الهاتف، خدمات موجهة للمؤسسات العمومية، بدأت نشاطها في 01 جانفي 2003 ولها مواقع متعددة ووحدات عملياتية منفصلة.

2-1 **المجال البشري**: تضم المؤسسة اتصالات الجزائر 45 عاملا يتوزعون على المصالح والأقسام التالية:

المجموع	فئة أعوان التنفيذ	فئة أعوان التحكم	فئة الإطارات
45	17	15	13

3-1 **المجال الزماني**: دامت الدراسة من 12 فيفري 2017 إلى غاية 06 أفريل 2017، حيث قام الباحث أثناء الدراسة الميدانية بالتعرف عن قرب على مختلف مصالح المؤسسة، وشرح أهداف الدراسة ومقاصدها، كما تم إجراء بعض المقابلات مع الإطارات المسيرة للمؤسسة بهدف الحصول على معلومات تفيد البحث، وبعد الانتهاء من جمع المعلومات حول كيفية سير وعمل المؤسسة، تم بناء استمارة وتوزيعها على عمال المؤسسة.

2- **المنهج المستخدم**: يشكل المنهج العلمي بقواعده وأهدافه الإيستيمولوجية الأساس الذي تبنى عليه البحوث الميدانية والتطبيقية، ذلك أن البحث العلمي لا يستقيم إلا بوجود منهج علمي ملائم يتفق وخصائص الدراسة، ولذلك يعتبر هذا المنهج طريقة تؤدي إلى الوصول إلى نتائج موضوعية حول المشكلة المطروحة، وفي دراستنا الحالية وانطلاقا من الإشكالية المطروحة، تم الاعتماد على المنهج الوصفي التحليلي الذي نراه مناسباً لوصف الظاهرة المدروسة، ذلك أن استخدامنا للمنهج الوصفي التحليلي لا يقتصر على عملية الوصف المكثف، وجمع المعلومات والبيانات الضرورية، وإنما سنحاول غرلة هذه المعطيات وفحصها واكتشاف العلاقات بين المتغيرات، وتفسير مدى إسهام الثقافة التنظيمية في بناء الهوية المهنية داخل المؤسسة الاقتصادية الجزائرية.

### 3- أدوات جمع البيانات:

3-1 **الاستمارة**: إن طبيعة الموضوع والمنهج المستخدم تحتم على الباحث استخدام أدوات معينة يستعين به في جمع المعلومات الضرورية لأبعاد المشكلة البحثية، وتماشيا مع فروض الدراسة ومؤشراتها ومتغيراتها فقد تم استخدام أداة الاستمارة كأداة رئيسية مع عينة البحث، وقد تم الاستعانة بالتراث السوسيولوجي والدراسات السابقة والاستفادة منها في تصميم هذه الأداة، حيث تم توزيع 45 استمارة لمجتمع البحث.

3-2 **المقابلة**: إن تتبع الرصيد السوسيولوجي للظاهرة الاجتماعية تطلب منا الاستعانة بالمقابلة كأداة ثانية في الدراسة، من خلال الاتصال بالمشرفين على المؤسسة الاقتصادية وشرح أهداف الدراسة وذلك بهدف كسب تعاونهم معنا ومساعدتهم لنا على القيام بهذه الدراسة، وإقناعهم بجدوى وأهداف البحث وكسب ثقتهم من خلال التأكيد على قيمة البحث العلمية من جهة، وسرية المعلومات من جهة ثانية.

وتسمح تقنية المقابلة بأخذ معلومات دقيقة ومفيدة عن الوضع العام السائد في المؤسسة، كما تساعد في التعرف العميق عن الفرديات المبحوث عنها وقد تمت الاستعانة بتقنية المقابلة نظرا لأهميتها وقيمتها العلمية في جمع المعلومات والبيانات والحقائق التي لم تتمكن من جمعها بواسطة تقنية الاستمارة.

4- العينة وكيفية اختيارها : تتوقف صحة الدراسات السوسولوجية والاجتماعية على حسن وسلامة اختيار العينة وكيفية استخراجها، حتى يكون مجتمع البحث ممثلا للمجتمع الكلي، ومن ثم الحصول على بيانات هامة تمكننا من الوصول إلى تشخيص دقيق لمعالم المشكلة البحثية، وفي إطار هذا البحث اختار الباحث أسلوب الحصر الشامل الذي فرضته طبيعة الدراسة، حيث أجريت الدراسة على 45 عامل من مؤسسة مجال البحث، وذلك قصد معرفة آرائهم عن الثقافة التنظيمية وإسهامها في تحقيق الهوية التنظيمية داخل المؤسسة الاقتصادية.

تاسعا : تبويب وتحليل وتفسير نتائج الفرضيات :

الجدول رقم 01: يوضح الجنس لأفراد العينة .

الجنس / مجتمع البحث	ت	ن %
ذكر	20	44.44%
أنثى	25	55.66%
المجموع	45	100%

توضح معطيات الجدول المتعلقة بالجنس أن نسبة تمثيل الجنس لدى الإناث بلغت 55.66 % مقارنة مع جنس الذكور والتي بلغت نسبة 44.44 % من مجموع أفراد العينة، ويمكن تفسير ذلك بطبيعة العمل بالمؤسسة خاصة أنها مؤسسة اقتصادية تجارية، وربما هو ما يفضله العنصر النسوي من حيث توافق القدرات والمهارات .

الجدول رقم 02: يوضح فئات الأعمار لدى مجتمع البحث

فئات الأعمار	ك	ن %
30 - 20	20	44.44%
40 - 30	13	28.90%
50 - 40	06	13.33%
50 فأكثر	06	13.33%
المجموع	45	100%

يبدو من خلال الجدول أن أعلى نسبة سجّلت هي نسبة 44.44 % ، وتمثل الفئة العمرية لدى الشباب، وهذا يدل على أن المؤسسة تعتمد في سياستها التوظيفية على فئة الشباب، ثم تأتي نسبة 28.90 % لدى الفئة العمرية (30 - 40) أما فئة (30 -

(40) فهي أضعف نسبة من حيث التمثيل وقدّرت بـ 13.33% ونفس النسبة لدى فئة 50 سنة فأكثر، ويمكن القول أن العمل في المؤسسة الاقتصادية يعتمد على الفئة الشبابية كون هذه الأخيرة تمتاز بطاقة وطموح اجتماعي تساعد على الأداء الأمثل.

**الجدول رقم: 03 يوضح المستوى التعليمي لأفراد العينة.**

المستوى التعليمي	ك	ن%
متوسط	05	11.10%
ثانوي	13	28.90%
جامعي	27	60%
المجموع	45	100%

نلاحظ من خلال الجدول أن أعلى نسبة سجّلت هي 60% والذين لديهم مستوى تعليمي جامعي، ثم تأتي نسبة 28.90% لتمثل مستوى ثانوي، وأخيرا مستوى متوسط بنسبة 11.10%، عموماً نلاحظ أن مهام المؤسسة تستدعي الاعتماد على الفئة المتعلمة أو خريجي الجامعة والذين يمتلكون قدرات وكفاءات، وللإشارة فإنه في عصر الاقتصاد المعرفي أصبحت المؤسسات الريادية في عالم اليوم تعتمد على الموارد البشرية النوعية والحاملة للكفاءة والمهارة.

**الجدول رقم: 04 يوضح البيانات الخاصة بالأقدمية:**

الأقدمية	ك	ن%
أقل من سنتين	06	13.33%
3 - 5	11	24.44%
6 - 8	13	28.44%
8 فأكثر	15	33.33%
المجموع	45	100%

توضح معطيات الجدول المبين أعلاه أن أعلى نسبة سجلت هي 33.33% من مجموع العمال لهم 8 سنوات فأكثر أقدمية، وتنخفض النسبة إلى 28.44% لدى فئة 6 - 8 سنوات أقدمية، ثم تنخفض النسبة لدى فئة 3 - 5 بنسبة 24.44% و تنخفض النسبة إلى حدود 13.33% لدى فئة أقل من سنتين، ويمكن القول أن المؤسسة مجال البحث تتوفر على عنصري الخبرة والأقدمية.

الجدول رقم 05: يوضح إجابات العاملين نحو التوجه للعمل الجماعي والمشارك .

فئة عمال التنفيذ		فئة عمال التحكم		الاطارات	فئة	الفئات السوسيو مهنية العمل الجماعي
ن	ك	ن	ك	ن	ك	
70.58	12	73.33	11	76.92	10	نعم
29.41	05	26.66	04	23.07	03	لا
%100	17	100	15	%100	13	المجموع

القراءة الإحصائية للجدول تبين لنا أن إجابات فئة الإطارات قد بلغت نسبة 76.92% وهي تعتقد أن قيم العمل الجماعي مفيدة للمؤسسة، وتنخفض النسبة إلى 73.33% لدى فئة عمل التحكم ونسبة 70.58% لدى فئة عمال التنفيذ، وكلها نسب ايجابية تؤكد أن العمل الجماعي مفيدة على المستوى السيكولوجي للعامل، حيث يزيد الرضا الوظيفي والروح المعنوية للعاملين ويتحقق الانسجام والانفعال بفعل العلاقات الإنسانية، مما يؤدي إلى الشعور بالراحة النفسية والأمن الذين بدورهما يؤديان إلى الشعور بالانتماء إلى المؤسسة، وبالتالي تتحقق الهوية التنظيمية، أما الإجابات التي ترى أن العمل الجماعي غير مفيدة، فقد بلغت نسبة 23.07% لدى فئة الإطارات ونسبة 26.66% لدى فئة عمال التحكم ونسبة 29.41% لدى فئة عمال التنفيذ، وهي نسب ضئيلة، وربما يمكن تفسير ذلك بعدم اندماج هذه الفئات داخل جسم المؤسسة وربما إلى اختلاف القيم الشخصية، وعموما يمكن القول أن العمل الجماعي والمشارك يقلل من حالات الاغتراب في عالم العمل، ويقلص الشعور بالتوتر والقلق وكذا مشاعر الاستياء الناجمة عن عدم التكيف.

الجدول رقم 06: يوضح إجابات العاملين نحو العمل ضمن فريق العمل.

عمال التنفيذ		عمال التحكم		الاطارات	فئة	الفئات السوسيو مهنية فريق العمل
ن	ك	ن	ك	ن	ك	
64.70	11	66.66	10	84.61	11	نعم
35.29	06	33.33	05	15.38	02	لا
%100	17	100	15	%100	13	المجموع

تظهر نتائج الجدول أن الاتجاه العام السائد يؤكد أن الاشتغال في فرق العمل يزيد من حماس العامل ويشعره بالرضا والانتماء، وذلك بنسبة 84.61% لدى فئة الإطارات، ونسبة 66.66% لدى فئة عمال التحكم، ونسبة 64.70% لدى فئة عمال التنفيذ، ويمكن تفسير ذلك بأهمية العلاقات الإنسانية في مجال العمل داخل المؤسسة الاقتصادية ودورها في التخفيف من ضغوط العمل وإكراهات التنظيم، فمعظم العمال أكدوا إيجابية جماعية العمل وضرورته بالنسبة للعامل، خصوصا أولئك الذين التحقوا مؤخرا بالوظيفة، ثم تأتي نسبة الإجابات التي ترى أن العمل في فريق لا يحقق الشعور بالانتماء، حيث بلغت النسبة

لدى عمال الإطارات 15.38% ونسبة 33.33% لدى عمال التحكم، ونسبة 35.29% لدى عمال التنفيذ، وهي إجابات تنفي الدور الإيجابي للجماعية، بل إن الرتابة والملل هي السائدة في أجواء العمل، وهذا الفضاء الموسوم بالسلبية لا يشجع على زيادة الدافعية للعامل وتفانيه وتحمسه للعمل، بل تدفعه إلى البحث أجواء أخرى تشبع احتياجاته النفسية والاجتماعية.

الجدول رقم 07 يوضح إجابات الفئات السوسيو مهنية بوجود قيم التعاون والتضامن والتكافل.

عمال التنفيذ	عمال التحكم		الاطارات	فئة		الفئات السوسيو مهنية وجود قيم التعاون
	ن	ك		ن	ك	
70.58	12	80	12	92.30	12	نعم
29.41	05	20	03	07.69	01	لا
%100	17	100	15	%100	13	المجموع

من خلال ما هو موضح في الجدول نلاحظ أعلى نسبة سجلت لدى فئة الإطارات وذلك بنسبة 92.30% حيث تؤكد أن قيم التعاون والتضامن والتكافل موجودة داخل الفضاء التنظيمي للمؤسسة، وتنخفض النسبة لدى عمال التحكم بنسبة 80% ونسبة 70.58% لدى فئة عمال التنفيذ، وهذه النسب تدل على أن فريق العمل مكون من أشخاص متضامنين ويشتركون في نفس الرؤى والذهنيات والمواقف، كما أن المؤسسة تترك مجالاً وحرية للعامل في الانخراط إلى جماعة عمل تناسبه وتلاءمه، وهذا بلا شك أسلوب داعم لتفادي الصراع، في حين تأتي نسبة 07.69% لدى فئة الإطارات، ونسبة 20% لدى فئة عمال التحكم، ونسبة 29.4% لدى فئة عمال التنفيذ ترى أن العمل في فريق العمل ليس له دلالة على وجود قيم التضامن والتكافل في أداء الواجبات رغم أنها قضية إيجابية تعزز المجال السيكولوجي للعاملين، وتشبع الحاجات النفسية والاجتماعية، وعموماً يمكن القول أن مؤسسة اتصالات تيارت تعتمد على فسخ المجال لهؤلاء العناصر للانخراط في أي فريق عمل، مما يؤدي بإحساس بوجود قيم العمل الإيجابية كالتعاون والتضامن والتماسك، وهو ما يضيف على العمال الإحساس بالانتماء والهوية.

الجدول رقم 08: جدول يوضح جهود العاملين نحو تحقيق الأهداف التنظيمية.

عمال التنفيذ	عمال التحكم		الاطارات	فئة		الفئات السوسيو مهنية تحقيق الأهداف التنظيمية
	ن	ك		ن	ك	
58.82	10	93.33	14	84.61	11	نعم
41.17	07	06.66	01	15.38	02	لا
%100	17	100	15	%100	13	المجموع

نلاحظ من خلال الجدول أن إجابات فئة الإطارات بلغت نسبة 84.61% لتؤكد على امتثال العمال للثقافة التنظيمية وإستراتيجية المؤسسة، فهم مجندون دائما لخدمة المؤسسة وإنجاح سياستها، وهذا بلا شك يدل دلالة قاطعة على وجود هوية تنظيمية داخل المؤسسة، فالعمال مندمجون مع الأهداف الإستراتيجية للمؤسسة. وهم على أهبة الاستعداد لتقديم يد العون للمؤسسة، ثم تأتي نسبة 93.33% لدى فئة عمال التحكم لتدعم نفس الموقف ونسبة 58.82% لدى فئة عمال التنفيذ، في حين أجابت نسبة 15.38% لدى فئة الإطارات بعدم وجود صلة بين الأهداف الفردية والمؤسسية، فالإدارة تشتغل لصالحها، كما العمال في نفس الوقت يلهثون وراء مصالحهم الشخصية، دون أي اعتبار رمزي وثقافي يحمله العمال نحو المؤسسة مكان العمل، ثم تأتي نسبة 06.66% لدى فئة عمال التحكم ونسبة 41.17% لدى فئة عمال التنفيذ.

الجدول رقم 09: جدول يوضح بأن مؤسسة اتصالات تيارت مدعاة للافتخار من بين مثيلاتها.

عمال التنفيذ		عمال التحكم		الإطارات	فئة	الفئات السوسيو مهنية
ن	ك	ن	ك	ن	ك	مدعاة للافتخار
76.47	13	73.33	11	100	13	نعم
23.52	04	26.66	04	00	00	لا
%100	17	100	15	%100	13	المجموع

تبيّن إحصائيات الجدول أن نسبة 100% لدى فئة الإطارات قد جاءت للتأكيد على وجود قيمة رمزية ومعنوية لمكانة المؤسسة لدى العاملين، ثم تأتي نسبة 73.33% لدى فئة عمال التحكم لتدعم نفس الموقف، ونسبة 76.47% لدى فئة عمال التنفيذ. إن وجود هوية تنظيمية وتوفير بيئة عمل ملائمة من شأنه أن ينمي الارتباط العاطفي بمرور الزمن، وتبعاً لذلك يتشكل الولاء التنظيمي كأحد المظاهر المعبرة عن الاندماج النفسي والوجداني في بنية المشروع، كما أن ملائمة الظروف يؤدي إلى تعلق العامل بوسيلة عمله واستعداده الدائم للزيادة في الأداء، في حين أكدت نسبة 26.66% لدى فئة عمال التحكم على غياب هوية مهنية للفاعلين التنظيميين، ونسبة 23.52% لدى فئة عمال التنفيذ تعبر عن ضعف العلاقة بين العامل والمؤسسة.

الجدول رقم 10: يوضح حرص المؤسسة على تحقيق الاستقرار الوظيفي لأفراد العينة.

عمال التنفيذ		عمال التحكم		الإطارات	فئة	الفئات السوسيو مهنية
ن	ك	ن	ك	ن	ك	الاستقرار الوظيفي
58.82	10	66.66	10	69.23	09	نعم
41.17	07	33.33	05	30.76	04	لا
%100	17	100	15	%100	13	المجموع

من خلال قراءة معطيات الجدول إحصائيا نجد أن نسبة 69.23% هي أعلى نسبة سجلت لدى فئة الإطارات تؤكد على حرص المؤسسة لتحقيق الاستقرار الوظيفي، ثم تأتي نسبة 66.66% لدى فئة عمال التحكم، ونسبة 58.82% لدى فئة عمال التنفيذ، مما يدل على وجود هوية تنظيمية داخل المؤسسة، أما الإجابات التي ترى أن المؤسسة لا تحقق الاستقرار الوظيفي فقد بلغت نسبة 30.76% لدى فئة الإطارات ونسبة 33.33% لدى فئة عمال التحكم ونسبة 41.17% لدى فئة عمال التنفيذ، ويمكن القول إن اندماج العمال مع السياسة التنظيمية يساعد على تقديم مستويات إنتاج أفضل وأداء أمثل، ويبقى على المؤسسة أن تكون في مستوى تطلعات العمال المهنية والاجتماعية والاقتصادية.

الجدول رقم 11 : قدرة المؤسسة على التجاوب السريع مع ضغوطات المنافسة

الفتات السوسيو مهنية التجاوب مع الضغوطات	فئة		الإطارات	عمال التحكم		عمال التنفيذ
	ك	ن		ك	ن	
نعم	13	100	12	80	14	82.35
لا	00	00	03	20	03	17.64
المجموع	13	100%	15	100	17	100%

من خلال تحليل الجدول أعلاه يتضح أن معظم الإطارات قد أجابوا بنسبة 100% على قدرة المؤسسة على التجاوب مع ضغوطات المؤسسة وبالتالي التميز عن مثيلاتها، ثم تأتي نسبة 80% لدى فئة عمال التحكم ونسبة 82.35% لدى فئة عمال التنفيذ، حيث تؤكد هذه الفئات السوسيو مهنية قدرة المؤسسة على تطبيق الطرق الحديثة في الفعل التنظيمي واعتماد توظيف التقنيات التكنولوجية الحديثة داخل المؤسسة، والذي من شأنه أن يؤدي إلى تحسين الأداء الكلي، فالمنافسة الشديدة من طرف مؤسسات محلية فرضت على المؤسسة تطوير بيئتها الداخلية والاستجابة للتحديات الخارجية، وهو ما ينعكس إيجابا على الهوية التنظيمية، ونجد أن إجابات العاملين الدالة على ضعف قدرة المؤسسة على مواجهة تحديات المنافسة قد بلغت نسبة 20% لدى فئة عمال التحكم ونسبة 17.64% لدى فئة عمال التنفيذ، وهذه الإجابات ضئيلة جدا بالمقارنة مع إجابات مجتمع البحث حول البديل الأول.

عاشرا : النتائج العامة للدراسة :

- بينت نتائج الدراسة الميدانية أن نسبة تمثيل جنس الإناث قدرت ب 55.66% في المؤسسة ونسبة 73.43% تمثل نسبة فئة الشباب من سنة 20-40 سنة، وهذا يدل على أن العمل في المؤسسة يركز على الطاقة الشبابية، وهي فئة أكثر ديناميكية تمتلك مشروع حياة، وتطمح إلى تحقيق آمال ونجاحات اجتماعية السكن، السيارة، الزواج، وفيما يخص المستوى التعليمي فإن المؤسسة تستقطب أولئك الذين تلقوا تكويننا جامعيًا وذلك بنسبة 60% .
- أوضحت الدراسة أن نسبة العمال ذوي الأقدمية في المؤسسة تعرف ارتفاع، حيث سجلت أعلى نسبة في فئة 6-8 سنوات و8 سنوات فأكثر وذلك بنسبة تقدر ب 61.77%، وهذا دليل على الانتماء الوظيفي للعاملين، وكذا دليل على استقرار العاملين في المؤسسة مجال البحث.

- أجاب العمال بنسبة 73.33% من كل الفئات السوسيو مهنية (إطارات، عمال التحكم، عمال التنفيذ) بإيجابية العمل الجماعي وفوائده على مستوى العمل والأداء، فمؤسسة اتصالات تيارت تحسّس العامل بقيمته الاجتماعية والتنظيمية، مما ينعكس إيجاباً على هوية العامل الشخصية، وكلما اندمج العامل في المشروع التنظيمي وتكيف مع فريق العمل، كلما تحسّن مستوى أدائه ومردوده الفردي، وهو ما يعزز من الهوية التنظيمية في المؤسسة مجال البحث .
- أجاب ما يقارب نسبة 71.11% من مجموع الفئات المهنية أن العمل مع الجماعة مفيد من الناحية السيكو-اجتماعية، والعامل يشعر بهويته وعضويته المؤسسية كلما تعمقت صلته بالجماعة غير الرسمية، كما أن العمل مع فريق العمل يحقق الإشباع النفسي والاجتماعي للعامل ويرفع من الروح المعنوية لديه، ويقلل من ضغوط العمل وإكراهات التنظيم.
- تؤكد نسبة 80% من مجتمع البحث أن العلاقات المهنية في المؤسسة تشهد ديناميكية وحيوية فعالية، فالعاملين أثناء تواجدهم في فريق العمل يشعرون بوجود قيم التعاون والتضامن والتكافل والتفاعل، وهذا من شأنه أن يمنح العاملين هوية خاصة تزيد من مستوى أدائهم وكفائتهم، على عكس العمال غير المندمجين في بنية المشروع التنظيمي، فإنهم يتعرضون لضغوط نفسية ومهنية تؤثر على مستوى إنتاجهم .
- تؤكد نسبة 77.77% من مجتمع البحث أنهم يمتلكون لإستراتيجية المؤسسة وتوجهاتها المستقبلية، وهم يعملون كل يوم وكل ساعة على تدعيم نجاح المؤسسة التنظيمي، وتحقيق الأهداف المسطرة والمرجوة، ومن ناحية أخرى يمكن تفسير ذلك بوجود هوية تنظيمية داعمة ومناسبة للإستراتيجية التسييرية التي تتبعها المؤسسة المبحوثة في تسيير يومياتها وشؤونها الداخلية .
- تبين من خلال إجابات العمال المبحوثين أن مؤسسة اتصالات تيارت مدعاة للفخر والاعتزاز أمام مثيلاتها وذلك بنسبة 82.22%، وهي إشارة قوية لاندماج العمال كلية مع الأهداف التنظيمية للمؤسسة، فتوحد الأهداف الفردية والتنظيمية داخل المؤسسة يدل على وجود هوية تنظيمية تخدم فلسفة المؤسسة واستراتيجياتها وثقافتها التسييرية، وهي نقطة إيجابية تحسب لصاح الإدارة وكافة الطاقم الإداري، بحيث تسهل عليهم المأمورية في استمالة العمال وكسبهم .
- دلت نتائج الدراسة على أن المؤسسة تحرص على تحقيق الاستقرار الوظيفي للعاملين، والعمال احترافيون ومهنيون في أداء واجباتهم ومهامهم اليومية، حيث تطلعنا نسبة 64.44% على سعي المؤسسة لتحقيق الاستقرار الوظيفي، وبالمقابل تؤكد القوى التشغيلية على عزمها لإنجاح أهداف المؤسسة مجال البحث، وهم مجندون طواعية دون قهر قسري لتنفيذ الخطة التنظيمية على أرض الواقع وإنجاحها مهما كلف الأمر، وهذه دلالة واضحة عن النية الصادقة التي تميز العمال داخل الهيكل التنظيمي وانتمائهم للمؤسسة.
- استناداً إلى إجابات المبحوثين، فإن المؤسسة المبحوثة قادرة على مواجهة ضغوطات المنافسة والتجاوب السريع مع تهديدات البيئة الخارجية وذلك بنسبة 86.66%، وهذا لا شك يؤدي إلى تحسين القدرات الداخلية للمؤسسة، كما أن المنافسة الشديدة المحلية حتمت على إدارة المؤسسة الاعتماد على أحدث التكنولوجيات لتجويد العمليات التنظيمية والتسييرية.
- حادي عشر: النتائج العامة للدراسة في ضوء الفرضيات : من خلال نتائج الدراسة الميدانية المتحصل عليها، وبعد تحليل بيانات الاستمارة، ومناقشة النتائج نصل إلى الكشف عن النتائج النهائية التي تحصلنا عليها في ضوء بحثنا لموضوع الثقافة التنظيمية والهوية التنظيمية .
- بالنسبة للفرضية الأولى التي تتمحور حول: تسهم القيم التنظيمية في بناء الهوية التنظيمية في المؤسسة الاقتصادية يمكن القول أنه من خلال الرجوع إلى إجابات العاملين (فئة الإطارات، فئة عمال التحكم، فئة أعوان التنفيذ) المبوبة في الجداول رقم: 5، 6، 7، 8 الدالة على أن المتغير الأول (القيم التنظيمية) يسهم في بناء الهوية التنظيمية، حيث توصلنا إلى أن القيم

التنظيمية ( قيم العمل الجماعي، قيم العمل الفرقي، قيم التعاون، قيم الانسجام مع أهداف المؤسسة ) داخل الهيكلية التنظيمية لمؤسسة إتصالات تيارت إيجابية ومحبذة من طرف العينة المبحوثة، وبالتالي يمكن القول أن الفرضية الأولى: تسهم القيم التنظيمية في بناء الهوية التنظيمية داخل المؤسسة الاقتصادية قد تحققت.

أما فيما يخص الفرضية الثانية والتي تتمحور حول: تسهم المعتقدات التنظيمية في بناء الهوية التنظيمية، فإنه يمكن القول أنه من خلال الرجوع إلى الجداول رقم 9، 10، 11، وبالأستناد إلى إجابات الفاعلين التنظيميين فيما يتعلق بمعتقداتهم حول: مكانة المؤسسة لديهم، الاستقرار الوظيفي وعدم مغادرة المؤسسة، التجاوب مع ضغوطات المنافسة، فإنه فعلا تسهم المعتقدات التنظيمية في بناء الهوية التنظيمية داخل المؤسسة الاقتصادية، و الفرضية قد تحققت .

خاتمة:

يُمكن القول في ختام هذه الدراسة الميدانية إن استدامة النجاح التنظيمي والتفوق المؤسسي يستند إلى تفعيل ديناميكية الثقافة التنظيمية القوية والمرونة التي تستجيب للتطورات، وذلك من خلال تأصيل النزعة الجماعية للفئات السوسيو مهنية، وتوطين قيم تنظيمية تتصف بالمرونة والحيوية، وعقلنة الممارسات التسييرية داخل الهيكلية التنظيمية، وينبغي للمؤسسة الاقتصادية الجزائرية أن تدرك أن « المقاربة الثقافية للمؤسسة » مفيدة جداً من ناحية تعزيز الهويات المهنية الفردية والجماعية، فالمؤسسة الاقتصادية الجزائرية في سباق مع الزمن لمواجهة التحديات الخارجية، وبدلاً من التفكير العميق في المقومات المادية والتقنية للمؤسسة الاقتصادية سيكون من الأفضل إعادة التفكير في « شخصية المؤسسة » .

علاوة على ذلك، وللحفاظ على الثقافة التنظيمية وتحقيق استدامة المؤسسة، وخلق حس سليم يتوق إليه أعضاء المجموعة الاجتماعية، يجب على المؤسسة الاقتصادية الجزائرية تطوير إجراءات التفكير وطرق التمثلات، وتطوير بيئة عمل « صديقة للإنسان »، وتحويل أماكن العمل إلى « أماكن للعيش »، والعمال بحاجة ماسة إلى تعزيز أواصر الثقة وزيادة وعيهم ومعرفتهم وثقافتهم، وكل ما يدور داخل البيئة التنظيمية، ذلك أن المؤسسة الاقتصادية هي « العاصمة » التي تستثمر المقدرات البشرية وليست الفضاء الذي تضيق وتهدر فيه الطاقات البشرية.

كما يجب أن تكون الثقافة التنظيمية عنصراً هاماً في تعزيز وتفعيل علاقات العمل، ولا شك أن الرؤية الإستراتيجية والمقاربة الثقافية للمؤسسة توفران كفاءات متعددة للحفاظ على الرساميل البشرية، وتفعيل الأعمال التجارية، وبناء هوية تنظيمية قوية.

توصيات الدراسة:

- تنمية الحدس الجماعي الخاص بتاريخ المؤسسة، وهويتها، وسمعتها.
- العمل على بناء وتعزيز ثقافة تنظيمية داعمة للأداء والعمل الجماعي، وصقل وتطوير الفرديات التنظيمية من أجل بلوغ الأهداف المرجوة .
- رفع مستوى الوعي الثقافي والتنظيمي للفئات السوسيو مهنية على حد السواء من أجل توحيد الكفاءات الفردية والجماعية وتوجيهها لصالح المؤسسة.
- إقامة جسور التعاون والتحاوور بين الفئات السوسيو مهنية، وفتح باب المشاركة للإدلاء بأرائهم واقتراحاتهم فيما يتعلق بتنظيم عملية العمل.
- إجراء المزيد من البحوث العلمية فيما يخص الثقافة التنظيمية والهوية التنظيمية في مؤسسات اقتصادية أخرى.

### قائمة المراجع:

1. رضويون خوين: الثقافة التنظيمية وفاعلية المنظمة، دراسة مقارنة بين الكليات العلمية والإنسانية في جامعة بغداد، مجلة الإدارة والاقتصاد، جامعة بغداد، العراق، العدد الخامس والسبعون، 2009.
2. مروان محمد النصور: دور الثقافة التنظيمية في تحسين أداء العاملين في القطاع المصرفي الأردني، مجلة الجامعة الإسلامية للدراسات الاقتصادية والإدارية، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، المجلد العشرون، العدد الثاني، 2012.
3. أسامة الفراج: نموذج مقترح لخصائص الثقافة التنظيمية الملائمة في القطاع العام في سوريا، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، جامعة دمشق، سوريا، المجلد 27، العدد الأول، 2011.
4. حريم حسن: السلوك التنظيمي، سلوك الأفراد والجماعات في منظمات الأعمال، دار حامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2004.
5. عبد الطيف عبد الطيف، محفوظ أحمد جودة: دور الثقافة التنظيمية في التنبؤ بالهوية التنظيمية، دراسة ميدانية على أعضاء هيئة التدريس في الجامعات الأردنية الخاصة، مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية، المجلد 26، العدد الثاني، 2010.
6. Fray Anne –Marie et Picoulean Sterenn : « Le Diagnostic de L'identité Professionnelle ;Une Dimension essentielle pour la qualité au travail » ,*Revue Management et Avenir*, 2010, /8 N ,38 .
7. Oliver Meier ; *Management Interculturel*, Dunod, Paris, 2004.
8. فلاح حسن عداي الحسيني : الإدارة الإستراتيجية، مفاهيمها - مداخلها، وعملياتها المعاصرة، دار وائل للنشر، عمان، الأردن، 2000.
9. رائد إسماعيل عباينة، ماجد أحمد حتاملة : دور الثقافة التنظيمية في دعم إدارة المعرفة في المستشفيات الحكومية في الأردن، المجلة الأردنية في إدارة الأعمال، المجلد 9، العدد 4، 2013.
10. بوفلجة غياث: القيم الثقافية والتسيير، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2003.
11. بشير محمد: الثقافة والتسيير، بحث في تفاعل الثقافة والتقليدية والثقافة الصناعية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.



## الرحلة السفارية المغربية وسؤال الإصلاح بالمغرب الحديث

### رحلة الصفار التطواني نموذجاً

د.العربي بنرمضان/كلية الآداب سايس فاس المغرب

#### ملخص:

يعتبر أدب الرحلة من الإنتاجات الفكرية الهامة التي لا زالت بكرة تستدعي سير أغوارها و الإطلاع على ما تختزنه من أفكار وقضايا تهتم جوانب متعددة من هموم الشعب أفرادا وجماعات ونخب ومخزن. ويعتبر المغاربة من المبدعين الأوائل في فن الرحلة منذ زمن بعيد يعود إلى القرون الوسطى مع الرحلة الشهيرة لابن بطوطة التي دون فيها العديد من مشاهداته في إفريقيا وبلدان الشرق التي زارها، لتستمر الرحلة المغربية مع "التامكروتي" في عهد الدولة السعدية خلال العصر الحديث، وتظهر الرحلة المغربية من جديد وبشكل كبير ومريب خلال القرن التاسع عشر.

وفي هذا الإطار، يمكن الحديث عن العديد من الأسماء البارزة في هذا النوع من الإنتاج الفكري، والذي حدده الأستاذ محمد الفاسي في مائة وثمانين رحلة مغربية مختلفة من حيث المشارب والتوجهات، وتعتبر رحلة "محمد الصفار" التطواني إلى مدينة النور من بين الرحلات المغربية البارزة التي تمت خلال النصف الثاني من القرن 19م، والتي عكس فيها العديد من مواقفه و ارتساماته حول مشاهداته بمدينة النور، كما نقل من خلالها العديد من الصور التي لها علاقة وطيدة بسؤال الإصلاح الذي طرح بحددة من طرف العديد من مكونات المجتمع المغربي خلال العصر الحديث بالمغرب.

يتعلق الأمر إذن برحلة سفارية مغربية للصفار الذي تعلم ودرس "بمدرسة" القرويين بفاس وتشبع بأفكار جيلها ومبادئهم، وبالتالي سيظل وفيها لهذه المبادئ والأفكار، بمعنى آخر أن الأمر يتعلق بأحد النخب المغربية التقليدية المحافظة.

إن رحلة الصفار التطواني -كباقي العديد من الرحلات المغربية- تمت في ظروف قاسية وأوضاع جد مزرية عاشها المغرب خلال القرن التاسع عشر، انضافت إلى التدخلات العسكرية الأوروبية (فرنسية سنة 1844م وإسبانية سنة 1860م) التي أسفرت عن هزائم متتالية للجيش المغربي العتيق، مما ساهم بشكل كبير في تكسير شوكة المغرب في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وأبان عن الوهن الكبير الذي أصاب أجهزته العسكرية والإدارية والمالية مما ساهم في طرح أسئلة كبرى على المخزن المغربي، فجاءت هذه الرحلة كسبيل ومخرج لإيجاد الأجوبة الشافية عن طريق مقارنة الذات (الأنا) بالآخر. فما السياق التاريخي الذي جاءت فيه رحلة الصفار التطواني؟ وما هي المواقف التي تعكسها رحلة الصفار لمدينة النور؟

الكلمات المفتاحية: الرحلة السفارية- سؤال الإصلاح- المغرب الحديث.

## أولاً: مفهوم الرحلة وتطوره.

يشق مصطلح الرحلة من الارتحال وتعني الانتقال من مكان لآخر لتحقيق هدف معين مادياً كان أو معنوياً، والرحلة قديمة قدم الإنسانية، فهي متصلة بتاريخ الإنسان منذ أقدم العصور، أي منذ ظهور الإنسان على وجه البسيطة. ومنذ ذلك التاريخ السحيق والرحلات البشرية مستمرة لم تتوقف تشهد عليها أدلة نقلية وتاريخية، إضافة إلى ذلك، تشير فطرة الإنسان بجلاء إلى أنه خلق راحلاً ومحباً للتنقل والرحلة، وإن أعجزته الرحلة تخيل رحلات غير محسوسة في عالم الخيال، كما يتضح استمرار الرحلة من وجود التواصل في العصر القديم بين قرى مبعثرة فوق رقعة هائلة من المعمورة<sup>1</sup>، والرحلة فن من فنون الأدب، لم يظهر تحت مسمى أدب الرحلات وإنما كان يظهر أحياناً تحت خانة "كتب التاريخ أو الجغرافيا أو السيرة الذاتية أو كتب الاعتراف أو أدب الاعتراف"، وبالتالي فإن تسمية "أدب الرحلات" تسمية وليدة العصر وما شهدته من دراسات ومصطلحات وتقسيماً لفنون وألوان المعرفة الأدبية<sup>2</sup>. وعلى الرغم من ذلك فإن ما يطلق عليه أدب الرحلات لا زال مشكلة قائمة من حيث عدم وجود تعريف دقيق لهذا الفن يوظف مجالات حدوده، ومن أنسب المفاهيم التي قد تطلق على أدب الرحلات هو أنه:

- نوع من الأدب الذي يصور فيه صاحبه ما وقع له من أحداث وما صادفه من أمور أثناء رحلة قام بها إلى أحد البلدان، أو يملي أو يحدث مشاهداته ومشاعره اتجاه ما سمع وما رأى ويسطر ذلك شخص آخر.

أما عن موضوع أدب الرحلة فيتعلق الأمر بكل ما يراه المغترب الرحال ويعايشه ويقراه عن ملامح بلد أجنبي بعادات وتقاليد سكانه وخلفيته السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية وأحداث يعايشها الأديب ومواقف تأثر بها وهموم عانى منها في ذلك البلد الأجنبي طال أم قصرت مدة إقامته فيها ومشاعر تختلج في نفس المغترب اتجاه الأمور السابقة وكذلك جغرافيا ذلك البلد.

فبالنسبة لنشأة أدب الرحلة في التراث العربي، يجده المهتم مبعوثاً غير مدون في أشعار العرب الجاهلية، يبين فيه الرحالة بعض المعلومات الثقافية ويظهر مشاعر تختلج في قلبه بمشاهداته أثناء الرحلة، ويعتبر العصر الوسيط (ق3/هـ/9 إلى بداية النهضة العربية) عصر النضج والازدهار بالنسبة لأدب الرحلة بشكل عام ولا سيما في أدب الرحلات العربي، وإسهامات المسلمين في هذا العصر في أدب الرحلات أكثر من غيرهم على الإطلاق، ففي القرن 9/هـ/9م يمكن أن نشير إلى ما كتبه كل من اللغوي المؤرخ هشام الكلبي كـ "كتاب الأقاليم.." و "مروج الذهب" للمسعودي و "صورة الأرض" لابن حوقل. وقد شهد القرن 5/هـ/11م ظهور أسماء جديدة من رحالة وجغرافيين المغرب الإسلامي في مقدمتهم الرحالة الأندلسي أبو عبيد الله البكري (487هـ)، صاحب كتاب "المسالك والممالك" و "معجم ما استعجم"، أما القرن 6/هـ/12م فقد تميز بحجم الإنتاج الكبير على صعيد الجغرافيا وأدب الرحلة، كما تميز بقوة الرحالة وأهمية الآثار التي خلفوها، والمناهج التي اتبعوها في جمع المادة وتدوين المشاهدات. ومن أمثلة ذلك "تحفة الألباب" و "المغرب عن بعض عجائب المغرب" لأبي حامد الغرناطي و "نزهة المشتاق" للشريف الإدريسي الذي وضع الخرائط لجميع أنحاء المعمور آنذاك، و "ترتيب الرحلات" لأبي بكر العربي الذي كان أول من استخدم لفظ "رحلة" في عنوان مؤلف، كما يعتبر أول من وضع أساس أدب الرحلات بالصورة الفنية المأمولة. ومن أهم إنجازات القرن 7/هـ/13م يمكن الحديث عن كتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموي الذي يعتبر من أهم المعاجم الجغرافية الذي يطمئن إليها الباحث، و "الرحلة المغربية" لمحمد العبدري الذي يعتبر من أهم الكتب التي اشتملت على وصف دقيق لبلدان الشمال

<sup>1</sup> - محمد رضى الرحمن القاسمي، الرحلة وأدبها في اللغة العربية (دراسة تاريخية)، مجلة الداعي (شهرية)، دار العلوم ديوبند، جمادى الثانية 1434هـ/يونيو 2013م، العدد 6-7، السنة: 37.

<sup>2</sup> - نفس المرجع السابق.

الإفريقي، ومع القرن 8هـ/14م سيعرف أدب الرحلة ذروته مع "التحفة" لأبي عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة الذي يعتبر أكثر الكتب إمتاعاً وجاذبية زيادة على احتوائه على كم هائل من المادة الأدبية والجغرافية و الاثنوغرافية.

ونظرا لتغير الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالدول العربية، فقد عرف هذا النوع من الأدب تراجعاً كبيراً مع بداية القرن 9هـ/15م تبعاً للتراجع العربي الخطير على جميع المستويات، واستمرت هذه الحالة إلى حدود بداية النهضة العربية.

47

فمع بداية النهضة العربية ق13هـ/19م سوف تظهر الرحلات العربية من جديد وفي ثوب جديد، نظراً لاتصال العالم الغربي بالعالم العربي، ومن ثم نشطت البعثات العلمية من قبل العرب نحو العواصم الغربية خاصة نحو دول أوروبا، وقد اهتمت كتب هؤلاء بوصف مناظر البلدان الطبيعية، كما اهتم هؤلاء بالرحلة نحو الولايات المتحدة الأمريكية ووسط إفريقيا وجنوبها، بل ذهبوا إلى حدود الهند والصين. ويعتبر كتاب "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" لرفاعة الطهطاوي من أهم الكتب التي ألفت في أدب الرحلة في العصر الحديث.

والرحلة من حيث هي فن له اتصال وثيق بالجغرافية بالنظر إلى الكتب التي ألفت في هذا الجانب والتي كانت تأخذ طابع الرحلة، فالجغرافي كان يتجول بالبلاد التي يود الحديث عنها ويخترق مسالكها، كما يقف بنفسه على أحوالها، ثم يضع كتابه. ولهذا نجد جل التأليف التي كتبت في القرون الأولى سميت "المسالك والممالك" وصارت هاتان الكلمتان تطلقان على علم الجغرافيا عند العرب، كما أطلقوا عليه اسم "تقويم البلدان"<sup>1</sup>. وإذا حاولنا أن نبرز الفرق بين أدب الرحلة والمسالك والممالك فإنه يتجسد في كون صاحب المسالك يتعرض لمجموعة من الأمور تهم المسافات وأحوال البلاد من الناحية الزراعية والتجارية، والممالك من الناحية السياسية والعمرانية في حين أن صاحب الرحلة يتعرض إلى تاريخ مغادرة الوطن والظروف التي أحاطت بسفره ودواعي ذلك مع إثبات كل ما يقع له أثناء غيبته.

ثانياً: المغاربة والرحلة أية علاقة.

لا جدال في كون أدب الرحلة من الإنتاجات الفكرية ذات الأهمية القصوى، التي لا زالت تنتظر البحث والتنقيب في مخزوناتنا الفكرية وقضاياها المتعددة المرتبطة بانشغالات الشعوب على اختلاف مكانتهم ومستوياتهم، وللمغاربة باع طويل في هذا النوع من الإنتاج الفكري، وضعوا فيه مؤلفات بديعة لا زال أكثرها مخطوطاً. ومن أشهر المغاربة الذين برزوا في هذا المجال هو ابن بطوطة حتى غدت رحلته أشهر رحلة في العالم، وأكبر جغرافي عرفته الحضارة الإسلامية، بل أكبر جغرافي على الإطلاق هو الشريف الإدريسي السبتي، وأن أعظم رحلة ألفت في العربية تعود لمغربي هو الإمام ابن رشيد السبتي، ويرجع النبوغ المغربي في هذا النوع من الإنتاج الفكري إلى أسباب عديدة يمكن تلخيصها في أسباب دينية وذاتية واجتماعية وسياسية:

1- كون المغرب بلد عربي إسلامي تربطه العديد من الروابط الدينية واللغوية والدموية ببلدان الشرق والحجاز، فنظراً لبعده الديار المغربية عن هذه المناطق التي تحوي أماكن مقدسة كالحرمين الشريفين والمسجد الأقصى، ونظراً لكون الحج شعيرة من الشعائر الدينية، تحمس الحجاج المغاربة وتنافسوا لأداء هذه الفريضة الدينية، فكان جل من قصد هذه الأماكن الدينية المقدسة من الأدباء والعلماء ورجال الدين يقصد إلى التعريف بهذه الأماكن فيصنف ما فيها من المآثر الإسلامية والمشاهد الشهيرة. وهنا نشير إلى بعض النماذج التي تجسد هذا النوع من الرحلات كرحلة ابن جبير الأندلسي وابن سعيد المغربي وابن

<sup>1</sup> - نشير في هذا الصدد إلى بعض الأسماء ك "المسالك والممالك" لأبي عبيد الله البكري (ق5هـ/11م)، و "معجم البلدان" لياقوت الحموي (ق7هـ/13م)، و "تقويم البلدان" لأبي الفدا إسماعيل (ق8هـ/14م) و "فتوح البلدان" ليحيى بن جابر البلاذري.

بطوطة و العياشي، ولم يفت هؤلاء الرحالة أن يصفوا الطرق المؤدية إليها برية كانت أو بحرية وكذلك عواصم العلم التي مروا بها بمساجدها ومآثرها وأدبائها وعلمائها<sup>1</sup>.

2- شغف المغاربة ولوعتهم بالسياحة بشكل عام وارتياح أقاصي البلاد، ولنا في القصة التي يذكرها ابن بطوطة في رحلته خير مثال على ذلك.

3- الرحلة من أجل طلب العلم ولقاء أهله وشيوخه وارتياح مكتباته الشهيرة.

4- توجيه السفراء من قبل ملوك الدولة نحو البلدان الشرقية والغربية حيث ألفت العديد من الرحلات خاصة في فترتي الدولتين السعدية والعلوية، وإن كانت أقدم رحلة تعود إلى فترة الدولة المرابطية مع الفقيه الإمام أبي بكر بن العربي دفين فاس، حينما رحل مع أبيه كسفير بتوجيه من أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الخليفة العباسي أحمد المستظهر بالله.

5- مرافقة الكتاب للملوك ورجال الدولة في أسفار رسمية يكلف أحدهم بتسجيلها وتوثيقها<sup>2</sup>.

لقد تضافرت كل هذه الأسباب السالفة الذكر وغيرها لتعطي هذا الزخم من الإنتاج الفكري ببلادنا في مختلف عصوره التاريخية، منه ما طبقت شهرته في العالم وخير مثال على ذلك رحلة ابن بطوطة التي ترجمت لعدة لغات دلالة على شهرته وذيوعه، وإجمالاً لا يمكن حصر أو وضع قائمة لكل من قام برحلة لسبب من الأسباب، لأنه كلما توجد ترجمة لأديب أو عالم دون الإشارة إلى أنه قام برحلة.

وقد صنّف الأستاذ محمد الفاسي هذه الرحلات إلى حجازية وسياحية ودراسية وأثرية واكتشافية وزيارية وسياسية ومقامية وقبالية وفهرسية وسفارية، وحول هذا الصنف الأخير من الرحلات يقول الأستاذ محمد الفاسي "برز المغاربة في هذا النوع من الرحلات، ولم يؤلف أحد من العرب بقدر ما وضع المغاربة من رحلات سفارية وكلها كتبت في العصور الحديثة أي ابتداء من السعديين"<sup>3</sup>.

ثالثاً: الرحلة إلى الغرب أو الرحلة السفارية:

تسمى بالرحلة السفارية بالمفهوم المغربي أي الرحلة خارج المنظومة الإسلامية، والتي يكون الهدف من سفر صاحبها النهوض بمهمة دبلوماسية لدى دولة أجنبية، وتكون أحياناً من إنشاء السفير إن صادف كونه من رجال الأدب والعلم، وأحياناً أخرى يقوم بتأليفها أحد الكتاب المخزنيين الذين رافقوا السفير. وكلمة سفير مأخوذة من السفارة بمعنى إصلاح ذات البين بين الناس كما أجمعت عليه معاجم اللغة العربية، وهي مشتقة من سفر كعرف أو أسفر كأكرم وليس من السفر بمعنى الرحيل<sup>4</sup>.

وقد اعتبرها المشرع الإسلامي أمر غير مرغوب فيه مخافة اهتزاز عقيدة المسلمين من الأفراد والجماعات، لكنه استثنى الرحلات أو السفارات التي لابد منها تأسيساً على جلب المنافع لجماعة المسلمين وعلى القائمين بها ذوي العقيدة الراسخة الذين لا تؤثر فيهم تغير الأوضاع الاجتماعية التي لا تتناسب والأوضاع الموجودة في بلاد الإسلام والمسلمين، وتشكل الرحلة خارج

1- محمد الفاسي، الرحلة المغاربة وآثارهم، مجلة دعوة الحق، العدد 2-4، يناير 1959م، ص: 22-25.

2- السفير ابن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق الأستاذ محمد الفاسي، مطبوعات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.

3- عبد الهادي التازي، التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد الأول، مطبعة فضالة، المحمدية، 1986م، ص: 179.

4- سعيد بنزحون، قراءة في رحلة الصغار إلى فرنسا 1845-1846، دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات، الحوار المتمدن، العدد 3710، بتاريخ 2012/04/27.

الفضاء الإسلامي جنسا أدبيا يتميز بجمعها بين الطرافة والإمتاع، إذ المطلع على الرحلة يتعرف على العالم الذي ينقله المسافر، كما يطلع على أفكار وتصورات صاحب الرحلة<sup>1</sup>.

وإذا كانت الرحلات السابقة خارج الفضاء الإسلامي تهدف إلى التعرف على الآخر الأقل شأنًا من الحضارة الإسلامية، فإن الرحلات اللاحقة اتسمت بالرغبة الشديدة التي أبان عنها البعض من نخبة العالم الإسلامي (الطهطاوي نموذجًا) المتخلف عن ركب الحضارة الغربية في التعرف على مستوى الحضارة الذي وصل إليه الآخر، فالكافر بلغ مستويات عليا من التقدم الحضاري وأصبح يهدد العالم الإسلامي في عقر داره ولا مانع من التعرف على أسباب تقدمه ورقبه، ولا يتم ذلك إلا من خلال المشاهدة الحقيقية<sup>2</sup>.

وقد عرف هذا النوع من الرحلات نشاطا مكثفا وواضحا بالمغرب مع منتصف القرن 19م حتى نهايته بسبب التهديدات الأوربية التي أشرفت جيوشها على الحدود المغربية بعد احتلالها للجزائر سنة 1830م، ولم تتورع في التدخل عسكريا في المغرب في محطتين تاريخيتين هما معركة إسلي سنة 1845م واحتلال تطوان سنة 1860م، وعلى غرار ما حدث بدول المشرق العربي الذي لم يعرف الحركة النهضوية الحديثة إلا بعد الاصطدام بالحضارة الأوربية مع حملة نابليون على مصر، فإن المغرب بدوره لم يشرع في التساؤل من طرف حكامه ونخبه حول هزائمه المتتالية إلا بعد الاصطدام بصدمة التفوق الأوربي وهو ما عبر عنه محمد عابد الجابري رحمه الله بقوله: "ومنذ هذه الساعة انتبه المغاربة إلى أن أنظمتهم العتيقة في الجيش وأجهزة الحكم وآلياته المختلفة لم تعد مجدية إزاء التقدم الأوربي الحديث، وتكون في نفس القادة والنخبة المتنورة شعورهم بالحاجة والتجدد وانتحال وسائل النهوض"<sup>3</sup>.

هذا الاقتناع دفع بالمخزن والنخبة المغربية من أجل الحفاظ على استقلال البلاد إلى إذكاء روح التنافس بين الدول المتنافسة حول المغرب عن طريق العمل الدبلوماسي خاصة ما بين 1845/1906م، إضافة إلى العمل الدبلوماسي كان على السفراء أو كتائبهم تدوين وتسجيل كل ما هو جديد وغريب ونافع من المؤسسات والعادات التي ساهمت في قوة وغلبة الأوربي، وذلك قصد تقديمها لأصحاب الحل والعقد للاستفادة منها والاسترشاد بها للقيام بالخطوات والمبادرات الإصلاحية التي تفرضها تقلبات الأحوال، وتحت علمها العقول المتنورة والمتفتحة في كل من المغرب والبلدان العربية والإسلامية<sup>4</sup>، ومن الرحلات السفارية التي سنعتها في هذه الورقة العلمية رحلة أبي عبد الله محمد بن عبد الله الصفار.

رابعا: التعريف بالمؤلف ورحلته:

#### 1- محمد بن عبد الله الصفار الفقيه والعدل والكاتب المخزني.

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الصفار أصله من الأندلس، ولد بمدينة تطوان من أسرة أندلسية نازحة إلى المغرب عقب محاكم التفتيش. لا نعلم تاريخ مولده، تربى في كنف أسرة متواضعة، وعلى غرار معاصريه انتقل الصفار إلى الحاضرة العلمية "فاس" بعد أن تلقى تعليمه الأولي بمدينة تطوان. مكث هناك حوالي ثمان سنوات اغترف فيها الكثير من علوم عصره

<sup>1</sup> - سعيد بنرحون، ن.م.س. إضافة إلى الدراسة الهامة لسعيد بن سعيد العلوي، أوربا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1995، سلسلة الأبحاث والدراسات.

<sup>2</sup> - محمد عابد الجابري، الأصالة والتحديث في المغرب، مجلة الثقافة الجزائرية، السنة، 13، العدد77، شتنبر 1983، ص: 55-92.

<sup>3</sup> - كي مبارك، الرحلة إلى الشرق والغرب وحركة التنوير والتحديث بالمغرب، مجلة المناهل، العدد، 93-94، نونبر 2012، ص: 32.

<sup>4</sup> - سوزان ميلار، صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصفار إلى فرنسا 1845-1846، ترجمة وتقديم خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم2، جامعة محمد الخامس، 1995، ص: 48-53.

حتى صار علما من أعلام الفقه والحديث والنحو. عاد إلى تطوان مسقط رأسه بلقب الفقيه دلالة على تملكه وإحاطته بعلوم عصره. صفة مكنته من الترتي بمستواه الاجتماعي في مجتمع تطواني يعيش ازدواجية على مستويات عدة اجتماعية (أندلسيون/جبليون بدو) واقتصادية (التجارة والحرف/ضيق في العيش) ودينية (انفتاح/انغلاق)<sup>1</sup>.

مارس وظيفة العدلية حيث كان ينوب عن القاضي أثناء غيابه، إلى جانب قيامه بدوره كفقيه بالمسجد عبر إعطاء الدروس النظامية والتطوعية. عرفت حياة الصفار هزة نوعية مكنته من أن يصبح الكاتب الخاص لباشا المدينة "محمد أعشاش" باعتباره الفقيه العالم في كل الإيالة تنفيذا للقرار السلطاني القاضي بالزام الباشوات باتخاذ كتبة محترفين يعملون على تحرير المراسلات الرسمية بين الباشوات والجهاز المخزني المركزي<sup>2</sup>.

ظل الصفار وفيما لوظيفته التقليدية التدريس والعدلية على الرغم من مكانته الاجتماعية الرفيعة، حيث لزم مجلس الباشا "محمد أشعاش" ومن بعده ابنه "عبد القادر أشعاش" يمارس وظيفة الاستشارة في كل الأمور التي تشكل من الناحية الشرعية. هذه الصفة مكنته من اختياره من طرف أعشاش لمرافقته إلى بلاد الفرنسيين نزولا عند الأمر السلطاني القاضي بالزامية أن يكون موكب الرحلة مرفقا بفقيه عالم بأمور الدين والشرع.

رافق الصفار أعشاش إلى فرنسا وسجل كل ما رآه أثناء رحلته، ولما عاد إلى المغرب عمل على استرجاع وتركيب الأحداث في كتاب جامع امتثالا لأمر السلطان الذي كان متعطشا للتعرف على ما كان عند الآخر وغاب عند الذات<sup>3</sup>، غير أن حياة الصفار ستعرف هزة ثانية لكن هذه المرة في الاتجاه السلبى حيث سيتم القبض على الباشا "أعشاش" بعد الرحلة ويودع السجن وسينجو الصفار بقدرة قادر وبركة الزاوية الفاسية التي ظل بضريحها لمدة تزيد عن الأربعة أشهر إلى أن تدخل لصالحه أصحاب النوايا الحسنة وتم إلحاقه بحاشية السلطان على المستوى المركزي، اهتم بتعليم أبناء السلطان وانتهى به المطاف صدرا أعظم في عهد السلاطين المولى عبد الرحمن وابنه محمد وخلفه المولى الحسن<sup>4</sup>.

خلف الصفار مخطوطة رحلته الموجودة بالخزانة الحسنية بالرباط المتكونة من 139 صفحة، ويعود الفضل في إخراجها إلى الباحثة الأمريكية "سوزان ميلار" بتوجيه وإرشاد من الأستاذ القدير الفقيه محمد المنوني وقد قام الأستاذ خالد بن الصغير على تعريب العمل والمشاركة في تحقيقه.

أما موضوع المخطوط فهو تقرير عن رحلة قام بها المؤلف إلى باريز في شهر دجنبر من سنة 1845م حين كان كاتباً للسكران المغربي عبد القادر أعشاش، وينقسم المخطوط إلى ستة أقسام بدأها المؤلف بتوطئة وأنهاها بخاتمة، تتوسطها أربعة فصول أساسية تتناول مواضيع مختلفة، ومن حيث البنية تجمع الرحلة بين خصوصيات أدبيات الرحلة الكلاسيكية وعناصر أكثر حداثة.

من الملاحظات الأساسية للباحثة الأمريكية حول هذه الرحلة، التأثير الكبير للصفار بمن سبقه إلى فرنسا من الرحالة العرب حيث تقول: "وقد تأثر الصفار إلى حد كبير بهذا الكتاب (تخليص الإبريز في تلخيص باريز للمصري رفاعة الطهطاوي) شكلا ومضمونا<sup>5</sup>، لكن دون أن يكون مقلدا له. والمتصفح للرحلة يلمس الوصف الموضوعي والانبهار المغالى فيه كما يلمس التمثل

<sup>1</sup> - نفس المرجع السابق، ص: 53-54.

<sup>2</sup> - ن.م.س. ص: 54-55.

<sup>3</sup> - ن.م.س. ، ص: 57.

<sup>4</sup> - ن.م.س. ص: 73.

<sup>5</sup> - ن.م.س. ص: 73.

الفاضح للآخر بما ترغب فيه نفسية الممثل، فالصفر أحد النخب المعاصرة للهزيمة، وبالتالي جاء وصفه ينم عن اندهاش زائد بالآخر مقابل تقريع الذات عبر مقارنات وتحسرات عن أيام عز الذات الإسلامية التي صارت متخلفة عن الآخر بأسباب المدنية والتقدم.

## 2- السياق التاريخي لرحلة الصفر:

من الملاحظات الأساسية والمركزية للرحلتين معا توقعيتهما، فقد جاءتا بعد هزيمتين مدويتين للجيش المغربي أمام آلة الإمبريالية الأوروبية خلال القرن 19م، واللتين أبانتا عن ترهل الأجهزة العسكرية المغربية، والضعف الكبير الذي أصبح عليه المغرب على جميع المستويات، مما دفع بالمخزن المغربي والنخبة المغربية إلى طرح تساؤلات عديدة حول أسباب تفوق الآخر (المسيحي الكافر) وتأخر الذات، وبالتالي لا مانع من الإطلاع على أسباب رقيه وتقدمه.

فرحلة الصفر إلى فرنسا رفقة موكب باشا تطوان "عبد القادر أشعاش" جاءت كنتيجة لانهزام الجيش المغربي التقليدي أمام القوة العسكرية الفرنسية المتطورة والمنظمة في معركة اسلي سنة 1844م والتي أبانت بشكل جلي على انتهاء صلاحية الجيش المخزني وعدم مسيرته لتطور الجيش النظامي الفرنسي، فبعد احتلال الجزائر سنة 1830م أصبحت فرنسا الجار الحقيقي للمغرب من الجهة الشرقية، وبالتالي قطعت على المغرب البلد المسلم امتداده الطبيعي في اتجاه الشرق، وبدأت تتحرش به للإيقاع به في شباكها، وهو الوضع الذي لم يرض لا المخزن ولا عامة المغاربة، فكان رد المخزن المغربي هو محاولة خلق منطقة عازلة بينه وبين الجار الجديد من أجل تأمين عمقه الأمني، عن طريق تمديد حدوده الشرقية داخل التراب الجزائري بهدف وقف الزحف الفرنسي. ولتحقيق هذا المسعى عمل السلطان المغربي على دعم المقاومة الجزائرية ممثلة في الأمير عبد القادر بن الشيخ بن مكي الدين باعتباره واجبا شرعيا مقابل البيعة الشرعية التي تخول له الاحتماء بالسلطان، يقول المؤرخ عبد الله العروي "إن كلا من عبد الرحمن وعبد القادر يلجأ إلى منطق الفقه في مواجهة خصمه المسلم، وإلى منطق السياسة كلما خاطب الفرنسيين... لكن الفقهاء في فاس وفي القاهرة لا يعتبرون السياسة. كانت فتوهم دائما لصالح عبد القادر دون الالتفات لعواقبها السلبية على البلاد والعباد، في هذه الظروف لم يكن السلطان يستطيع ولا يستطيع التخلي كلياً عن المجاهدين الجزائريين فأعلن الحياد رسمياً ومع ذلك واصل تزويدهم بالسلح والخيال، لقد حصل اتفاق ضمني بين السلطان وعبد القادر يساعد الأول الثاني في حدود استطاعته دون تورط ويقبل الثاني مبايعة الأول لأن هذا ما يفرضه الشرع الذي يحتج به"<sup>1</sup>.

ومن أجل ضرب هذا التعاون المغربي مع المقاومة الجزائرية قامت فرنسا بتعيين أحد جنرالاتها المعروفين بكرهه للمسلمين وهو الجنرال "بيجو" حاكماً عاماً للجزائر، والذي صمم العزم على القضاء على المقاومة الجزائرية ولو كلفه الأمر اجتياح التراب المغربي. وبالفعل قامت فرنسا بتوجيه ضربتين عسكريتين للمغرب سنة 1844م، حينما قامت بقنبلة طنجة وتدمير مدينة الصويرة والتي كان الهدف منها التأثير على المداخل المالية للبلاد وترهيب المغاربة من مغبة مواصلة دعم المقاومة الجزائرية، ومن ثمة بدأت معاناة المغاربة مع الجارة الجديدة فرنسا الاستعمارية ذات النزعة التوسعية فكانت لحظة حسم هذا الصراع هي معركة إسلي في الرابع من غشت من سنة 1844م، وبغض النظر عن مجريات الحرب فقد كشفت بالواقع والملموس مدى التفاوت بين الجيش الفرنسي المنظم والمنضبط والمسلح بأحدث الأسلحة والجيش السلطاني القوي المغرور والفوضوي والفاقد للتقنية الحربية الحديثة، فكانت الصدمة وسقطت الأقنعة، واكتشفت الذات أن ما ينقصها يوجد لدى الآخر.

<sup>1</sup>-Abdallah Laroui, l'histoire du Maroc, un essai de synthèse, Centre Culturel Arabe, Casablanca, 2<sup>ème</sup> édition 2001, p : 295.

لقد أسفرت هزيمة إسلي من بين ما أسفرت عليه الشروط القاسية التي تضمنتها اتفاقية "لالة مغنية" في 18 مارس من سنة 1845م، فكان لزاما على المغاربة مخزن ونخبة البحث عن أسباب الهزيمة وسر تفوق الآخر، فكانت رحلة المصري رفاعة الطهطاوي النبراس الذي اهتدى به المخزن المغربي لتبرئ رحلة استطلاعية لفرنسا بهدف معرفة العدو واتقاء شره. فقد فعلت هزيمة إسلي فعلتها في عقلية المعادين للتقارب مع فرنسا وفي مقدمتهم الصدر الأعظم "محمد بن إدريس"<sup>1</sup> الذي أصبح من أكبر الدعاة للتقارب مع فرنسا إلى جانب كل من النائب السلطاني وممثله أمام الهيئة الدبلوماسية "بوسلهام أزطوط"<sup>2</sup> والدبلوماسي الفرنسي "ليون روش"<sup>3</sup> الذي كان يهدف من وراء هذه السفارة إلى تحقيق المآرب التالية: تبيان للرأي العام أن المغرب أصبح ضعيفا ومكسور القوة وبالتالي يجب تبعيته للتاج الفرنسي القوي، ثانيا تبرير التضحيات البشرية والمالية التي قدمتها فرنسا في حربها في الجزائر، ثالثا أن فرنسا قادرة على تحقيق السلام وربط علاقات وصدقات دولية. وتبعاً للشروط الموضوعية لاختيار السفير فقد وقع الاختيار على عامل تطوان "عبد القادر أشعاش"<sup>4</sup> ذو الحسب والنسب والمركز رفقة صديقه الفقيه العدل محمد الصفار باعتباره الشخص الذي تتوفر فيه الشروط التي حددتها الدوائر المخزنية وهي العقل والبروءة والدين والمعرفة بقوانين الأجناس، إضافة إلى العلم بالصلاة والقراءة وأمور الاعتقادات والديانات، وهذه الشروط لم تتوفر سوى في صديق السفير الفقيه محمد الصفار.

### 3- مواقف وارتسامات الصفار التطواني:

يتضح من خلال القراءة المتأنية لرحلتي الصفار وابن إدريس أن هناك تشابها كبيرا من حيث الصور التي نقلها من خلال مشاهداتهما في الطريق إلى باريز والإقامة بها، لكنهما يختلفان من حيث تناول والمواقف. فقد قاما معا بمحاولة نقل أحوال المجتمع الفرنسي على عهد نابليون الثالث، وقد ركزا في رحلتهم على وصف أوضاع المجتمع الفرنسي وبعض مقومات الحدائثة الفرنسية على الشكل الذي بدت لهما في عدد من المظاهر الاجتماعية والعمرائية والسياسية والتكنولوجية، سواء في الطريق إلى باريز أو أثناء الإقامة بها، حيث أبدى كل منهما موقفا معينا، كل حسب مركزه وانتمائه. وإجمالا يمكن تلخيص مشاهدات كل من الصفار و العمراوي في ثلاث جوانب أساسية:

**الجانب الاقتصادي والمالي:** لقد ركز الصفار في رحلته على فئة التجار باعتبارها عصب الحياة الاقتصادية، فالصفار أثناء وصفه لملاحظاته لم يقتصر على ذلك فقط بل استفسر على العديد من جوانب الحياة الأخرى وخلص إلى أن كل ما هو موجود بهذه المدينة أو غيرها لا يرجع فقط إلى دور الدولة بل إلى ما أقامته فئة التجار وهو الغالب.

<sup>1</sup> - محمد بن إدريس: عاش ما بين 1847/1794، شغل منصب الصدر الأعظم خلال فترة حكم المولى عبد الرحمن بن هشام، كان شاعرا ممتازا، كما شكل أحد رجالات الدولة داخل الجهاز المخزني، غيرت هزيمة اسلي موقفه من معاد لأوروبا إلى مناصر لها.

<sup>2</sup> - بوسلهام أزطوط بن علي: شغل منصب عامل على مدينتي طنجة والعرائش، وفي الوقت نفسه نائبا وممثلا للسلطان أمام قناصل الدول الأجنبية المقيمين بطنجة.

<sup>3</sup> - ليون روش: بدأ حياته مع الجيش الفرنسي بالجزائر، أصبح الكاتب الخاص للأمير عبد القادر الجزائري، التحق بمحاشية الجنرال بيجو سنة 1839. لعب دورا أساسيا في سفارة أشعاش حيث كان مرافقا للبعثة المغربية إلى باريز.

<sup>4</sup> - عبد القادر أشعاش: هو سليل أسرة تطوانية محزنية ثرية وذات نفوذ، شغل جده عبد الرحمن منصب العامل على تطوان، وهو نفس المنصب الذي شغله أبوه محمد على نفس المدينة، اشتهر بالبأس والقوة وعندما توفي سنة 1845 انتقلت مهام باشوية المدينة إلى عبد القادر الذي اجتمعت فيه الشروط الضرورية التي تستلزمها السفارة.

الجانب العسكري والسياسي: حضي هذا الجانب باهتمام كبير من طرف الصفار، حيث وصف اللقاء مع ملك فرنسا في أدق تفاصيله منذ التوجه إلى القصر الملكي والاستقبال الملكي الفخم واللياقة التي استعملت أثناء اللقاء (الكلام المزور) ثم الاحتفالات بمناسبة السنة الميلادية الجديدة.

أما الجانب العسكري وهذا هو بيت القصيد بالنسبة لرحالتنا، فقد كتب الصفار عنه قائلاً بعد حضوره لاستعراض عسكري "ومضوا وتركوا قلوبنا تشتعل نارا، لما رأينا من قوتهم وضبطهم وحزمهم وحسن ترتيبهم، ووضعهم كل شيء في محله، مع ضعف الإسلام وانحلال قوته واختلال أمر أهله. فما أحزمهم وما أشد استعدادهم، وما أتقن أمورهم وأضبط قوانينهم. وما أقدرهم على الحروب وما أقواهم على عدوهم، لا بقلوب ولا بشجاعة ولا بغيرة دين، إنما ذلك بنظامهم العجيب وضبطهم الغريب، وإتباع قوانينهم التي عندهم لا تنخرم. إن صدرت من واحد منهم زلة أجروا عليه شريعته، سواء كان رفيعا أو وضعيا. وإن ظهرت لأحد منهم مزية أرقوه درجاتها، لا يطمع أحد منهم فيغير ما هو له، ولا يخاف على ما في يده أن ينزع منه فعلى ذلك يبدلون مهجهم في المعارك، ويلقون بأنفسهم في المهالك. ولو رأيت سيرتهم وقوانينهم لتعجبت منها غاية العجب، مع كفرهم وانحاء نور الإيمان من قلوبهم، وما رآه كمن سمع. اللهم أعد للإسلام عزته. وجدد الدين نصرته بجاه النبي صلى الله عليه وسلم"<sup>1</sup>.

الجانب التكنولوجي والاختراعات (الجانب التقني): لقد وقف الصفار عند هذا الجانب ووصف كل جديد شاهده من الناحية التكنولوجية، حيث وقف الصفار في رحلته عند المركب الذي أقل الوفد من طنجة إلى فرنسا والذي وصفه بقوله "وقد كان بعث لنا من نحن متجهون إليه مركبا عظيما من مراكب النار المعروفة بالبابور، قد انتخبه لنا من أحسن ما عنده استجلابا للألفة وحفظا للمودة"<sup>2</sup>. وعلى الرغم من صغر حجم المركب فقد اعتبره الصفار مركبا عظيما يليق بالسفارة. لقاء الصفار بالجديد أيضا كان من خلال وسائل النقل المعتمدة في إيصال الوفد السفاري إلى باريس، ويتعلق الأمر ب"الأكداش والكراريس" وهي العربات التي تجرها الخيول والتي انهر بها الصفار كثيرا ونعتها ب"...بيت من البيوت، لا يخاف راكبه من ريح ولا مطر ولا شمس ولا حر ولا برد لأنه داخل بيته..."<sup>3</sup>. كما وقف الصفار عند ما أسماه ب"طريق الحديد" والذي كان يقصد به القطار، والذي وصفه توصيفا عجيبا يدل دلالة قاطعة على افتقار الذات الواصفة لشيء يشبه هذا الاختراع العجيب الذي خلب لبه ووقف أمامه مشدوها لأنه كما قال صاحبنا "...يساير الطير في الهواء، بحيث قطعنا المسافة في ساعتين ونصف، إلا وكنا ننظر إلى جوانب الطريق فلا نرى ما فيها من الأحجار.. إلا كأنها خيوط متصلة ذاهبة معنا، ولا نحقق الحجر ولا غيره..."<sup>4</sup>. كما وصف الصفار وصفا دقيقا دار الطباعة (دار الكتب) وهو المكان الأكثر حبا وقربا إلى قلبه، وما لفت انتباه فقهنا بهذا المكان هو وجود المصحف الشريف بين كتهم وهو ما أخرجه من جبة السفير الدبلوماسي إلى جبة الفقيه حيث نطق لأول مرة لفظ الكفرة في مدونة رحلته "طلبنا منهم الكتب العربية، فأحضروا لنا مصحفا عظيما في مجلد كبير يحمله اثنان من الناس بينهما لكبره، وهو خط شرقي لم يرمثه حسنا وبهجة ورونقا وكمالا. ولا يوصف ما فيه من الحلية والذهب مما يستحسن أن يكون في خزنة ملوك الإسلام أظفرهم الله به وأنقذه من أيدي الكفرة"<sup>5</sup>. فهل نعتبر هذه اللفظة "زلة لسان" بالنسبة لفقهنا أم أنه نطقها على مريض ما دام أن الفقيه وصف مظاهر الحضارة الفرنسية بكثير من الانبهار والدهشة وغض الطرف

<sup>1</sup> - سوزان ميلار، ن.م.س. ص: 198-199.

<sup>2</sup> - نفس الرجوع السابق، ص: 95.

<sup>3</sup> - نفسه، ص: 80.

<sup>4</sup> - ن.م.س. ص: 80-131.

<sup>5</sup> - ن.م.س. ص: 92.

عن الكثير من التفسخ في المجتمع الفرنسي، كحديثه عن الخمر والمرأة الفرنسية دون أن يبدي أي موقف معارض وهو الفقيه المتخرج من القرويين.

إن المتصفح لمتن رحلة الصفار يقف على العديد من مظاهر الحضارة الفرنسية التي اجتهد فقيها في تعداد العديد منها سواء عن طريق المشاهدة المباشرة أو عن طريق السماع. كما يقف القارئ على الانهيار الزائد عن اللزوم للأنا المغربية بالآخر الفرنسي إلى درجة الذوبان فيه، وهي الذات الخارجة للتو من الهزيمة المخزية لمعركة اسلي. كما يقف المتتبع أيضا على الرجة التي أحدثها وجود مصحف بهذه البلاد الكافر أهلها، مما شكل صفة قوية للأنا أيقظتها من نومها، ويظهر أيضا من خلال الرحلة، روح التسامح المتبادلة بين الأنا والآخر، والتي ظهرت من خلال التقدير الذي أبان عنه الفرنسيون اتجاه الوفد المغربي. فالمتتبع لرحلة الصفار يقف على التفسير العقلاني أثناء رصده للتفوق الفرنسي، كما يقف على الاستغراب الكبير للصفار من إمكانية إرساء وترسيخ التحضر بدون أفضلية عقدية وبدون ضمانات متعالية. فالفرنسيون تمكنوا من تحقيق إنجازاتهم المختلفة بفضل الانضباط وإقرار العدالة أي بفضل استعمال العقل لا الاستناد إلى أي سند عقدي أو أية إحالات ما وراثية.

إن القارئ لرحلة الصفار يجب عليه أن يضعها في سياقها العام، حتى يتمكن من فهم الانهيار العام للصفار من التقدم الفرنسي خاصة بعد تفوقهم على الذات المغربية. فهل وقف المغاربة على المراجعات الضرورية لفهم ذواتهم في ظل المقارنة مع الآخر؟ هل شكلت هزيمة إسلي درسا لمن يهمهم الأمر؟ هل استفاد أحد ومنهم الصفار من خلاصات رحلته إلى فرنسا؟

خلاصة القول، أن الخطاب السفاري المغربي خلال القرن 19م عرف نوعا من التراجع بين التيار المتفتح الداعي للأخذ بالحدثة الأوروبية إداريا وعسكريا وتكنولوجيا، والتيار المحافظ التقليدي الذي رأى في إدخال التحديث على النمط الأوروبي مؤشرا على تفكيك البنيات المجتمعية التقليدية السائدة.

فرد فعل النخبة المغربية اتجاه الصدمة لم يكن في المستوى، المطلوب بحيث يجعلها قادرة على استيعاب أسس الحدثة الأوروبية وبلورة استراتيجية قادرة على التحديث والحفاظ على الاستقلال، وهو ما جعل المخزن المغربي يتردد في تبني برنامج إصلاح قادر على تطوير البنيات السوسيواقتصادية والثقافية لمغرب القرن 19م.

#### قائمة المراجع:

- 1- محمد رضى الرحمن القاسمي، الرحلة وأدبها في اللغة العربية (دراسة تاريخية)، مجلة الداعي (شهرية)، دار العلوم ديوبند، جمادى الثانية 1434هـ/يونيو 2013م، العدد 6-7، السنة: 37.
- 2- نشير في هذا الصدد إلى بعض الأسماء كـ "المسالك والممالك" لأبي عبيد الله البكري (ق5هـ/11م)، و"معجم البلدان" لياقوت الحموي (ق7هـ/13م)، و"تقويم البلدان" لأبي الفدا إسماعيل (ق8هـ/14م) و"فتوح البلدان" ليحيى بن جابر البلاذري.
- 3- محمد الفاسي، الرحالة المغربية وآثارهم، مجلة دعوة الحق، العدد 2-4، يناير 1959م.
- 4- السفير ابن عثمان المكناسي، الإكسير في فكاك الأسير، تحقيق الأستاذ محمد الفاسي، مطبوعات المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965.
- 5- عبد الهادي التازي التاريخ الدبلوماسي للمغرب، المجلد الأول، مطبعة فضالة، المحمدية 1986م.

- 6- سعيد بنرحمون، قراءة في رحلة الصفار إلى فرنسا 1845-1846، دراسات وأبحاث في التاريخ والتراث واللغات، الحوار المتمدن، العدد 3710، بتاريخ 27/04/2012.
- 7- سعيد بن سعيد العلوي، أوروبا في مرآة الرحلة، صورة الآخر في أدب الرحلة المغربية المعاصرة، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1995، سلسلة الأبحاث والدراسات.
- 8- محمد عابد الجابري، الأصالة والتحديث في المغرب، مجلة الثقافة الجزائرية، السنة 13، العدد 77، شتنبر 1983.
- 9- زكي مبارك، الرحلة إلى الشرق والغرب وحركة التنوير والتحديث بالمغرب، مجلة المناهل، العدد 93-94، نونبر 2012.
- 10- سوزان ميلار، صدفة اللقاء مع الجديد، رحلة الصفار إلى فرنسا 1845-1846، ترجمة وتقديم خالد بن الصغير، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة نصوص وأعمال مترجمة رقم 2، جامعة محمد الخامس 1995.
- 11- السفير ادريس العمراوي، تحفة الملك العزيز بمملكة باريز، تقديم زكي مبارك، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع للشمال، طنجة 1989.
- 12- عبد المجيد القدوري، سفراء مغاربة في أوروبا، 1610-1922، في الوعي والتفاوت، منشورات كلية الآداب بالرباط 1995، سلسلة الأبحاث والدراسات.
- 13- الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء السابع، دار الكتاب، الدار البيضاء 1956، ص: 101.
- 14- Abdallah Laroui, L'histoire du Maroc, un essai de synthèse, Centre Culturel Arabe, Casablanca, 2<sup>ème</sup> édition 2001.



## الجنون والإقصاء الاجتماعي :

### النكات كمدخل لفهم وضع الجنون داخل المجتمع المغربي

محمد خيدون/جامعة مولاي اسماعيل، المغرب

#### ملخص:

لقد عرف الجنون مسارا طويلا من الإقصاء والتمهيش، وقد كان هذا الإقصاء متوافقا مع أنماط التفسير السائدة. ففي مرحلة معينة كان المجنون يوضع في معابد، أو ينفى لكونه مسكون بأرواح شريرة، أو لكونه أثار غضب الآلهة، وفي مرحلة أخرى، صار يحتجز في المصححات العقلية، وذلك لأنه مريض، وبشكل تهديدا للأمن داخل المجتمع. إن هذه الصورة التي رسمها كل من فوكو (في كتابه تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي) وروي بوتير (في كتابه موجز تاريخ الجنون) للمجنون داخل التاريخ الأوروبي، لا تختلف عن الصورة التي تقدمها النكات المغربية. فهذه الأخيرة تصور الجنون كشيء غريب عن المجتمع ولا ينتهي إليه، ويتجسد هذا التصور في حرصها على بقاء المجنون محتجزا داخل مصحة المجانين (سبيطار الحماق). وحتى في الأحيان القليلة التي تتحدث فيها عن المجنون خارج أسوار المصححة، تحرص هذه النكات على عدم حصول أي تفاعل بين المجنون وباقي أفراد المجتمع. إن هذا يفيد، في حقيقة الأمر، أن هذه النكات تنبع من تصور لا يحتفظ للجنون بأي مكان داخل المجتمع.

الكلمات المفتاحية: تاريخ الجنون، النكات، الإقصاء الاجتماعي، الجنون.

#### تقديم:

إن وجود الجنون هو ملازم لوجود الإنسان، إذ لا يمكن تصور أن هناك حضارة لم تعرف المجانين. ومع ذلك، فإن المجنون شكل دائما مصدر تعجب وقلق، كما شكل أيضا مصدر إلهام وتأمل، حيث يتم تصوير أقصى درجات الحب جنونا، وكذلك أقصى درجات الغضب والضيم، وأحيانا حتى أقصى درجات الحكمة. وهكذا فإنه دائما ما يتم ربط كل ما لا حدود له بالجنون، وليس ذلك في الأدب فقط، بل حتى في اللغة اليومية، حيث يوصف كل ما هو بالغ التعقيد بالجنون، وتوصف الجرأة والشجاعة المفرطة بالجنون، وكذلك يوصف العجز عن ضبط النفس، فيقال لمن قام بفعل جريء "مجنون"، ويقال عن بعض العلوم "جنون"، كما يقال لمن تصرف على نحو غير مقبول "هل أنت مجنون؟". وهكذا فقد عمل الجنون كلفظة، على توحيد مجموعة من الألفاظ والمفاهيم التي تستعمل في أماكن مختلفة وتحمل دلالات متناقضة أحيانا، فأدمجت في كلمة واحدة، تشير إلى كل ما يخرق العادة.

لقد قامت الحكمة الشعبية في محاولتها لتعريف وتصوير الجنون، بربطه بالمظهر، وقد عزز الفنان والكاتب هذا التمثيل، حيث تم تصوير الجنون بصورة معيارية في الفن، على هيئة كائن غريب أشعث، هاتم على وجهه، يرتدي ملابس غريبة وممزقة، وأحيانا لا يرتدي سوى غرزة أو رتقة، وتنتصب ريشة من رأسه. وفي الكثير من الحكايات الشعبية صور المجنون في شكل كائن

مشوه يبرز حجر من مجتمه، يعرف بحجر الحقم.<sup>(1)</sup> "لقد حدد الطبيب العقلي البريطاني، وليام بارغيتر، الإنسان المجنون على النحو التالي: "دعونا إذن نتصور حالة ذلك المخلوق المفتقر إلى الارشاد الذي يمنحه المبدأ الحاكم، وهو العقل الذي يميزنا عن الحيوانات الدنيا...انظر إلى من حرم تلك الهبة النبيلة وسترى في أي حالة سوداوية سيكون". ينطوي وصف بارغيتر المثير هذا، على الإشارة إلى النموذج العلوي الذي سقط منه المجنون، وهو أنموذج الإنسان العاقل".<sup>(2)</sup>

يمكن القول أن تحديد المجنون ضمن غيره لم يكن يوماً بالأمر الصعب. هناك بدهة تطبع تحديد المجنون، لازمة للطابع اللامحدود للمجنون، بحيث يسهل تحديد سماته. فكما كانت هذه السمات غامضة، سهل معرفة المجنون، فربما أننا لا نعرف أين يبدأ الجنون، لكننا نعرف بشكل يقيني من هو المجنون.<sup>(3)</sup> والواقع أن سهولة تحديده هذه مرتبطة بشكل أو بآخر، بذلك التعريف البسيط للجنون بفقدان العقل، فبقدر ما تبدو هذه المتلازمة "حضور الجنون عند غياب العقل" قوية، بقدر ما يظهر فعلاً أن الحدود بينهما صلبة جداً ولا تقبل التجاوز، فلا يمكن لكليهما التواجد في الزمان أو المكان عينهما، وذلك أن الفوضى لا تكون في حضور النظام، كما أن النظام لا يمكن أن يكون إلا في غياب الفوضى، وهو ما يفضي في نهاية المطاف إلى تقابل بين الجنون والعقل. ونحن عندما نرى هذا التقابل منطقياً، فإننا نساهم في تضخيم الهوية بين المجنون والواقع وبالتالي تضخيم الهوية بين المجنون والمجتمع.

يمكن القول أن مسألة الجنون تثير الكثير من الجدل، فقد ذهب البعض إلى الاعتقاد أنها في ترابط وثيق مع بنية المجتمع، وذلك أنها بنية قائمة على غياب المساواة والعدالة، والمجنون هو الحلقة الأضعف داخلها. لقد اعتبر زاز، أن المرض العقلي واللاوعي ليس لهما وجود حقيقي. فالأطباء العقليون يدعون معرفة لا يملكونها، ويصورون النفس البشرية تصويراً ساذجاً، كما ينخرطون في نوع من الإمبريالية المهنية. لم يكن زاز وحيداً في هذا الاتجاه، فقد ذهب مؤرخ الفكر المعروف، ميشيل فوكو إلى أن الجنون بناء ثقافي، كرسه الطب والطب العقلي، والممارسات الزجرية ذات الطبيعة الإدارية. وبالتالي فإن الحديث عن تاريخ الجنون، هو حديث عن الحرية والتحكم، والمعرفة والسلطة.<sup>(4)</sup>

#### نبذة حول تاريخ الجنون:

تجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن لفظة "تاريخ الجنون" في حقيقة الأمر تنطوي على مجموعة من المعاني التي يتطلب التعبير عنها صيغة أعقد من هذه. فالجنون في الواقع مقصي من التاريخ، ويدل على ذلك غيابه الظاهر والجلي في الكتابات التاريخية وقلة اهتمام المؤرخين به، وإن حدث وأثير النقاش حوله فإن المبادرة تكون في أكثر الأحيان من طرف الفلاسفة. فتاريخ الجنون ليس كأبي تاريخ آخر، وذلك أن العادة تقتضي أن يكون المؤرخ له هو بطل الرواية، لكن الأمر ليس كذلك عندما يتعلق الأمر بالجنون. فتاريخه في معظمه هو تاريخ عقل، أما الجنون فهو مجرد مشكلة أو اشكالية تستدعي منه (أي من العقل) التفكير لحلها، وتبدو هذه المسألة بشكل واضح عندما نرى كيف يصور التاريخ الجنون على أنه ذلك الجزء الثابت من الإنسان الذي لا يغيره الزمن. فجنون القرن السابق هو نفسه جنون هذا القرن، لكن الذي يتغير هو نظرة العقل له، وذلك أن تاريخ الجنون في حقيقة الأمر هو خاضع تماماً لتطور الفكر، شأنه في ذلك شأن كثير من مواضيع العلم، حيث أن التصورات التي بنيت حوله وطريقة التعامل معه وتدييره خضعت طوال الوقت لمسار تطور الفكر من الأسطورة إلى الفلسفة ثم العلم، وفي كل محطة من

<sup>1</sup> روي بوتر، 2002، موجز تاريخ الجنون، ترجمة: ناصر مصطفى، الطبعة الأولى 2012، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ص 78.

<sup>2</sup> ورد في: روي بوتر، 2002، موجز تاريخ الجنون، ترجمة: ناصر مصطفى، الطبعة الأولى 2012، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الصفحة ص 68.

<sup>3</sup> ميشيل فوكو، 1972، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة سعيد بنكراد، الطبع الأولى 2006، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص 201.

<sup>4</sup> روي بوتر، 2002، موجز تاريخ الجنون، ترجمة: ناصر مصطفى، الطبعة الأولى 2012، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ص 9.

هذه المحطات كان الجنون يخضع لمقاربة خاصة حسب المفاهيم السائدة، غير أن المشترك بين المحطات كلها كان هو عنصر التهميش والاقصاء.

### تفسير الجنون في التاريخ:

لقد ارتبط الجنون على مر تاريخه بمسار تطور الفكر، حيث اعتبرت الحضارات القديمة الجنون إشارة على سخط كائنات ميتافيزيقية، حيث رأى المصريون والآشوريون الكثير من الأمراض مصائب ترسل من السماء، واعتبرت الأساطير اليونانية الجنون ابتلاء من الآلهة، أما المعارف الشعبية، فقد ردت المرض إلى الأرواح الشريرة، والشفاء إلى إله الطب والشفاء إسكليبيوس.<sup>(1)</sup> لقد وضع المجانين في الحضارة البابلية وفي مصر القديمة، في معابد خصصت لأغراض استشفائية. ففي معبد مامفيس، على سبيل المثال، كان المجانين يقومون داخله بمجموعة من الطقوس، داخل أجواء من الشعائر الدينية، كما كانوا ينتظرون وصفات العلاج التي كان يملها الإله بنفسه على المرضى عن طريق الأحلام، ويتولى الكهنة الأطباء تفسيرها. وعموماً يمكن القول أن العصور القديمة نادراً ما فسرت الجنون بأسباب بعيدة عن القوى الفوق طبيعية، كما أنها نادراً ما عمدت إلى وسائل أخرى لعلاج الجنون، غير الوسائل السحرية والدينية. في اليونان كان ينظر إلى الجنون على أنه "يمثل في أغلب الأحيان عقاباً يبتلى به البشر الذين يقعون ضحية الجموح والغطرسة. فهكذا أصيب أوريستيس بالجنون بعد أن قتل والدته وعاقبته على فعلته آلهة العذاب إيرينيس، كما سلطت الآلهة الجنون على أوديسيوس الذي كان يحرق الرمال بدل الحقول".<sup>(2)</sup>

لقد استمر هذا النمط القائم على تفسير الجنون بأسباب سحرية في أوروبا طوال العصور الوسطى، حيث كان الناس يأتون من مختلف أنحاء أوروبا، لزيارة قديسين اشتهروا بشفاء الجنون، وقد كانت مدينة "جيل" أشهر الأماكن التي يقصدها الحجاج، ففي تلك المدينة وجد ضريح القديسة "ديمفنا". وهي أميرة إيرلندية عاشت في القرن السابع، هربت من ملاطفات أبيها لها، لكن الوحش وجدها فقطع رأسها، وجاءت الملائكة فثبتت رأسها على عنقها ودفنتها. ومنذ ذلك الحين أصبح قبرها ضريحاً ومزاراً يتضرع فيه المرضى قصد الشفاء. من بين القديسين الآخرين الذين اشتهروا بشفاء الجنون، القديس ماتورينوس، في بلدية لارشان في منطقة جاتينيه، حيث كان المستشفى الرئيسي بباريس يرسل المجانين لزيارته.<sup>(3)</sup>

لقد اتخذ الجنون، كما هو الأمر بالنسبة لكل ما كان محيراً للعقل في أوروبا، اتجاهاً آخر مع نهاية القرون الوسطى. لقد قام فلاسفة القرن السابع عشر بقطع العلاقة مع التصورات التي ردت الجنون إلى قوى خارقة، بل ورفضوا حتى ربطه بالعواطف. فقاموا عوضاً عن ذلك برده إلى اللاعقلانية.<sup>(4)</sup> وهكذا فإننا نجد ديكارت يعطي تعريفاً عقلانياً للوعي، وهو بذلك يجعل من الجنون مرضاً مثل سائر الأمراض، لا يقبل التفسير بشيء آخر خارج تفاعلات الجسد. لقد صار الجنون موضوعاً فلسفياً وطيبياً بامتياز.<sup>(5)</sup> ومعنى هذا، أن الجنون فقد طابعه المقدس منذ القرن السابع عشر، "فلم يعد يستضيفه سوى المستشفى، وفي هذا المكان أيضاً سنعثر عليه في القرن الثامن عشر. لقد ولدت حساسية جديدة تجاه الجنون، إنها ليست حساسية دينية، بل حساسية اجتماعية، فإذا كان المجنون له حضور مألوف داخل العالم الإنساني في القرون الوسطى، فلأنه كان ينظر إليه على أنه أتى من عالم آخر، أما الآن فإنه يمثل مشكلة بوليسية لها علاقة بنظام الأفراد في المدينة. لقد كان يستقبل قديماً لأنه

<sup>1</sup> روي بوتر، نفس المرجع السابق ص 47

<sup>2</sup> كلود كيتيل، 2009، تاريخ الجنون من العصور القديمة وحتى يومنا هذا، ترجمة: سارة رجائي ويوسف كريستينا وميمر فكري، الطبعة الأولى 2015، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، مصر، الصفحة 15 - 17 - 18.

<sup>3</sup> كلود كيتيل، نفس المرجع السابق، ص 61.

<sup>4</sup> روي بوتر، 2002، موجز تاريخ الجنون، ترجمة: ناصر مصطفى، الطبعة الأولى 2012، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الصفحة 73.

<sup>5</sup> روي بوتر، نفس المرجع السابق ص 71.

أت من عالم آخر، والآن يقصى لأن مصدره الأرض ولا شيء آخر<sup>(1)</sup>. لقد قام عصر الأنوار بتجريد الجنون من طابعه العجيب والسحري، ووضعه ضمن تصور عام للصحة والمرض.

### تاريخ تدير الجنون:

إن تاريخ الجنون هو تاريخ استبعاد واقصاء. فقد حرصت القوانين اليونانية والرومانية على تقييد حرية المجانين، فوضعت أوصياء عليهم لضمان عدم قيامهم بإتلاف الممتلكات، أو إلحاق الضرر بالآخرين. وقد كتب أفلاطون في "القوانين" يقول، أن المجنون يجب أن لا يكون حرا طليقا داخل المدينة، بل يجب أن يكون تحت حراسة عائلته. أما في أوروبا المسيحية، فقد كان المجانين بالأطفال، تحت مسؤولية العائلة، وغالبا ما كانوا يتعرضون للإهمال وسوء المعاملة، حيث كان يتم حجزهم في غرف ضيقة شبيهة بالزنزين، أو يرسلون إلى أماكن بعيدة، حيث يهيمون على وجوههم متسولين كسر الخبز<sup>(2)</sup>.

من بين مجموعة من الأساطيل التي تحدثت عنها الكتابات الروائية والهجائية في أوروبا، (كسفينة الأمراء، وسفينة السيدات الفضلات، وسفينة الصحة)، كانت سفينة الحمقى هي التي لها وجود حقيقي. لقد كان المجانين يطردون من المدينة نحو البراري، أو يشحنون في السفن مع بضائع تجار أو قافلة حجاج. وقد كانت هذه الممارسة سائدة بالخصوص في ألمانيا، حيث تم في نورينبورغ في النصف الأول من القرن الخامس عشر، طرد 31 مجنوناً من المدينة، وفي النصف الثاني من القرن، تم طرد 21 منهم. والأمر هنا لا يتعلق سوى بما تم احصاؤه من طرف سلطات البلدية<sup>(3)</sup>. "ولقد حدث أن تم جلد بعض المجانين أمام الملأ، لكي يتم تنظيم ما يشبه اللعب، حيث يطلق سراح المجنون وتتم مطاردته إلى أن يغادر المدينة والعصي تهوي على ظهره. إنها إشارة تدل على أن مغادرة المجانين للمدينة تدخل ضمن طقوس أخرى للإقصاء"<sup>(4)</sup>. تزخر المؤلفات الأدبية في العصور الوسطى بمثل هذه الأشكال من المطاردة، فترستان المجنون، على سبيل المثال، كان محطاً للسخرية والاستهزاء، حيث كان الجميع يرميه بالحجارة، وكان الرعاة يضربونه ويقصون شعره ويلطخونه بالرماد. لقد كان المجنون يتعرض للضرب المبرح، وتلقى عليه القمامة، وتطلق الكلاب عليه، ويستقبل بصيحات من الاستهزاء والسخرية عند دخوله المدينة أو القرية<sup>(5)</sup>.

لقد بدأ الإقصاء الرسمي للجنون بالتجلي بشكل أكثر وضوحاً، في الجزء الأخير من العصور الوسطى، حيث تم حجز المجانين في أماكن تولت السلطات الرسمية حراستها ورعايتها، ففي لندن تولى دير سانت ماري، الذي حمل اسم بيت لحم، ثم بيدلام، رعاية المجانين مع نهاية القرن الرابع عشر<sup>(6)</sup>. لقد عرف القرن السابع عشر انشاء عدد كبير من دور الحجز، وقد كان المجانين يوضعون داخل دور الحجز هذه دون خصوصية تميزهم عن غيرهم من السجناء، وفي داخل هذه الدور سيتعرف علم النفس المرضي للقرن التاسع عشر على المجانين. فمنذ القرن السابع عشر أصبح الحجز موطن الجنون الطبيعي<sup>(7)</sup>. لقد تمت شرعنة

<sup>1</sup> ميشيل فوكو، 1972، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة سعيد بنكراد، الطبعة الأولى 2006، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الصفحة 85.

<sup>2</sup> روي بوتز، 2002، موجز تاريخ الجنون، ترجمة: ناصر مصطفى، الطبعة الأولى 2012، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الصفحة 109-110.

<sup>3</sup> ميشيل فوكو، 1972، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة سعيد بنكراد، الطبع الأولى 2006، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الصفحة 29.

<sup>4</sup> ميشيل فوكو، نفس المرجع السابق، ص 32.

<sup>5</sup> كلود كيتيل، 2009، تاريخ الجنون من العصور القديمة وحتى يومنا هذا، ترجمة: سارة رجائي ويوسف كريستينا وسمير فكري، الطبعة الأولى 2015، مؤسسة هندواي للتعليم والثقافة، مصر، الصفحة 75.

<sup>6</sup> روي بوتز، 2002، موجز تاريخ الجنون، ترجمة: ناصر مصطفى، الطبعة الأولى 2012، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الصفحة 110.

<sup>7</sup> ميشيل فوكو، 1972، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة سعيد بنكراد، الطبع الأولى 2006، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الصفحة 70.

اعتقال المجانين بشكل تام عندما تم نعتهم "بالمريض العقليين"، فتم اقصاؤهم وعزلهم بشكل رسمي في دور الحجز.<sup>(1)</sup> لقد خرج الجنون من دائرة الذين لهم الحق في الصدقة وأصبح مع الفقر والبطالة، تجليا من تجليات الجدل المحايط للدول.<sup>(2)</sup> وهكذا فإنه يمكن القول أن الاقصاء ظل ملازما لتاريخ الجنون، وذلك في توافق مع أنماط التفسير السائدة، ليصل في العصر الحديث إلى مرحلة أخرى حيث صار مستندا إلى مفاهيم علمية وطبعية.

إن تاريخ الجنون هو في ارتباط وثيق بتاريخ الفكر. ومعنى ذلك، أن تصور الإنسان لمهية الجنون هو تابع لتصوراته حول الطبيعة والكون. ففي مرحلة معينة كان يتم تفسير الجنون بالأرواح الشريرة وعقاب الآلهة، وكان يتم تدييره والتعامل معه حسب هذه الرؤية، إذ كان المجانين يوضعون في معابد، داخل جو من الطقوس الدينية والسحرية، طمعا في استجلاب عطف الآلهة، وطرده الشياطين والأرواح الشريرة. وقد استمر هذا النمط من التفسير إلى غاية القرن السابع عشر تقريبا، حيث اتخذ الجنون منحنى آخر، إذ لم يعد يفسر بأسباب سحرية، وإنما أصبح مرده إلى أسباب عضوية ونفسية، ودخل ضمن التصور الجديد للكون والطبيعة القائم على العلم والعقلانية، كما دخل أيضا ضمن شكل جديد من الاقصاء.

#### النكات كمدخل لفهم وضع الجنون داخل المجتمع المغربي:

تعد النكتة إحدى المنتوجات الثقافية الشفهية البالغة الأهمية بالنسبة للبحث السوسولوجي والأنثروبولوجي، حيث أنها تشكل مدخلا مهما لفهم المجتمع، وذلك لكونها قادرة على التعبير عن مكبوتات اجتماعية عميقة لا يستطيع الأفراد التلفظ بها علانية، وتستمد قدرتها هذه في تجاوز الرقابة الاجتماعية من صفتها الأساسية والتي هي اللاجدية. وتتناول النكتة جميع القضايا الاجتماعية وكذا الشؤون اليومية، كما تتمتع بقدرة كبيرة على مسايرة المستجدات والتطورات، فنجد مثلا نكتا حول المخدرات، المناسبات والأعياد، الجنس، الخرافات والأساطير، العلاقات الاجتماعية، السياسة، الرياضة، المدرسة....، وترتكز في قيامها بوظيفتها على عنصر الإهراء (تجاوز التوقعات) بشكل أساسي، بحيث تصاغ في شكل قصة قصيرة، تبتدئ في غالب الأحيان بشكل تبدو فيه الأحداث عادية ومألوفة، لتنتهي بشكل غريب تماما يثير الدهشة، ويقدر ما تكون النهاية غير متوقعة تكون جودة النكتة أحسن.

إن الذي يهمننا في النكتة هو أنها وإن ادعت اللاجدية، فهي مستوحاة من أحداث واقعية، أو على الأقل تتضمن تصورات اجتماعية جدية، ومثال على ذلك النكات المشهورة التي تقابل بين البادية والمدينة، فهي تتضمن أحداثا مبالغ فيها بشكل لا يجعلنا نصدق أن شيئا منها قد يحصل حقا، إلا أن ذلك لا يلغي احتوائها على قدر من الواقعية، إذ نجد أن هذه النكتة على اختلاف صياغاتها، تنطلق من فكرة لها وجود حقيقي داخل المجتمع، حول البدوي والحضري (العروبي والمديني)، على اعتبار أن أحدهما ساذج وجاهل، إلى الحد الذي يبدو فيه بليدا، بالأدوات العصرية، والآخر مرهف ولين بشكل لا يبدو فيه قادرا على الحفاظ على بقائه خارج المدينة، وغالبا ما تتمحور مجريات الأحداث داخل هذا النوع من النكتة حول قصة خروج أحدهما من محيطه الاجتماعي ومقابلته لعالم غريب عنه، حيث غالبا ما يتعرض للأذى أو الاحراج والسخرية. ويمكن القول أن الأمر نفسه ينطبق على الجنون، فالنكتة المصاغة حوله تذهب في المبالغة إلى حد أبعد بكثير من الحدود التي تصل إليها في مواضيع أخرى، لكن ذلك لا ينفي ارتباطها بتصورات معينة ذات وجود فعلي في المخيال الاجتماعي حول المجنون.

#### أ- مصحة المجانين (سبيطار الحماق):

تعد نكات مصحة المجانين أشهر النكات تداولها في المجتمع المغربي، ومع ذلك فإننا، لم نستطع الحصول من خلال البحث في

<sup>1</sup> ميشيل فوكو، نفس المرجع، ص 141.

<sup>2</sup> ميشيل فوكو، نفس المرجع، ص 86.

كثير من المواقع الالكترونية سوى على عينة من اثنين وخمسين نكتة، وهي تقريبا أقصى عدد يمكن الحصول عليه. فالظاهر أن هذه النكات قد تراجعت ولم تعد متداولة، وحل محلها نكات المتعاطين للحشيش (لمكيفين). وقد يرجع ذلك ربما إلى ثبات تصورات المجتمع حول الجنون، فهي لم تتغير حتى تسايها النكات، كما لو أن المخيلة الاجتماعية المبدعة للنكتة استنفذت كل أفكارها حول المجنون، ولم يعد هناك ما يقال حوله. وقد يرجع الأمر أيضا إلى تراجع الاهتمام بالجنون، خصوصا مع انتشار القصص التي تحكي تجارب واقعية حول تعاطي المخدرات حكاها المجربون أنفسهم، وتتضمن هذه القصص ما يضاهاى النكتة في غرابة أحداثها، كما تتضمن أيضا نسبة من الجنون، وهو ما أهلها لأخذ المكان في النكات.

إن أول ما يثير الانتباه في نكات المجانين هو الصياغة العامة التي تصاغ بها، حيث تبتدئ بعبارة: "في مصحة المجانين"، يلها الحدث الأساسي الذي غالبا ما يكون عبارة عن اختبار، يقوم به الطبيب للمجانين من أجل اطلاق سراح الذين تماثلوا للشفاء، ويكون الاختبار عبارة عن نموذج من الأوضاع أو الأدوات التي تتعامل معها بشكل يومي، أما النتيجة النهائية فتكون دائما هي فشل الجميع، وذلك رغم بساطة الاختبار. وقد يحصل أحيانا أن يبدو للطبيب أن هناك استثناء داخل تلك الفوضى، حيث يظهر أن أحد المجانين قد تمكن من معرفة الشيء المقدم له وأوشك على مغادرة المصحة، لكن يتبين بعد التحقق أنه لا يختلف عن غيره، وأن تجربته تلك الأكثر اقترابا من الصواب، هي نفسها تأكيد على استحالة الخروج. إن الأمر هو شبيهه بعقوبة سيزيف الذي يدحرج الصخرة إلى قمة الجبل، لتسقط منه وتتدحرج إلى السفح، فيعاود الرجوع إليها ويتكرر نفس المشهد مرارا وتكرار إلى ما لا نهاية. ولهذا دلالات عديدة غاية في الأهمية، فالنكت التي لم يرد فيها ذكر المجانين مقترنا بالمصحة والطبيب ليست سوى اثنا عشر من بين اثنين وخمسين نكتة، وداخل هذه النسبة القليلة نجد أن المجانين وإن لم يكونوا محجوزين، فهم داخل مجال مراقب من طرف الطبيب (في الشاطئ مثلا)، أو محبوسين بشكل غير مباشر في مجال مغلق لا يسمح بالفرار (كالطائرة)، وهو ما يشير في حقيقة الأمر إلى أن المجتمع لديه تمثل راسخ يفيد بأن المصحة هو المكان الطبيعي للمجنون، وليس ذلك لاعتقاد في قدرته العلاجية وإنما فقط باعتباره مكانا مغلقا ومراقبا. فمحاولات الهرب، وحماس المجنون للاختبار الذي يعد الخروج مكافأته، لا يعني سوى شيء واحد، وهو أن الأمر يتعلق بسجن في نهاية المطاف، ويتأكد هذا بشكل أكثر وضوحا عندما نعلم أن الدواء لم يرد بصفة نهائية تقريبا في النكت، إضافة إلى عدم شفاء أي مريض، فلا أحد يتجاوز الاختبار أبدا، ويحيل هذا الأمر أيضا إلى يأس المجتمع من امكانية شفاء المجنون.

هناك بعض النكات التي ذكر فيها المجنون خارج القيود، لكن ذلك لم يمنع أن يوجد في شكل آخر من الاقصاء، إذ نجد المجنون في هذه النكات القليلة معزولا عن الأسوياء ولا يتفاعل سوى مع غيره من المجانين، فتكون النكتة عبارة عن جدال أو حوار أو محاولة لصنع شيء ما لكن دون تدخل من شخص عاقل، إنه مشهد حيث يظهر المجنون وحده، في شكل يبدو فيه هائما وبعيدا بشكل لا حدود له عن الحقيقة. ويتضمن هذا المشهد فكرتين أساسيتين، احدهما تفيد بعدم امكانية الاختلاط بين المجنون والسوي، والأخرى تفيد بضرورة وجود المجنون في المصحة ووجود الطبيب قريبا منه.

#### ب- نمط تفكير المجانين حسب النكات:

إن ما يشكل قوة نكات مصحة المجانين، وقدرتها على القيام بوظيفتها، هو ابرازها لنمط من التفكير والسلوك مختلفين تماما عما نشهده كل يوم، فالاختبار الذي يوضع أمام المجنون بسيط جدا من منظور النكتة والإنسان غير المجنون، وذلك لأنه مقتطف من الحياة اليومية ولا يحتاج أي جهد أو تفكير، ومع ذلك، فإن ما يحدث هو انفجار لعدد لا حصر له من التجارب التي تذهب في جميع الاتجاهات ما عدى الصواب، (كما تعبر عن ذلك الجملة المتكررة في النكات: كل واحد أش كيدير)، وفي داخل هذه التجربة تبرز النكتة طريقة تفكير المجنون وعلاقته المضطربة بالواقع، حيث يظهر في كثير من الأحيان أنه غير قادر على التفكير بمنطق حساب التكلفة والعائد، فقد يقوم بفعل يهدد حياته من أجل الحصول على شيء لا يستحق ذلك (كأن

يعترض سيارة من أجل الحصول على حلوى)، وهو غير قادر أيضا على تحديد الحل الأكثر سهولة ونجاعة في حالة وضع-مشكلة، كما أنه غير قادر على تفكيك الوحدات، فهو ينظر إلى الأوضاع ليس كبناء وإنما كوحدة لا تقبل التقسيم، فإذا ما طلب من مجموعة من المجانين تخطي مئة سور مثلا وشعروا بالتعب في السور التاسع والتسعين، فإنهم سيرجعون، والأمر نفسه سيحدث إذا وضعوا خطة للهروب تتضمن كسر الباب، حيث سيرجعون إذا وجدوا الباب مفتوحا (وهذه نكات موجودة فعلا)، وتنطبق هذه المسألة حتى على العناصر المادية، وذلك أن معرفة المجنون بالترابط والتركيب بين الأشياء المادية ضعيفة جدا، فهي لا تتشكل من عناصر وإنما هي عنصر واحد، وبالتالي فالمسبح لا يتشكل من حوض وماء وإنما هو مسبح وحسب، ووجود الماء أو عدمه لا يغير شيئا. وتظهر النكات أيضا أن المجنون لا يفرق بين البسيط والمعقد، فالأمور هي على نفس المستوى من البساطة (الدراجة كالسيارة وكالطائرة)، إضافة إلى أنه لا يدرك تعدد معاني الكلمات ويستخدم الكلمة في غير محلها، فهو يوظف الكلمة بغير المعنى الذي يجب أن توظف فيه في اللحظة التي يستخدمها، كما يفهم بعض العبارات المتداولة بشكل حرفي، ويوظفها بصيغتها الحرفية، (مثلا عبارة طلع لي الدم أو قطع الطريق).

#### ت- ادراك المجنون لذاته وللواقع:

يعتمد نجاح النكتة بشكل كبير على قدرتها في إبراز اتساع الشرح بين المجنون الواقع، فهو غير قادر حتى على التمييز بين الجماد والنبات والحيوان والإنسان، وادراك ذاته هو جزء من هذه الفوضى، فأحيانا قد يتصور نفسه حيوانا أو حتى نباتا أو جمادا، وقد يحدث أحيانا أخرى أن يتقمص دورا بشكل ما، لكن سرعان ما يصبح ذلك الدور حقيقة بالنسبة إليه، أو أن يعتقد أن لديه قدرة معينة، وذلك أن تصوره للواقعي هش جدا، وهو ما يجعله غير قادر على تمييزه ضمن غيره (كالمرسوم مثلا)، وينضاف إلى ذلك أفكاره البالغة السطحية وغير المكتملة حول الأمور اليومية، إذ يبدو كما لو أنه حكي له عنها فقط، فهو جاهل تماما بوظائف الأشياء، وفي كل اختبار، يبدو أنه يجرب الشيء المعطى له للمرة الأولى، وفي جميع تصرفاته يظهر أنه لا يدري الغاية من بعض الأشياء وإنما يقوم بها فقط كما رأى الأسوياء يفعلون، فقد يقوم مثلا بوضع درهم ورفع سيجارة إذا وجدها في الأرض (كما ذكر في إحدى النكات). وتجدر الإشارة أيضا إلى أنه لا يدرك الخطر، فهو يشكل خطرا على نفسه وعلى غيره أيضا، فلا طالما تم تداول نكات سقوط المجنون من ارتفاع ما، أو تعامله مع حيوان أو إنسان كما لو كان ثوبا، ويرد في بعض النكات أن المجنون غير قادر على التمييز بين خصائص الأشياء المادية (السائل، الصلب، الحار، الرطب...)، كما أنه غير قادر على التمييز بين شيئين بينها بعض أوجه الشبه (الطائرة هي بيت لكونها مكان مغلق به نوافذ). زيادة على ذلك، تظهر النكات أن المجنون على أنه خارج التفاعلات الاجتماعية، بحيث أنه قد يتوقع من بعض الأفراد أفعالا لا يمكن أن تصدر منهم، كما أنه جريء ولا يشعر بالإحراج، وقد يطلب من غيره بعض الأمور التي لا يمكن طلبها، كما لا يتردد في طرح الأسئلة مهما كانت طبيعتها. وفي النهاية، يبقى أعم ما يمكن قوله في هذا الصدد، هو أن المجنون -حسب النكات- غير قادر على التمييز بين الممكن والمستحيل.

تضمنت النكات مجموعة من العناصر المهمة التي لا بد من الإشارة إليها، ويأتي على رأسها علاقة الجنون بالجنس، فالاثنين لم يردا معا بصفة نهائية تقريبا في العينة التي تناولناها، كما لو أن المجنون كائن لاجنسي، وكذلك علاقته بالدين فهي مثلها مثل علاقته بالجنس منقطعة تماما. وتجدر الإشارة أيضا إلى أنه من النادر جدا أن نجد نكتة تتضمن مجنونة أنثى، وفي عينتنا هناك نكتة واحدة وردت فيها مجنونة أنثى، لكن خارج عالم الجنون المتميز بتجاربه التي لا تحصى. إذ لا توجد أي نكتة ورد فيها مصحة مجانين إناث، وقد يرجع ذلك ربما إلى أن النكات ترى أن المجنون لا جنس له، لاسيما أنه لا يمكن إيجاد نكت تتضمن الجنون والجنس. وتجدر الإشارة أيضا إلى أنه لا وجود لإشارات أو عبارات تشير إلى سن المجنون الذي تتحدث عنه النكتة، حيث يبدو المجانين كما لو أنهم في سن واحدة لا تدخل ضمن ذلك التقسيم الذي نعرفه (صبي، شباب، شيخوخة). ومن بين

الأمر التي لا نجد لها وجودا في النكات هناك عائلات المجانين، خاصة أولئك الموجودين في المصححة. فلا أحد يزورهم أو يسأل عنهم، كما لو أننا أمام أشخاص قادمين من عالم آخر لا أصل لهم.

#### استنتاج:

بناء على ما سبق يمكن القول، -أو على الأقل الافتراض- أن ارتباط الجنون بالأماكن المغلقة موجود وراسخ في الثقافة المغربية، فالنكات في معظمها تتحدث عن المجانين داخل المصححة، فهي من جهة، لم تستطع تصور مكان آخر يجمع المجانين، ومن جهة أخرى، لم تستطع تصور مكان للمجنون داخل المجتمع، وبالتالي فقد ذكر المجانين في أغلب النكات مقرونين بالحجز والمراقبة والأسوار، وقد كان شرط خروجهم من كل هذا، هو تجاوز الاختبار. وقد كانت النكات متشددة وقاسية في هذا الإطار، حيث حرصت على عدم تجاوز أي مجنون له. وتجدر الإشارة في هذا الصدد أيضا إلى أن النكات لم تتحدث عن أي حجز آخر غير المصححة، أي أنها لم تتحدث عن المجنون داخل مكان ذي طابع ديني أو أي مكان آخر يعتقد في قدرته على العلاج، وهو ما يمكن عده إشارة أخرى على عدم إيمان النكتة في قدرة المصححة على علاج المجنون، وأنه حسب تصورهما، هو مجرد مكان للاحتجاز. وقد كان بوسعنا القول أن النكات هي في العمق تسخر من المصححة والطب العقلي، لكننا نجد أنه حتى في النكات القليلة التي تحدثت عن المجانين -كما أشرنا إلى ذلك سابقا- خارج المصححة، هناك حجز، ولو من نوع آخر. حيث أننا لا نجد تقريبا أي أثر للتفاعل بين مجنون وغيره، كما لا نجد كثيرا من الصفات التي تشير إلى إنسانيته، إذ نجد أنه مقصي من الزمن والسن، وكذلك الدين، ومقصي أيضا من الجنس والعائلة، والأصل.

#### خاتمة:

إن الأفكار الواردة في النكات المغربية حول المجانين هي أكثر من مجرد تصورات مبنية حول المجنون، فهي أساس تستند عليه النكتة في تبرير وضع المجنون داخل مصحة المجانين (سبيطار الحماق)، والتي تبدو مطابقة لوضع السجين. فالمصححة هي تجسيد لفكرة المجتمع حول المجنون، وهي أيضا تجسيد لفكرة المجتمع حول الحل والكيفية الأمثل لتدبير الجنون. وذلك أننا يجب ألا ننكر أن التصورات التي نسجت حول المجانين في أغلب النكات، ليست غريبة عن المجتمع، فالمخيلة التي تبدع نكتة ما، هي ليست معزولة عن المجتمع، فهي حاملة لمعتقداته وقيمه وتصورات، وبالتالي فعندما تصور النكات المجنون على أنه دائما في مكان مغلق ومراقب، فإن ذلك يعني أن لهذا التصور وجود فعلي في ذهننا.

#### قائمة المراجع:

1. روي بوتير، 2002، موجز تاريخ الجنون، ترجمة: ناصر مصطفى، الطبعة الأولى 2012، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث.
2. ميشيل فوكو، 1972، تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي، ترجمة سعيد بنكراد، الطبع الأولى 2006، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.
3. كلود كيتيل، 2009، تاريخ الجنون من العصور القديمة وحتى يومنا هذا، ترجمة: سارة رجائي ويوسف كريستينا وسمير فكري، الطبعة الأولى 2015، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، مصر.

## بعض الفنيات المعرفية الخاصة بالعلاج المعرفي السلوكي

أ. ناجية دايلي/جامعة محمد لامين دباغين، سطيف 2

### ملخص:

ظهرت مجموعة من طرق العلاج في إطار العلاج المعرفي السلوكي ، تقوم على أساس إعادة البنية المعرفية، و على افتراض أن الاضطرابات الانفعالية إنما هي نتيجة لأنماط من التفكير غير التكيفي، و يتسم هذا المنحنى العلاجي بأنه يتعامل مع الاضطرابات النفسية المختلفة من منظور ثلاثي ، حيث يتناول المكونات المعرفية و الإنفعالية و السلوكية، مستخدما في ذلك إستراتيجيات متنوعة تهدف إلى مساعدة الأفراد في فحص، و فهم محتوى تفكيرهم، ثم بعد ذلك يتم تشجيعهم على إبعاد أنفسهم عن الفكرة عن طريق رؤيتها كفرض يمكن اختبار صحته.

و يضم العلاج المعرفي السلوكي عددا من الفنيات العلاجية النوعية، التي ثبت نجاحها في التعامل مع السلوك البشري، تعمل على تعديل الانتباه، و تعديل الموقف لتغيير الأحداث المثيرة، والأساليب العلاجية التي يستخدمها المعالج المعرفي أثناء العلاج، تتنوع بين أساليب سلوكية، و أساليب معرفية، و في هذا المقال سنسلط الضوء على الفنيات المعرفية.

الكلمات المفتاحية: فنيات معرفية، علاج معرفي سلوكي.

### مقدمة:

نعيش اليوم عصرا تفوق فيه الإنسان على نفسه محققا أعز أمنيه من تقدم حضاري و تكنولوجي، و لكنه في المقابل لم يستطع أن يحقق ما هيته من خلال تلك المظاهر المختلفة من التقدم، ظهر ذلك كله في تلك الاضطرابات النفسية التي تغشى شخصيته و سلوكه، و معنى ذلك أن هناك هوة هائلة أو فجوة كبيرة بين التقدم المادي و الجانب المعنوي، مما يعني أن التغيير الإجتماعي و الإقتصادي السريع الذي طرأ على المجتمع كان تأثيره خطير على الأفراد، فزادت بذلك المشاكل النفسية للفرد و زادت معها الاضطرابات النفسية، لذا كان لابد لعلم النفس أن يواكب تلك التغيرات السريعة المتلاحقة في محاولة لإيجاد حلول لتلك المشاكل، و أن يسهم في تشخيص و علاج تلك الاضطرابات الإنفعالية و السلوكية، و من هنا جاءت الحاجة الماسة للعلاج المعرفي السلوكي.

### \* الفنيات المعرفية للعلاج المعرفي السلوكي:

إن الأساليب المعرفية تهدف إلى تقديم مداخل للتنظيم المعرفي للمفحوص، فأسلوب الاستفسار، و أسلوب تحديد الأفكار اللامنطقية، و أساليب التحقق التجريبي من صحة القواعد، التي تستخدم لمساعدة كل من المعالج و المفحوص في فهم كيفية بناء الفرد للواقع من حوله جزء أساسي من العلاج، لذا خصصناها بالدراسة و البحث

لما لها من أهمية كبيرة في مجال العلاج المعرفي السلوكي ، و فيما يلي بعض الأساليب المعرفية:

## 1- أحاديث الذات:

تعتبر هذه الفنية من الفنيات المهمة للتخلص من المشاكل التي يتعرض لها الفرد، إذ تقوم على فرضية أن الفرد يُمكنه مواجهة المشاكل، و الصعوبات التي تواجهه في هذه الحياة، إذا إستطاع التخلص من الأحاديث الذاتية السلبية، و الإنهزامية التي يقولها لنفسه عن نفسه إزاء تعرضه للمواقف المؤلمة، و إستبدالها بأحاديث ذاتية إيجابية.

و تشجيع الفرد على تحدي و مواجهة الأحاديث الذاتية السلبية، و إعادة صياغتها بطريقة إيجابية تعتبر من الفنيات المهمة للتخلص من المشاكل التي يتعرض لها.<sup>1</sup>

و يقوم بتشجيع الفرد على هذه التقنية "المعالج"، و ذلك بتدريبه عليها في الجلسات العلاجية، و كذا إعطائه بعض الواجبات المنزلية إن إقتضى الأمر ذلك .

و تتوقف فاعلية هذه الفنية على إقتناع الفرد بأن ما يُردده من أحاديث سلبية يؤدي إلى تفاقم حدة القلق و الخوف و هزيمة الذات.<sup>2</sup>

و هذا يعني أن الطريقة التي نتحدث بها إلى أنفسنا تساهم بقدر كبير في عملية إدراكنا لمواقف الحياة المختلفة حسب وجهة نظر الإتجاه المعرفي، لذا علينا أن نبعد الأحاديث السلبية من مساحة شعورنا، قبل أن يُصدقها عقلنا و تتبلور إلى سلوكيات تُنغص حياتنا .

- يقترح " ميكنبوم" منهجا يقوم على تعديل محتوى ما يقوله الفرد لنفسه في المواقف التي يراها مهددة له، و فق ثلاث قواعد أساسية، و تتمثل فيما يلي:

\* القاعدة الأولى: هي أن يُقنع الفرد نفسه أن الخوف، و الهلع الذي يمتلكه عند التحدث إلى نفسه بطريقة مهولة أسوء بكثير من الحدث الفعلي.

\* القاعدة الثانية: أن يُقنع الفرد نفسه أن الموقف الذي يُحدث هلعه سوف ينتهي حالا.

\* القاعدة الثالثة: أن يقول الفرد لنفسه أن التخلص من كل المشاعر السلبية دُفعة واحدة أمر صعب، لذا لا بد أن يقبل بعض التوتر و القلق مؤقتا.<sup>3</sup>

إن القواعد الثلاث التي إقترحها "ميكنبوم" تدخل ضمن إطار التعليمات الذاتية للتحصين من التوتر، و لها دور فعال في تحويل مسار الحديث الذاتي السلبي إلى مسار إيجابي يضمن للفرد الراحة و الإطمئنان.

## 2- الحوار السقراطي:

يرى سقراط أن النفس قادرة بطبيعتها على اكتشاف الحقائق، و معرفة المواضيع و تعلم الأشياء، لكن ظروف الحياة العملية و إكراهاتها، و ما ورثه الناس من طقوس و عادات و أساطير، جعلت النفس تفقد صفاءها، و تكون عرضة للصدىء.

<sup>1</sup> حدة يوسف، فاعلية برنامج إرشادي ( معرفي- سلوكي) في تنمية بعض المتغيرات الواقية من الضغوط النفسية لدى طلبة الجامعة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الإرشاد النفسي، جامعة باتنة، إشراف الأستاذة الدكتورة: نادية بعين، 2011-2012، ص 328.

<sup>2</sup> طه عبد العظيم حسين، العلاج النفسي المعرفي، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة و النشر، الإسكندرية، 2007، ص 165.

<sup>3</sup> أسماء بوعود، فاعلية برنامج علاجي إثنو نفسي من المنظور الإسلامي للتكفل ببعض الأمراض العصابية (القلق، الإكتئاب العصبي)، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه علوم في علم النفس العيادي، جامعة سطيف، إشراف الأستاذة الدكتورة نادية بعين، 2015، ص 130.

و الحوار السقراطي هو وسيلة تعليمية تتميز بالبساطة وتسعى إلى توليد الحقائق، و يعتبر نموذجا تواصليا لتحسين الأفكار و تصحيحها، و طريقة فلسفية لتفادي الوعظ و الإرشاد و المعرفة الجاهزة، و أسلوبا للتحكم في انفعالاتنا و أهوائنا، و التسلح بالعقل و الحكمة و المعرفة الموضوعية، و بالكيفية ذاتها.<sup>1</sup>

و "الحوار السقراطي" من الطرق التي تساعد في تعديل المعتقدات المضطربة، و الذي قد يتضمن تساؤلات حول:

- ما الذي يجعل الافتراض غير منطقي؟.

- كيف يكون هذا الافتراض غير مفيد؟.

- من أين يأتي الافتراض؟ و كيف ارتقى مع الفرد؟

- ما البديل الأكثر اعتدالا، الذي يمنح بعض المميزات للافتراض المضطرب، و لا يظهر عيوبه؟<sup>2</sup>

- ما هي الدلائل على ما تعتقده؟

- كيف يمكن أن تفسر الوضعية أيضا؟

- إذا كان صحيحا، ما ذا يعني لك؟

و يسمى أيضا الحوار السقراطي بـ "الإكتشاف الموجه"، بحيث يساعد المفحوص على تغيير معتقداته و افتراضاته غير المتوافقة مع المواقف، فيوجه المعالج المفحوص إلى اكتشاف طرق جديدة للتفكير و تبنيها، و تساعد هذه الأسئلة المعالج على مراجعة أفكاره السلبية، و كل سؤال يقدم طريقة للبحث بشكل أعمق في المعتقدات السلبية و استحضار المزيد من الأفكار الموضوعية.<sup>3</sup>

يبدأ المعالج باستخدام الأسئلة السقراطية مع بداية العملية العلاجية، و يستمر في ذلك طيلة الجلسات حتى النهاية، و إلى جانب هذه الفنية الأساسية يطرح المعالج أسئلة مباشرة لجمع معلومات حول تكرار و شدة وديمومة المشكلة، و تدخلات أخرى مثل: الإيضاح و التغذية الراجعة، و تثقيف المفحوص حول النموذج المعرفي، و حول ما يفيد في التغلب على مشكلته.<sup>4</sup> لكن نجاح هذه التقنية يتوقف على ما لدى المعالج من مهارة في تحليل المشكل الذي يعترض المفحوص، لتفعيل آلية التبصر لديه حتى يتمكن من معالجة الموقف بطريقة منطقية و واقعية.

3- السهم المنحدر أو السهم المتجه نحو الأسفل:

<sup>1</sup> إسماعيل علوي، بن عيسى زغبوش، العلاج النفسي المعرفي، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، 2009، ص 10.

<sup>2</sup> زيزي السيد إبراهيم، العلاج المعرفي للإكتئاب، دار غريب للنشر و التوزيع، القاهرة، 2006. ص 205، ص 206.

<sup>3</sup> إسماعيل علوي، بن عيسى زغبوش، مرجع سابق، ص 93.

<sup>4</sup> بوجان نادية، بناء برنامج إرشادي معرفي سلوكي لتخفيف الضغط النفسي لدى الأستاذة الجامعية المتزوجة، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه علوم في علم النفس إرشاد و توجيه، جامعة محمد خيضر بسكرة، إشراف الأستاذ الدكتور جابر نصر الدين، 2015، ص 187.

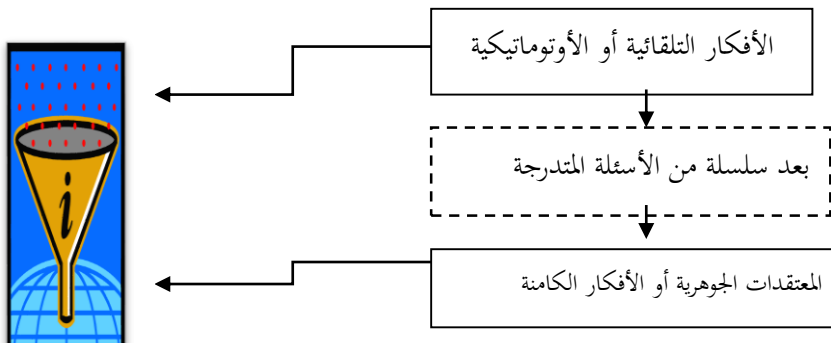
تسمح هذه الفنية بتحديد المعتقدات القاعدية عن طريق استخدام سلسلة من الأسئلة فانطلاقا من فكرة أوتوماتيكية، ينزل المعالج عن طريق طرح أسئلة متسلسلة إلى غاية التوصل إلى المعتقد الرئيسي للفكرة، حيث يطلب المعالج من العميل إخباره عن النتائج المترتبة عن كل فكرة، و ما الذي يمكن أن تحرضه عليه<sup>1</sup>.

و يتضمن هذا الأسلوب تحديد الموقف المشكل ، و الانفعالات المكدره، و الأفكار السلبية التي يخبرها الفرد داخل الموقف، و بدلا من تحدي الأفكار نفسها فإن المعالج يوجه للمفحوص سؤالاً كالاتي: "نفترض أن ذلك حقيقي فعلا، فماذا يعني بالنسبة لك؟ أو ما ذا يكون حسب رأيك؟ ما الذي سيحدث إذن؟ إذا كان الأمر كذلك فما أسوء شيء في ذلك؟

و الهدف من توجيه هذه الأسئلة ، الوصول إلى استنتاج يعتبر مادة مثمرة تستخدم للعلاج المعرفي، و بعد جلسات من مناقشة الأفكار الذاتية و التدريب على مناقشتها، فإن المعالج و المفحوص سوف يلاحظان نوعا من الاتساق في أنواع المعتقدات المتضمنة في الاضطراب الانفعالي لدى المفحوص، هذا الاتساق لن يوجد في المستوى السطحي بل أنه يقع في مستوى المعاني الشخصية أو المخططات<sup>2</sup>.

و طبقا لهذه التقنية يُدون المعالج تفكير المريض في قمة الصفحة، و عندئذ يرسم سهم هابط لسلسلة الأفكار و الأحداث التي تظهر ضمنا من خلال التفكير، فهذه الطريقة مفيدة في استثارة المخارف الكامنة لدى المريض و التي لا يكون على وعي بها، و الإعتقادات الكامنة لديه، و تحقيق فهم أعمق لما تعانيه الأفكار التلقائية، و لتحقيق الدليل الذي يؤيد أو يعارض الإعتقادات و الأفكار الخاطئة لدى المريض ، أي أنها تُستخدم في استكشاف الإعتقادات الجوهرية التي تكمن وراء الأفكار التلقائية لدى المريض<sup>3</sup>.

ما يمكن أن نلاحظه حسب إعتقادي أن هذه التقنية تتشابه إلى حد ما مع تقنية الحوار السقراطي، فكلاهما يعتمد على طريقة طرح الأسئلة للتوصل إلى نتيجة منطقية، لمساعدة المفحوص التخلي على الأفكار السلبية التي تُنغص حياته، و لكن في تقنية السهم المنحدر يتخذ تدرج الأسئلة شكل القمع، بمعنى إنتقال الفاحص في طرح الأسئلة على المفحوص من العام إلى الخاص للكشف عن المعتقدات الجوهرية و الحقيقية للأفكار التلقائية السلبية للعميل، كما هو موضح في الشكل الآتي الذي اقترحه الباحثة:



<sup>1</sup> بن عبد الله فوزية، دراسة فعالية علاج معرفي سلوكي مقترح في خفض مستوى القلق العام لدى عينة من الراشدين، لنيل الدكتوراه في علم النفس جامعة سطيف2، إشراف الأستاذ الدكتور محمد الصغير شرقي، 2016، ص 98.

<sup>2</sup> زيزي السيد إبراهيم، مرجع سابق، ص 205، ص 206.

<sup>3</sup> طه عبد العظيم حسين، مرجع سابق، ص 264، 265.

#### شكل يوضح طريقة الوصول إلى المعتقدات الجوهرية (من إعداد الباحثة)

إن الصيغة المتدرجة في طرح الأسئلة على المفحوص تجعله لا شعورياً يُبجح للفاحص عن بعض الأمور التي لم يكن يريد التحدث عنها، فبتمكن الفاحص من هذه المهارة فإنه سيصل لا محالة إلى أغوار نفس المفحوص الكامنة في اللاشعور، و يستطيع بذلك تحديد أسباب الأفكار التلقائية السلبية.

#### 4- المحاضرة والمناقشة الجماعية:

تعتمد هذه الفنية على إلقاء محاضرة من الفاحص محددة المحتوى، واضحة الهدف سهلة العبارة مقيدة الزمن متسلسلة العرض، تتضمن المشكلات المشتركة لأعضاء المجموعة يتم طرحها في شكل نشاط جماعي بأسلوب يستثير أعضاء المجموعة للمشاركة و التفاعل الإيجابي، يتبادل فيه أعضاء المجموعة الأدوار (مستمع، معلق، معترض، متعاطف) و يتداولون الآراء و المناقشات، و يكتسبون فيها مزيداً من المعارف و الأفكار بهدف تغيير الاتجاهات، و تعديل الأفكار و المشاعر، و السلوك نحو الذات و الآخرين<sup>1</sup>.

فالمحاضرات و المناقشات الجماعية أسلوب من أساليب الإرشاد الجماعي التعليمي، حيث يغلب فيها المناخ شبه العلمي، ويكون فيها عنصر التعليم وإعادة التعليم دوراً رئيسياً، حيث يعتمد أساساً على إلقاء محاضرات سهلة على المفحوصين يتخللها ويليها مناقشات يكون المرشد النفسي محورياً لها، و يتبادل فيها أعضاء المجموعة الإرشادية الآراء و المناقشات و يكتسبون فيها مزيداً من المعارف و الأفكار بهدف تغيير الاتجاهات، و تعديل الأفكار، و المشاعر، و السلوك، نحو الذات و نحو الآخرين، و نحو العالم الخارجي.

كما تؤدي المناقشة إلى رفع ثقة الأفراد في أنفسهم عندما يشعرون أن الآخرين يطلبون رأيهم و مشورتهم، و تساهم في تدريبهم على التفكير الموضوعي في المشكلات، و تبادل المعلومات و الخبرات، و التشجيع المتبادل و الشعور بالأمن.

وهكذا تؤدي المحاضرات و المناقشات الجماعية بالعملاء إلى تعديل المفهوم السلبي عن الذات إلى مفهوم إيجابي فضلاً عن أنها تشجع على التعبير و المشاركة، و التنفيس الانفعالي و تعمل على تقوية و تدعيم التفاعل الاجتماعي بين أعضاء الجماعة، كما أنها تساعد على انطفاء الكثير من الاستجابات السلوكية غير المرغوب فيها لدى الجماعة<sup>2</sup>.

كما تعمل المناقشة الجماعية على النقد المستمر للأفكار الخاطئة مع الإقناع، مما يساعد الفرد على اكتشاف جوانب الخطأ في الأفكار السابقة، كما تمكنه من تعلم طرق جديدة تؤدي إلى تنمية القدرة على حل المشكلات لديه، و اكتشاف الطرق البديلة لتحقيق أهداف أكثر واقعية، مما يساعد الفرد على تعديل سلوكه الاجتماعي و النفسي<sup>3</sup>.

و تساهم بذلك المحاضرات التي يقدمها الفاحص في تثقيف المفحوص، من خلال المعلومات التي يقدمها له و التي تتضمن طبيعة الاضطراب النفسي الذي يشمل (مفهومه، أعراضه، أسبابه)، و كذا تزويده بمعارف حتى يتمكن من مجابهته، بالإضافة إلى ذلك تعليمه طريقة التفكير السليم التي تقيه من الوقوع في مثل هذه الأزمات النفسية مرة أخرى، و حتى يتمكن من مزاوله نشاطاته اليومية بشكل عادي.

<sup>1</sup> مسعودي رضا مرجع سابق، ص 132، ص 133.

<sup>2</sup> بوجان نادية، مرجع سابق، ص 190.

<sup>3</sup> مسعودي رضا مرجع سابق، ص 133.

## 5- التنفيس الانفعالي:

يعرف نيكول وباولينو<sup>1</sup> Nichols & Paolino 1986، "التنفيس عن المشاعر بأنها: "عملية قوية من التعبير عن المشاعر المكبوتة ومواد الصراع في وجود شخص ليس له علاقة بأصل هذه المشاعر"، وهي بالتالي عملية معرفية وعضوية بنفس الوقت، حيث تشمل استرجاع، واستذكار المادة المكبوتة مع ترافق التعبير العضوي عن ذلك بالضحك أو الصراخ أو الدموع. فوجود الأفكار التلقائية المقتحمة يعكس وجود تشويه في البنية المعرفية عند الشخص مثل: وجود الأفكار السلبية، أو العلاقة السببية التي تثير الشعور بالذنب، فالشكوك والتساؤلات حول الحدث الضاغط يمكن أن تقتسم وتشارك من خلال عملية التفرغ، بدلا من أن تكبت داخليا، وبالتالي تبقى دون أي أجوبة. فالتفرغ أو التنفيس الانفعالي يهدف إلى توضيح حقيقة ما حدث، وبالتالي يسمح بإعادة تفسير العلاقة السببية وبخاصة فيما يتعلق بالشعور بالذنب، ولوم الذات وتحمل مسؤولية ما جرى. وبالتالي فإن هذه الإيضاحات الخارجية التي تأتي عن طريق التفرغ النفسي، حيث يمكن أن تخفف من الحاجة إلى التشويه المعرفي، وبالتالي تخفف من هجوم الأفكار التلقائية السلبية. قام كل من "أرمسترونغ وكلاهان ومرمر" سنة 1991 Armstrong & Callahan & Marmer بوضع نموذج الضغوط المتعددة في التفرغ الانفعالي، ويشتمل على أربع مراحل أساسية:

-المرحلة الأولى: يتم فيها التقديم ووضع الخطوط العريضة، ثم بعد ذلك يتم إتاحة الفرصة للمشاركين لسرد ما جرى أثناء وبعد الحدث الضاغط.

-المرحلة الثانية: وتشمل الحديث عن المشاعر وعن الاستجابات التي وردت بعد وقوع الحدث الضاغط.

-المرحلة الثالثة: وتشمل الحديث عن استراتيجيات المقاومة المستخدمة في مواجهة الحدث الضاغط ويتم فيها إعطاء معلومات عن استراتيجيات المقاومة الصحية والمرضية، ويتم فيها أيضا التركيز على وسائل التكيف التي قام بها الشخص نفسه استجابة لأحداث سابقة، وأيضا التركيز على استراتيجيات المقاومة الصحية التي يقوم أفراد المجموعة باستخدامها.

المرحلة الرابعة: ويتم فيها إغلاق المواضيع التي فتحت في النقاش، والتحضير إلى مرحلة العودة إلى ما قبل الحدث الضاغط للخروج من الحالة السلبية التي قد يبقى فيها بعض العملاء<sup>1</sup>

فالتنفيس الانفعالي الذي يقوم به كل فرد من أفراد المجموعة خلال الجلسات العلاجية، يجعل الفرد يشعر بالراحة لأنه سيجد أناسا آخرين يشاركونه آلامه وأحزانه، و كما يقال: المصيبة إذا عمت خفت.

## 6- فنية إعادة العزو:

يستخدم هذا الأسلوب مع المتعالجين، خاصة المكتئبين منهم الذين يميلون إلى لوم أنفسهم بشدة، فيُعززون كل الأمور السلبية إلى نقص شخصي دون وجود سبب واقعي<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> بوجان نادية، مرجع سابق، ص 195.

<sup>2</sup> بكيري نجية، أثر برنامج معرفي سلوكي في علاج بعض الأعراض النفسية للسكرين المراهقين، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم النفس العيادي، إشراف الأستاذ الدكتور: فرحاتي العربي، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2011-2012، ص 144.

تُستخدم فنية إعادة العزو عندما يعزو المرضى بشكل غير واقعي الأحداث أو النتائج السلبية للأحداث إلى عجز شخصي ( نقص الجهد أو القدرة)، ومن ثم يضعون اللوم على أنفسهم و بالتالي يشعرون بالذنب، أو القلق أو الإكتئاب.

و من خلال فنية "إعادة العزو" يستطيع المعالج مساعدة المرضى على توزيع المسؤولية بشكل عادل على الأحداث، فليست الغاية من إعادة العزو هو إعفاء المريض من كل المسؤولية، و لكن تحديد العوامل التي أسهمت في ظهور الخبرات المؤلمة، و إعادة العزو تكون مفيدة بشكل خاص مع المرضى الذين يلقون باللوم على أنفسهم بشكل مفرط أو المرضى الذين يرون أنفسهم مسؤولين عن وقوع أي حادثة مؤلمة.

و عملية إعادة العزو السلبية إلى عوامل خارجية وليس إلى عوامل داخلية يكون مفيدا لتصحيح أخطاء "الشخصنة"، و لخفض لوم الذات، و زيادة تقدير الذات، فلقد أوضحت نظرية "العجز المكتسب لسليجمان، و أبرامسون 1978" أن عزو النتائج السلبية إلى أسباب خارجية نوعية و محددة و غير ثابتة، تكون أقل إحداثا للإكتئاب من عزو النتائج السلبية إلى أسباب داخلية شاملة و ثابتة.<sup>1</sup>

و يقوم المعالج بتصحيح معرفيات المفحوص الخاصة باللوم الذاتي عن طريق ما يلي:

\* معاينة الحقائق الخاصة بالحوادث التي أدت إلى لومه لذاته.

\* إيضاح المعايير المختلفة لإلقاء المسؤولية، التي يطبقها المفحوص على نفسه، و لا يطبقها على الآخرين. Double Standard مقياس مزدوج.

\* تحدي الاعتقاد الذي يكون المفحوص مسؤولا 100 % عن نتائجه السلبية، و يطلق على هذا الأسلوب أيضًا اسم تخفيف المسؤولية (De-Responsibilizing)<sup>2</sup>

و يقوم المعالج بإعادة عزو أسباب النتائج السلبية التي ينسبها العميل إلى نفسه إلى أسباب خارجية، بتحليل الحدث الواقع تحليلًا موضوعيًا، و إقناع المفحوص بهذه الرؤية التحليلية التي تستند في مضمونها إلى تفسير منطقي و واقعي، فمثلا: تلتخ ثياب العميل بالوحل و هو ذاهب إلى إجتماع رسمي بسبب مرور سيارة مسرعة من أمامه، في هذه الحالة يُرجع العميل سبب هذا الحادث إلى أنه إنسان فاشل و لا يصلح لأي شيء، لكن التفسير المنطقي هو: أن سائق السيارة كان مسرعا أثناء قيادته فلم ينتبه لوجود شخص يسير من أمامه، بالإضافة إلى ذلك أن الجو كان سيئا، و بالتالي السرعة التي يقود بها هذا السائق ستجعل الوحل يتطاير و يُلتخ ثياب الراجلين من أمامه.

#### 7- التخيل:

هناك مرادفات كثيرة لهذا المصطلح، و هي: الخيال العقلي، الصورة العقلية، أحلام اليقظة، التخيل أو التصور أو الذاكرة، فلدى معظم المفحوصين صور و خيالات، نسميها الأفكار التلقائية المتخيلة، و قد يتردد البعض منهم في إعادة تخيل هذه الصور المزعجة، أو الخوف من أن يظن معالجهم أنهم مضطربون عقليا<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> طه عبد العظيم حسين، مرجع سابق، ص 274.

<sup>2</sup> بكيري نجيبية، مرجع سابق، ص 144، ص 145.

<sup>3</sup> آرون بيك ترجمة: طلعت مطر، العلاج المعرفي الأسس و الأبعاد، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008، ص 350.

و هو ما يعرف أيضا بالتخيل المعرفي، و هي تُساعد المريض على التعرف على أفكاره التلقائية، و يكون مفيدا حين يُستخدم مع المواقف المُخيفة<sup>1</sup>.

يعتبر التخيل و التصور من أقوى قوى الإرادة في حدوث التغيرات، و التأثير على العقل الباطن، و من المسلمات الطبية أن الحالة الذهنية المضطربة للإنسان تؤثر في حالته الصحية<sup>2</sup>.

و بمجرد أن يتأكد المعالج أن المفحوص يعاني من خيالات مزعجة يقوم بتعليمه طرق مختلفة للتعامل مع هذه الخيالات مستخدما أساسا منطقيا كما يلي:

#### 1-7 إزالة التحسس التدريجي:

و تتبع هذه الطريقة في علاج القلق مثلا: إذ يعتمد المعالج إلى إعطاء الإيحاءات لمريضه كي يتصور عقليا الأوضاع التي تفجر قلقه، و ذلك حتى يتوصل المريض إلى القدرة على معايشة هذه الأوضاع بصورة تدريجية، و يمكن لهذا العلاج أن يتم بصورة جماعية، و غالبا ما تستخدم فيه إحدى طرق الإسترخاء<sup>3</sup>.

و تسمح هذه الفنية للمفحوص بالتنفيس عن مكبوتاته من جهة، و مواجهة مخاوفه بصفة متدرجة من جهة أخرى، و من ثم يستطيع مواجهة مثل هذه المواقف و الأحداث دون أن تشكل تهديدا على صحته النفسية.

#### 2-7 اتباع الخيال حتى النهاية:

وتعد هذه الطريقة من أفضل الطرق التي تساعد المفحوص و المعالج على تصور المشكلة بوضوح، و تساعد على إعادة البناء الإدراكي للخيال، و تساعد على التحسن، و في هذه الطريقة يشجع المعالج المفحوص على اتباع الخيال حتى يحدث أمر من اثنين، إما أن يتخيل المفحوص أنه دخل في قلب الأزمة، و خرج منها أفضل مما كان، أو أن مصيبة قد حدثت مثل الموت، و إذا حدث ذلك، يستعرض المعالج عواقب الخوف و معنى الكارثة النهائية، و يحاول التدخل.

#### 3-7 القفز إلى الأمام في الزمن:

في بعض الأحيان يكون إكمال الصورة حتى النهاية غير فعال، و ذلك لأن المفحوص يستمر في وضع العراقيل المتتالية، أو الأحداث المؤلمة إلى ما لا نهاية، في هذه الحالة يمكن للمعالج أن يقترح على المفحوص أن يتخيل نفسه في مرحلة زمنية لاحقة في المستقبل القريب<sup>4</sup>.

كما نرى أن هناك طرقا عديدة لعلاج الموقف المؤلم، و تحديد أية طريقة أنفع للعميل؟ يُحددها المُعالج لأنه قد يختار هذه الطريقة الأخيرة "القفز إلى الأمام في الزمن" لكن العميل ليست لديه القدرة على مواجهة الموقف دُفعة واحدة، هنا قد يتعرض إلى صدمة نفسية نحن في غنى عنها، و نتسبب في تفاقم حالته النفسية.

<sup>1</sup> طه عبد العظيم حسين، مرجع سابق، ص 271.

<sup>2</sup> أيمن العريمي، استخراج قواك الذهنية من داخلك، الطبعة الأولى، دار الأسرة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 2007، ص 8، ص 9.

<sup>3</sup> محمد أحمد النابلسي، مبادئ العلاج النفسي و مدارسها، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1991، ص 171، ص 172.

<sup>4</sup> آرون بيك، تر: طلعت مطر، مرجع سابق، ص 350، ص 358.

#### 4-7 التكيف في أثناء التخيل:

إرشاد المفحوص و مساعدته على تخيل يتجاوب فيه، و يتعامل مع الموقف الصعب الذي رآه في خياله تلقائيا.

#### \* تغيير الصورة المتخيلة:

تعليم المفحوص التعرف على الصورة المتخيلة، ثم إعادة تخيلها من جديد بطريقة مفيدة للنهاية.

#### \* الاختبار الفعلي للصورة المتخيلة:

في هذه الحالة يعلم المعالج المفحوص التعامل مع الصورة المتخيلة مثلما يتعامل مع الأفكار التلقائية اللفظية مستخدما الأسئلة السقراطية المقننة.

#### 5-7 إعادة التخيل:

تعتبر هذه التقنية مفيدة حين يتخيل المفحوص صورة مبالغ فيها، بالرغم من أنها ليست كارثية من حيث النتيجة، و هنا يطلب المعالج من المفحوص إعادة الصورة المتخيلة عدة مرات حتى ينخفض التوتر.

#### \* الاحلال، والتوقف، و صرف الانتباه عن الصورة المتخيلة:

احلال صورة أخرى متخيلة باعثة على السرور، أما طريقة توقيف الصورة المتخيلة تشبه توقيف الفكر، و يمكن أن تستخدم لوحدها أو تتبع باحلال الصورة أو صرف الانتباه.<sup>1</sup>

#### 8- أسلوب حل المشكلات:

تعددت وجهات نظر علماء النفس في تعريف المشكلة، فنجد "مورجان و آخرون" Morgan et al 1979، "ينظرون إليها على أنها تحدث عندما تكون بعض العناصر معروفة، و البعض الآخر غير معروف، و يعتمد الحل على إكتشاف كيفية معالجة العناصر غير المعروفة"

و يرى "ودوورث" Woodworth " أن المشكلة تحدث عندما تكون بعض العناصر معروفة، و البعض الآخر غير معروف".<sup>2</sup>

و أسلوب حل المشكلات عبارة عن إجراءات منظمة يتمكن الفرد من خلالها حل المشكلة التي تواجهه، و ذلك بإختيار البديل الأفضل في حلها، كما يُقصد بها قدرة الفرد على إشتقاق نتائج من مقدمات معطاة، و هي نوع من الأداء يتقدم فيه الفرد من الحقائق المعروفة للوصول إلى الحقائق المجهولة التي يود إكتشافها، و ذلك عن طريق فهم و إدراك الأسباب و العوامل المتداخلة في المشكلات التي يقوم بحلها، و هي نشاط حيوي يقوم به الإنسان، و يمارسه على مستويات متنوعة من التعقيد كلما كُلف بأداء واجب معين، أو اتخاذ قرار في موضوع معين.<sup>3</sup>

كما يعرف أسلوب التدريب على حل المشكلات: " بأنه إجراء إكلينيكي تم استخدامه في العلاج النفسي من قبيل "دزريلا و كولد 1971 D'zurilla & Gold، و يتكون من عدة خطوات، تتمثل فيما يلي :

<sup>1</sup>أرون بيك، تر: طلعت مطر، المرجع نفسه، ص 359، ص 365.

<sup>2</sup>بشير معمري، السيادة النصفية للمخ و التحكم في السلوك، دار الخلدونية، الجزائر، 2012، ص 76.

<sup>3</sup>مسعودي رضا، مرجع سابق، ص 141.

تعريف المشكلة ثم تحديد الاحتياجات لحلها، ثم توليد البدائل التي يمكن أن تستخدم وتقييم البدائل و النتائج المرتبطة بها، وأخيرا التحقق من النتائج<sup>1</sup>.

و يعتبر أسلوب حل المشكلات مهارة يتم تعلمها للتعامل مع مشكلات الحياة الواقعية، و تتضمن أن يقوم المعالج و المريض بتقسيم المشكلة إلى عناصر فرعية<sup>2</sup>.

و يتم تعليم العميل كيف يحل مشكلاته مستقلا مستقبلا، مع اتخاذ المشكلة الحاضرة كنموذج أو كعينة تدريب حيث يتم حصر المشكلة، و السيطرة عليها بعد دراستها واقتلاع أسبابها، و استعراض المحاولات السابقة لحلها و اقتراح حلول بديلة، و ترتيبها حسب الأولوية، و إختيار الحل و وضع خطة التنفيذ<sup>3</sup>.

لقد ظهر العديد من النماذج الخاصة بالتدريب على حل المشكلات، و تلتقي هذه النماذج في أنها تبحث عن الطرق المتاحة لحل المشكلة، ، و فيما يلي عرض نموذج لكل من: "ديكسون و جلوفر" Dixon & Glover 1984، يتكون من خمس مراحل (05) هي:

1- تحديد المشكلة.

2- اختيار الهدف.

3- اختيار استراتيجية.

4- تطبيق الاستراتيجية.

5- التقويم.

و يشمل هذا النموذج عمليتين يستخدمهما الفرد لحل مشكلته، و تتمثلان فيما يلي:

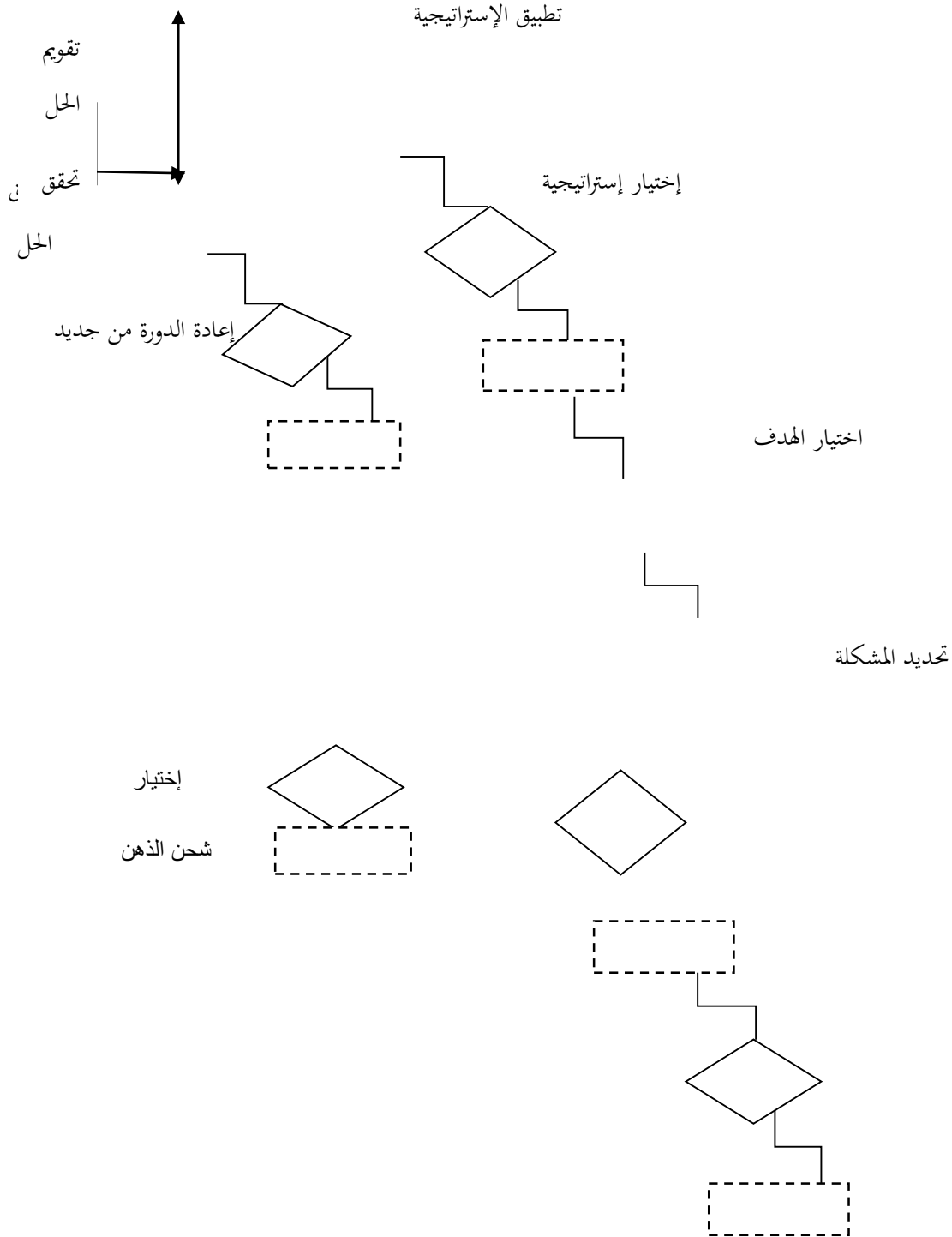
\* الأولى شحن الذهن.

\* الثانية هي الاختيار.

<sup>1</sup> أسماء عبد الله العطية، الإرشاد السلوكي المعرفي، مؤسسة حورس للطباعة و النشر، الإسكندرية، 2007، ص92.

<sup>2</sup> طه عبد العظيم حسين، مرجع سابق، ص 281.

<sup>3</sup> حامد عبد السلام زهران، الصحة النفسية و العلاج النفسي، الطبعة الثانية، عالم الكتب، القاهرة. 1995، ص 300.



نموذج إرشادي لحل المشكلات عن ديكسون و جلوفر<sup>1</sup> 1984 Dixon & Glover

و حل المشكلة حسب هذا النموذج هو عملية يحاول بها الفرد أن يخرج من أي مشكل أو مأزق يعترضه ، مستندا في ذلك إلى عدة مهارات هي: "تحليل عناصر المشكلة" ، ثم "ربط هذه العناصر بعضها ببعض" ، ثم "إختيار عدة حلول" بعدها "إختيار

<sup>1</sup> محمد السيد عبد الرحمان، محمد محمد محروس الشناوي، العلاج السلوكي الحديث، الطبعة الأولى، زهراء الشرق، مصر، 2010، ص207، ص208.

الحل الملائم وتجريبه"، فإذا نجح يستغني عن بقية الحلول، وإذا فشل يستمر في تجريب بقية الحلول حتى يجد الحل الأنسب، وما تجدر الإشارة إليه هنا أن عملية الإدراك خاصة فيما يتعلق بإقتراح الحلول لها دور كبير في نجاح النموذج الذي وضعه كل من "ديكسون و جلوفر".

#### 9- وقف التفكير:

التفكير هو أحد الأنشطة العقلية المعرفية، والمظهر الأساسي المميز للإنسان، والذي يمكنه من تجاوز الصعاب وتحقيق الأهداف وحل معظم المشكلات التي تواجهه بسيطها ومعقدها.<sup>1</sup>

وهي فنية من فنيات التدخل المعرفي السلوكي، وتستخدم في التخلص من الأفكار والإعتقادات لدى الفرد وتقوم على مسلمة مفادها، أنه مادام بإمكان الفرد أن يفكر بصورة إرادية في موضوع معين في لحظة ما، إذاً بإمكانه إستبعاد التفكير في موضوع معين و في لحظة معينة.<sup>2</sup>

غالبا ما تكون الأفكار الخاطئة لها تأثير متزايد في معاناة الفرد، و الفكرة الخاطئة ربما تستدعي أفكار خاطئة أخرى، و إذا استمرت هذه الحالة نجد العميل غير قادر على الاستجابة لهذه الأفكار بشكل فعال، لذا يكون دور المعالج هو تعليم المفحوص كيف يوقف تدفق و تزايد هذه الأفكار، و ذلك باستخدام منبه مفاجئ سواء كان هذا المنبه حقيقي أو خيالي، ثم بعد ذلك يتحول إلى أفكار أخرى قبل أن يتحول هذا التيار من الأفكار مرة أخرى، و ذلك من خلال النصيحة التي يقدمها المعالج للعميل من حين لآخر بقوله "لا تقلق بشأن ذلك"<sup>3</sup>

إيقاف التفكير" هي طريقة لتبديل السلوك المعرفي، وهي تقوم على أساس تعديل المخططات أو المعتقدات، و كذا إيقاف عادات الاستجابات الفكرية المزعجة، التي تقتحم ساحة وعي المفحوص، والتي لا طائل منها".

إن جوهر التدريب على إيقاف التفكير المزعج يمكن في الوصول إلى اتفاق بين المعالج و المفحوص على أن الأفكار التي تنتابه مبددة للقوى النفسية والجسدية ومؤذية، و غير مفيدة، لذلك يجب استبعادها حالما تلج ساحة وعيه<sup>4</sup>

- و ذلك بمجرد أن تبدأ أفكار القلق على المريض يقوم بتقرير علامة "قف" التي يمكن من خلالها إستعادة الضبط<sup>5</sup>

- و تختفي الفكرة المزعجة من ذهن المفحوص عندما يأتي الأمر بالتوقف، لأن الفرد لا يمكن أن يكون قلقا و مسترخيا في نفس الوقت، و تسمى هذه الطريقة في العلاج" مبدأ الكف بالنيقوض" لأنه من المستحيل أن يشعر الفرد بشعورين متناقضين في نفس الوقت<sup>6</sup>

<sup>1</sup> الزيات فتحي، دراسات في علم النفس المعرفي، الجزء الثاني، ط1، دار النشر للجامعات: مصر، 2001، ص 179.

<sup>2</sup> طه عبد العظيم حسين، مرجع سابق، ص 163.

<sup>3</sup> ابتسام بنت عبد الله بن عيد الزعبي، فاعلية برنامج معرفي سلوكي لتعديل بعض سمات الشخصية المرتبطة بالسلوك الإجرامي للسجينات السعوديات، رسالة مقدمة لنيل دكتوراه في علم النفس، إشراف الأستاذ الدكتور: زايد بن عجير الحارثي، جامعة الأميرة بنت عبد الرحمان، 2010 ص 30.

<sup>4</sup> بكيري نجيبة، مرجع سابق، ص 150.

<sup>5</sup> محمد السيد عبد الرحمان، محمد محروس الشناوي، مرجع سابق، ص 263.

<sup>6</sup> مسعودي رضا، بناء برنامج إرشادي معرفي سلوكي لخفض الضغوط النفسية لدى المعلمين، أطروعة مقدمة لنيل الدكتوراه في علم النفس عمل و تنظيم، جامعة الجزائر 2، إشراف الأستاذة الدكتورة ظريفة بن حمو، 2009-2010، ص 130، ص 131.

## 10- صرف الانتباه أو تشتيت:

الفكرة من وراء هذه الفنية أن نصرف انتباه الشخص المكتئب أو القلق عن أفكاره ومشاعره، و المواقف المؤلمة لمدة دقائق أو ساعات قليلة، و ذلك بالإستماع إلى موسيقى، أو الإتصال تليفونيا بصديق أو لعب كرة قدم بإعتبارها أساليب مفيدة في خفض القلق أو الإكتئاب، فالشخص المكتئب عندما يُبعد عن تفكيره لبعض الوقت، و يُركز عقله على شيء آخر حتى و لو لفترة قصيرة من الوقت، فإن هذا يجعله يشعر بالراحة، و تُعتبر هذه الفنية طريقة مفيدة أيضا في خفض شدة القلق و الهلع، فعندما يكون المريض لديه مستوى مرتفع من القلق فمن الصعب جدا أن يتعرف على أفكاره المُختلفة وظيفيا، و يصعب عليه أيضا مقاومتها، و لكن إن استطاع هذا الفرد أن يطرد هذه الأفكار و يُخرجها من عقله و لو لدقائق قليلة، و ذلك من خلال التركيز على بعض المثيرات الخارجية، فإن القلق قد ينخفض لديه.<sup>1</sup>

و من الأساليب المستخدمة في صرف الإنتباه مايلي:

### \* التركيز على شيء معين:

يُدرّب العميل على التركيز في شيء معين، ثم يصفه لنفسه بإستخدام أسئلة و الإجابة عليها مثل: ( أين يوجد هذا الشيء بالضبط؟، ما هو حجمه؟، ما لونه؟، كم يوجد منه؟، ما الفائدة منه؟ )

### \* الوعي الحسي:

يُدرّب العميل على ملاحظة البيئة المحيطة به ككل باستخدام النظر، السمع، الذوق، اللمس، الشم، مستعينا بالأسئلة الآتية: ( ما الذي تراه بالضبط إذا رأيت من حولك؟ ما الذي تستطيع سماعه داخل جسمك؟

في الغرفة؟ و خارج الغرفة، و خارج المبنى؟ )

### \* التمرينات العقلية:

يشمل ذلك عدا إلى الخلف من 100 بطرح 7 كل مرة، التفكير في أسماء الحيوانات التي تبدأ بحرف (أ)، ثم الحرف (ب)...وهكذا.

### \* الذكريات و الخيالات السارة:

تذكر الحوادث السارة بأكبر قدر ممكن من الوضوح مثلا: رحلة سعيدة، أو تخيل ما الذي ستفعله إذا كسبت شيئا معيناً.<sup>2</sup>

- أما التشتت فهو طريقة من خلالها يتم صرف انتباه المريض عن الأفكار السلبية التي تثير قلقه، و إكتنابه إلى مثيرات أخرى خارجية غير مرتبطة بالمثير الذي يستثير القلق لديه، و قد يكون ذلك من خلال التركيز على صورة جميلة معلقة على الحائط و لمدة طويلة أو مشاهدة برامج تلفزيونية، كذلك المريض المكتئب يمكنه القيام بممارسة بعض الأنشطة السارة و الممتعة، و التي يفضلها لصرف انتباهه عن الوقائع و الأحداث المؤلمة إلى وقائع و أحداث سارة، فالتشتت يمكن أن يؤدي إلى نتائج علاجية مفيدة في خفض الاضطرابات الانفعالية، و هذه الطريقة مأخوذة من فكرة مفادها أنه من الصعب أن يفكر الفرد في فكرتين في وقت واحد، فالأفكار الخاطئة تمنع المريض من التفكير التوافقي و الملائم مثل: قراءة كتاب، و العكس فإن التفكير الملائم و التوافقي يُشتت المريض عن الأفكار السلبية.<sup>3</sup>

<sup>1</sup> طه عبد العظيم حسين، مرجع سابق، ص 274، ص 275.

<sup>2</sup> ابتسام بنت عبد الله بن عيد الزعي، مرجع سابق، ص 30.

<sup>3</sup> طه عبد العظيم حسين، مرجع سابق، ص 274، ص 275.

من خلال هذا العرض الموجز و السريع لبعض الفنيات المعرفية للعلاج المعرفي السلوكي نتوصل إلى نتيجة مهمة سبقنا إليها ثلّة من العلماء و الباحثين، أن الناس لا يضطربون بسبب ما يتعرضون له من مواقف و أحداث مؤلمة ، وإنما بسبب طريقة إدراكهم و تفسيرهم للأمور، التي تعد السبب الوحيد و الأوحّد لمعاناتهم، لذا عملية إنتشالهم من مستنقع الإضطرابات النفسية التي تكدر حياتهم، لا تكون إلا بغرس الإستراتيجيات التي سبق الحديث عنها في بطون عقولهم، حتى يستفيدوا من إيجابياتها حاضرا و مستقبلا.

### قائمة المراجع:

- 1- طريف شوقي فرج، توكيد الذات، دار غريب، القاهرة، 1998.
- 2- محمد أحمد النابلسي، مبادئ العلاج النفسي و مدارسه، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1991.
- 3- عبد الستار إبراهيم، العلاج النفسي السلوكي المعرفي الحديث، الطبعة الثانية، الدار العربية للنشر، القاهرة، 1998.
- 4- طه عبد العظيم حسين، العلاج النفسي المعرفي، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة و النشر، الإسكندرية، 2007.
- 5- زيزي السيد إبراهيم، العلاج المعرفي للإكتئاب، دار غريب للنشر و التوزيع، القاهرة، 2006.
- 6- حامد عبد السلام زهران، الصحة النفسية و العلاج النفسي، الطبعة الثانية، عالم الكتب، القاهرة، 1995.
- 7- أيمن العريبي، استخراج قواك الذهنية من داخلك، الطبعة الأولى، دار الأسرة للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 2007.
- 8- إسماعيل علوي، بن عيسى زغبوش، العلاج النفسي المعرفي، الطبعة الأولى، عالم الكتب الحديث، عمان الأردن، 2009.
- 9- أسماء عبد الله العطية، الإرشاد السلوكي المعرفي، مؤسسة حورس للطباعة و النشر، الإسكندرية، 2007.
- 10- آرون بيك ترجمة: طلعت مطر، العلاج المعرفي الأسس و الأبعاد، الطبعة الأولى، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008.
- 11- الزيات فتحي، دراسات في علم النفس المعرفي، الجزء الثاني، ط1، دار النشر للجامعات: مصر، 2001.
- 12- لطفي الشربيني، كيف تتغلب على القلق، المكتب العلمي للكمبيوتر و النشر، الإسكندرية، 1995.
- 13- بشير معمريّة، السيادة النصفية للمخ و التحكم في السلوك، دار الخلدونية، الجزائر، 2012.
- 14- عبد الستار إبراهيم، العلاج النفسي الحديث، عالم المعرفة، الكويت، 1990.
- 15- طه عبد العظيم حسين، سلامة عبد العظيم حسين، إستراتيجيات إدارة الضغوط الترابوية و النفسية، دار الفكر، عمان، الأردن، 2006.
- 16- محمد السيد عبد الرحمان، محمد محروس الشناوي، العلاج السلوكي الحديث، الطبعة الأولى، زهراء الشرق، مصر، 2010.
- 17- بكيري نجيبية، أثر برنامج معرفي سلوكي في علاج بعض الأعراض النفسية للسكريين المراهقين، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في علم النفس العيادي، إشراف الأستاذ الدكتور: فرحاتي العربي، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2011-2012.

- 18- حدة يوسف، فاعلية برنامج إرشادي ( معرفي- سلوكي) في تنمية بعض المتغيرات الواقية من الضغوط النفسية لدى طلبة الجامعة، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الإرشاد النفسي، جامعة باتنة، إشراف الأستاذة الدكتورة: نادية بعيين، 2011-2012.
- 19- أسماء بوعود، فعالية برنامج علاجي إثنو نفسي من المنظور الإسلامي للتكفل ببعض الأمراض العصبية (القلق، الإكتئاب العصبي)، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه علوم في علم النفس العيادي، جامعة سطيف، إشراف الأستاذة الدكتورة نادية بعيين، 2015-2016.
- 20- بومجان نادية، بناء برنامج إرشادي معرفي سلوكي لتخفيف الضغط النفسي لدى الأستاذة الجامعية المتزوجة، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه علوم في علم النفس إرشاد و توجيه، جامعة محمد خيضر بسكرة، إشراف الأستاذ الدكتور جابر نصر الدين، 2015-2016.
- 21- مسعودي رضا، بناء برنامج إرشادي معرفي سلوكي لخفض الضغوط النفسية لدى المعلمين، أطروحة مقدمة لنيل الدكتوراه في علم النفس عمل و تنظيم، جامعة الجزائر 2، إشراف الأستاذة الدكتورة ظريفة بن حمو، 2009-2010.
- 22- بن عبد الله فوزية، دراسة فعالية علاج معرفي سلوكي مقترح في خفض مستوى القلق العام لدى عينة من الراشدين، لنيل الدكتوراه في علم النفس جامعة سطيف2، إشراف الأستاذ الدكتور محمد الصغير شرفي،، 2016.



## المنطق والرياضيات عند إخوان الصفا

أ.التناصر الهمامي/كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس

### ملخص:

لقد ارتأيت البحث في موضوع المنطق والرياضيات عند إخوان الصفا لإبراز أنّ الحضارة العربية الإسلامية، حضارة قائمة في أساسها على العقل والمنطق في فهم الدين الإسلامي وبناء تصوّر متكامل للكون وللوجود، رغم ما شابهها في العصور المتأخرة من الانحطاط وشيوع الخرافة والجهل. وقد قسّمنا مقالنا هذا إلى باين كبيرين، حللنا في الباب الأول منه كميّات وأساليب حضور المنطق والرياضيات في رسائل إخوان الصفا من خلال استعانتهم بالرياضيات بصنفيها المجرد والتطبيقي وكذلك بعلم المنطق اليوناني من أجل تطوير فهم جديد للشريعة الإسلامية، وتشكيل رؤية متميّزة في التّظر إلى المادّة وإلى ما وراء الطبيعة (المباحث الميتافيزيقية). ثم بيّنا في الباب الثّاني من مقالنا أهداف ووظائف حضور المنطق والرياضيات في رسائل إخوان الصفا وقد صنّفناها إلى ثلاثة أنواع: الوظيفة التصحيحية والوظيفة البنائية والوظيفة الإصلاحية، وانتهينا في آخر مقالنا إلى جملة من التّنتائج والاستنتاجات.

الكلمات المفتاحية: إخوان الصفا، المنطق، الرياضيات.

### مقدمة:

عرف إخوان الصفا بأنهم جماعة من فلاسفة المسلمين عاشوا في القرن الزّابع هجريًا/العاشر ميلاديًا بمدينة البصرة بالعراق في فترة تهافت الدولة العبّاسية وضعفها، حيث بدأ يدبّ فيها الفساد والانحلال وباتت عرضة للتّفوذ الأعجمي (الفرس ثمّ التّرك). وقد توحدت هذه الفرقة حول فكرة التّوفيق بين العقيدة الإسلامية والفلسفة اليونانية من أجل تطهير الشريعة ممّا لحق بها من جهالات وخرافات. وكتبوا في ذلك مجموعة من الرّسائل سمّيت برسائل إخوان الصفا. وتتألّف هذه الرّسائل من اثنتين وخمسين رسالة وتنضاف إليها "الرسالة الجامعة" وهي رسالة ملخّصة وموضّحة لما قبلها من الرّسائل، وقد قسّم إخوان الصفا رسائلهم تقسيمًا وظيفيًا موحيا يخدم قصدهم من وضعها، فقد جعلوها أربعة أقسام: القسم الرّياضي التّعليقي ويشتمل على أربع عشرة رسالة والقسم الجسماني الطبيعي وهو سبع عشرة رسالة والقسم التّفساني العقلي ويشتمل على عشر رسائل والقسم التّاموسي الإلهي وهو مجموع إحدى عشرة رسالة.

وقد اهتمّ إخوان الصفا في رسائلهم هذه بشقّي أصناف المعارف الإنسانية وبمختلف العلوم المادية والرّوحانية، معتمدين في ذلك إعمال العقل واستعمال المنطق والبراهين الفلسفية من أجل فهم الكون والوجود وإنتاج نظرية متميزة في المعرفة. لذلك فإننا سنهتمّ في بحثنا هذا بوصف وتحليل حضور الرياضيات والمنطق في هذه الرّسائل وبإبراز مختلف هيئاتها وتجليّاتها واستنتاج أهمّ أغراضها ووظائفها.

## صلب الموضوع:

الباب الأول: كفاءات حضور المنطق والرياضيات في رسائل إخوان الصفا (رسائل القسم الرياضي نموذجاً)

إنَّ المنطق والرياضيات متلازمان تلازماً وثيقاً لأنَّ كليهما يعتبر منهجاً في التفكير والاستنتاج يقي الإنسان من الوقوع في الخطأ، ولكننا لضرورة البحث سنفصل بينهما فصلاً منهجياً، إذ سنبيِّن أولاً: هيئات وكفاءات حضور الرياضيات في رسائل إخوان الصفا، لأنها أغزر وأوفر مادة، ثمَّ سننظر ثانياً في هيئات وكفاءات حضور المنطق في هذه الرسائل.

## الفصل الأول: كفاءات وهيئات حضور الرياضيات

يرتَّب إخوان الصفا العلوم الفلسفية ويقسمونها إلى أربعة أنواع، ويضعون الرياضيات في المرتبة الأولى، إذ يقولون: "والعلوم الفلسفية أربعة أنواع أولها الرياضيات والثاني المنطقيَّات والثالث العلوم الطبيعيَّات والرابع العلوم الإلهيَّات".<sup>(1)</sup>

وفي هذا دلالة على المكانة المحورية التي تحتلها الرياضيات في فلسفتهم وفكرهم، كما أنهم يدرجون الموسيقى ضمن علم الرياضيات باعتبارها تبنى على قواعد منظَّمة "فالرياضيات أربعة أنواع أولها الأثرماتيقي والثاني الجومطريا والثالث الاسطرونوميا والرابع الموسيقى".<sup>(2)</sup>

ويعتمد مذهب إخوان الصفا على الأمثلة العدديَّة والبراهين الهندسية في البحث عن الترتيب والنظام الكوني، وكذلك لإثبات العلة الأولى التي أوجدت كل العلل والموجودات وهو المبدع الأول الواحد. ويقسم إخوان الصفا الرياضيات إلى نوعين رياضيات ذهنية ورياضيات عملية، لذلك ستهتم في قسم الرياضيات الذهنية بدراسة العدد أما في قسم الرياضيات العملية فستهتم بالهندسة والموسيقى.

## 1- الرياضيات الذهنية (العدد):

يتميِّز إخوان الصفا بين الواحد والكثرة ويستعملون فرضيَّات مبدئية للتمييز بين الواحد بالحقيقة والواحد بالمجاز، ويعتبرون أنَّ الواحد بالحقيقة هو الذي لا ينقسم، وأمَّا الواحد بالمجاز فهو القابل للانقسام، كما يعتبرون أنَّ الكثرة هي جملة لأحاد فالواحد في نظرهم لا ينقسم ولا يتجزأ "الواحد لا يمكن أن يلقي منه شيء لأنه لا جزء له البيَّة"<sup>(3)</sup>

وباستعمال القياس البرهاني (أي الاستدلال بالمعلوم على المجهول)<sup>(4)</sup> استنتج إخوان الصفا أنَّ الواحد الذي لا يتجزأ ما هو إلَّا انعكاس للمبدع الأوَّل والخالق الواحد "وكما أنَّ الواحد أصل العدد ومنشأه وأوَّلُه وآخره، كذلك الله -عزَّ وجلَّ- هو علة الأشياء وخالقها وأوَّلها وآخرها".<sup>(5)</sup>

ويعتمد إخوان الصفا في فلسفتهم على الرؤية الرياضية للوجود، فالأعداد في نظرهم هي انعكاس للموجودات في هذا العالم، وقد استنتجوا أنَّ هناك أعداداً دالَّة ومميَّزة أكثر من غيرها، مثل العدد: أربعة الذي له مكانة محورية في نظرهم، فجَلَّ الأمور الطبيعيَّة تقوم على البنية الرباعيَّة، إذ نجد العناصر الأربعة (النار والهواء والماء والأرض) والطبائع الأربعة (الحرارة والبرودة

(1) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا"، تحقيق: بطرس البستاني، ط1، دار صادر، بيروت، 1957، ج1، ص 15.

(2) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(3) م. ن، ص 16.

(4) أرسطو، "منطق أرسطو"، تحقيق: عبد الرحمان بدوي، ط1، دار القلم، بيروت، 1980، ج2، ص 417.

(5) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا"، ج1، ص 17.

والرطوبة واليُبوسة) وكذلك الأزمنة الأربعة (الربيع والصيف والخريف والشتاء). وقد استعمل إخوان الصفا القياس البرهاني لإثبات التّطابق بين الأمور الطبيعية والأمور الرّوحانية، وذلك أنّه إذا وجدنا أنّ أغلب الموجودات الطبيعية تقوم على البنية الرّباعية والمربّعات، فكذلك نجد أنّ الأمور الرّوحانية/الفوق طبيعية تقوم على أربع مراتب: "أولها الباري - جلّ جلاله - ثمّ دونه العقل الكليّ الفعّال ثم دونه النفس الكليّة ثم دونه الهيولي الأولى".<sup>(1)</sup>

وقد استعمل إخوان الصفا القياس المنطقي المبني على مقدمات منتجة، تؤدي بالضرورة إلى نتائج منتجة<sup>(2)</sup>، وذلك لربط علاقة بين العدد والجسم، فبناء على مقدمة تعتبر العدد مكونا من مجموعة من الخطوط، وبالتالي إذا ضرب الخط في نفسه تحصّلنا على السطح، وإذا ضرب السطح في أحد طوليه كان منه العمق، واستنتجوا أنّ هناك أعدادا تسمّى مكعبية ومجسّمة (وهي أعداد مربّعة مجذورة تضرب في جذورها) ومثال ذلك أربعة فإنه عدد مربّع مجذور، ضرب في الإثنين الذي هو جذرها، فخرج منه ثمانية وهو عدد مكعب، والمكعب: جسم طوله وعرضه وعمقه متساوية.

وقد استنتجوا أنّ ضرب العدد المربّع المجذور في عدد أقلّ من جذره أو أكثر من جذره، ينتج مجسّمات هندسية متنوّعة (مجسّم لبنيّ - مجسّم بيرويّ - مجسّم لوجي). ويكونون بذلك قد انتهوا إلى العلاقة الوثيقة بين الرياضيات كعلم مجرد والهندسة كعلم تطبيقي، وبالتالي فإن علم العدد موجود بالقوة في كلّ النفوس وهو انعكاس للموجودات في العالم ومنه يؤخذ المثال على كلّ معلوم ومحسوس.

إنّ الهدف من دراسة الرياضيات عند إخوان الصفا هو فهم العلوم الطبيعية ثمّ التّركي بعد ذلك إلى العلوم الإلهية التي يعتبرونها منتهى المعارف الحقيقية، أي استعمال أسلوب التدرّج في المعرفة من معرفة المادّة والنفس إلى معرفة الله.

## II- الرياضيات العمليّة (التطبيقية):

### 1- الهندسة:

لخصّ إخوان الصفا الغاية والهدف من علم الهندسة في قولهم " إنّما هو البحث عن خواص المقادير ومعرفة حقائقها التي هي الخطوط والسطوح والأجسام، وما يعرض فيها من الأبعاد والزّوايا والمناسبات التي بين بعضها وبعض"<sup>(3)</sup> وقد قسم إخوان الصفا الهندسة إلى نوعين: عقلية وحسّية، كما استعملوا القياس المنطقي للتّوصل إلى أنّ السطح مكوّن من مجموعة من الخطوط "ونقول أيضا: الخطّ أصل السطح، كما أنّ النقطة أصل الخطّ، وكما أنّ الواحد أصل الإثنين"<sup>(4)</sup>

كما استنتجوا أيضا أنّ السطح أصل الجسم، قياسا على أنّ الخطّ أصل السطح والنقطة أصل الخطّ، واستعملوا كذلك القياس البرهاني للتّوصل إلى أنّ المثلث أصل لجميع الأشكال المستقيمة الخطوط، إذ يقولون: "إذا أضيف شكل مثلث إلى شكل آخر مثله، حدث من جملة شكل مربّع."<sup>(5)</sup>

(1) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا"، تحقيق: بطرس البستاني، ج1، ص 17.

(2) أرسطو، "منطق أرسطو"، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، ج1، ص 165.

(3) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا"، ج1، ص 52.

(4) المصدر نفسه، ص 28.

(5) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا"، تحقيق: بطرس البستاني، ص 31.

واستنتج إخوان الصفا ارتباط الأشكال الهندسية المجسّمة بالخطوط والنّقط ارتباطاً تنازلياً متدرّجاً "السّطوح هي نهايات الأجسام، ونهايات السّطوح الخطوط، ونهايات الخطوط هي النّقط"<sup>(1)</sup>

واعتبروا أنّ القدرة على إنشاء وبناء الأشكال الهندسية مكتسب ومتعلّم لدى الإنسان، بينما هي سلوك جبليّ وغريزيّ لدى الحيوانات والحشرات خاصّة، واستشهدوا للإقناع بذلك بحجج حسّية من عالم الحشرات مثل مهارة النّحل في بناء الأشكال السّداسية وفاعلية وفوائد هذا الشكل في تخزين العسل والمحافظة عليه، وكذلك بمقدرة العنكبوت في نسج شبكتها باعتماد خيوط طولية مستقيمة وخيوط مستديرة، أثبتت نجاعتها في صيد الحشرات ومقاومة الرياح.

## 2- الموسيقى:

أدرج إخوان الصفا الموسيقى ضمن علم الرياضيات، لأنهم يعتبرونها نظاماً قائماً على التناسب والتناسق الرّياضي، ممّا يجعلها قادرة على التأثير الحسيّ والرّوحاني في السّامع " إنّ الموسيقى هي الغناء، والموسيقار هو المغنيّ والموسيقات هو آلة الغناء، والغناء هو ألحان مؤلّفة، واللّحن هم نغمات متواترة، والنّغمات هي أصوات مّترنة، والصوت هو قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجسام بعضها ببعض"<sup>(2)</sup>

أ- تقسيم الأصوات عند إخوان الصفا:

الأصوات نوعان: حيوانية وغير حيوانية.

### • حيوانية:

- منطقية: أصوات الناس (دالّة: الكلام والأقاويل التي لها هجاء)/(غير دالّة: الضحك والبكاء والصياح).

- غير منطقية: أصوات سائر الحيوانات غير النّاطقة.

### • غير حيوانية:

- طبيعية: كصوت الحجر والحديد والخشب والرعد والرّيح.

- آليّة: كصوت الطبل والبوق والرّم.

## ب- تعريف الحركة والسكون:

تفطن إخوان الصفا إلى العلاقة التلازمية الوثيقة للحركة بالمكان والزمان، إذ عرفوا الحركة بأنّها التّقلّة من مكان إلى مكان في زمان ثان، بينما السكون هو الوقوف في المكان الأول في الزمان الثاني. كما صنّفوا الحركة إلى نوعين: سريعة وبطيئة، فالحركة السريعة هي التي يقطع المتحرّك بها مسافة بعيدة في زمان قصير، أما الحركة البطيئة فهي التي يقطع المتحرّك بها مسافة أقلّ منها في ذلك الزمان بعينه<sup>(3)</sup>

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) م. ن، ص 67.

(3) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا"، تحقيق: بطرس البستاني، ج1، ص 73.

بناء على هذا التعريف يشير إخوان الصفا إلى ضرورة التناسب والتقارب بين الحركة والسكون في الأنغام الموسيقية لكي تكون جيدة ومؤثرة "لأن جودة الذوق في المسامع، هي معرفة كميّة الأزمان التي بين النغمتين، وما بين أزمان السكونات وبين أزمان الحركات من التناسب والمقدار"<sup>(1)</sup>

ولإثبات ذلك يستعملون القياس المنطقي (قياس السمعيّات على المرثيَّات)، لكي يستنتجوا "أنّ القوة الباصرة أيضا، لا تقدر أن تعرف مقدار أبعاد ما بين المرثيَّات، إلّا إذا كانت متقاربة في الأماكن"<sup>(2)</sup>.

يعتبر إخوان الصفا أنّ الموسيقى موجودة في عالم الكون والأفلاك إذ هي في نظرهم حالة من التناسب والتوازن والانسجام توحد بين كل الموجودات، ويستعملون لإثبات ذلك حجة حسية لتقريب المجرّد إلى الأذهان والعقول "فلما وجد في عالم الكون حركات منتظمة لها نغمات متناسبة، دلّت على أنّ في عالم الأفلاك لتلك الحركات المنتظمة المتصلة نغمات متناسبة مفرحة لنفوسها، ومشوقة لها إلى ما فوقها، كما يوجد في طباع الصبيان اشتياق إلى أحوال الآباء والأمهات"<sup>(3)</sup>

فغاية الموسيقى في نظر إخوان الصفا هي إخراج النفوس من عالم الكون والفساد وتخليصها من أسر الطبيعة المادية لتلتحم بعالم الأفلاك والأرواح<sup>(4)</sup>.

### 3- النسبة عند إخوان الصفا:

يرى إخوان الصفا أن التناسب والتناسق الهندسي هدف أسمى مطلوب في كل المصنوعات والمركبات والمؤلفات، ويدعمون رأيهم بحجة حسية طبيعية، وهي جسم الإنسان وبنية هيكله، إذ تتناسب كل أعضائه من حيث الطول أو العرض أو الصغر أو الضخامة "فقد تبين، إذا بما ذكرنا أن أحكم المصنوعات وأتقن المركبات وأحسن المؤلفات، ما كان تركيب بنيته وتأليف أجزائه على النسبة الأفضل"<sup>(5)</sup>.

وقد قسم إخوان الصفا النسبة إلى ثلاثة أنواع:

أ- نسبة بالكمية وتسمى نسبة عددية.

ب- نسبة بالكيفية وتسمى نسبة هندسية.

ج- نسبة بهما معا (نسبة تأليفية وموسيقية).

وقد اعتمد إخوان الصفا لاستخراج قانون النسبة مبدأ استخراج المجهولات من المعلومات العددية أو الهندسية من المعلومات وذلك عن طريق قياس المعلوم على المجهول "ومن خاصية هذه النسبة، أنه متى كان إثنان منها معلومين والثالث مجهولا، يمكن أن يعلم ذلك المجهول من المعلومين، فبابه أن يضرب أحد المعلومين في نفسه ويقسم المبلغ على الآخر، فما خرج فهو ذلك المجهول المطلوب"<sup>(6)</sup>

(1) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(2) م. ن، ص. ن.

(3) م. ن، ص 76.

(4) Voir : Fadlou Shehadi, **Philosophies of Music in Islam**, Leiden. New York. Köln: Brill, 1995, P: 34-35.

(5) إخوان الصفا، رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، تحقيق: بطرس البستاني، ص 76.

(6) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا"، تحقيق: بطرس البستاني، ج 1، ص 93.

وقد اعتبر إخوان الصفا أن العناصر أو الأركان الأربعة للكون (النار والهواء والماء والأرض) تبدو متنافرة ومتضادة الطباع، ولا يمكن أن تجتمع وتتألف إلا على نسبة متوازنة ومتناسقة، واستنتجوا أن هذه القاعدة الكونية العامة ستتجلى في مختلف مجالات الوجود.

• **التناسب الموسيقي:** ويتجلى من خلال ضرورة التأليف بين الأنغام المتفاوتة والمتباينة (رقيقة-خفيفة/غليظة-ثقيلة) على نسب معينة من أجل تحقيق الامتزاج والاتحاد بينها

• **التناسب الخطي:** تظهر حروف الكتابة مختلفة الأشكال متباينة الصور، ولكن بفضل وضعها وتنسيقها بنسبة وتقدير معين إلى جانب بعضها البعض، نحصل على خط جيد وجميل

• **التناسب اللوني:** تبدو الألوان مختلفة متضادة، ولكنها إذا وضعت على نسبة وقدر معين تحصلنا على تناسق لوني، ينتج مظهرا حسنا وجميلا

• **التناسب الكيميائي:** إن المواد الكيميائية مختلفة ومتنافرة من حيث تركيبها وخصائصها، فإذا أردنا أن نصنع منها أدوية، يجب أن نركب على نسب ومقادير محددة ومعلومة حتى تصير أدوية نافعة

#### الفصل الثاني: هيئات وكيفيات حضور المنطق في رسائل إخوان الصفا

سنتم في هذا الفصل بعنصرين رئيسيين وهما: هيئات وكيفيات حضور المنطق في النظر إلى الطبيعة المادية ثم هيئات وكيفيات حضور المنطق في النظر إلى ما وراء الطبيعة.

#### 1- هيئات وكيفيات حضور المنطق في النظر إلى الطبيعة المادية:

اعتمد إخوان الصفا في مجمل نظرتهم إلى الطبيعة على المنطق العلمي القائم على الملاحظة والتحليل ثم الاستنتاج، وكذلك على القياس الأرسطي المنطقي المنتج، القائم على مقدمات صحيحة، تؤدي بدورها إلى نتائج صحيحة<sup>(1)</sup>. وقد ارتكز إخوان الصفا على الملاحظة العلمية في رصد الأفلاك، للتوصل إلى تقرير أن الكواكب "أجسام كريات مستديرات مضيئات"<sup>(2)</sup>

وهو رأي يقترب كثيرا من التعريفات العلمية الحديثة للكواكب والنجوم، وإن كانوا لا يميزون بين النجم المضيء بذاته والكوكب الذي يعكس الضوء الواردة إليه، نظرا إلى عدم توفر أجهزة الرصد الفلكي الحديثة في ذلك العصر.

وقد استطاع إخوان الصفا إثبات كروية الأرض قبل "ماجلان" بقرون عديدة، كما ألمحوا إلى قوة الجاذبية التي تمسكها في الفضاء بقولهم "والأرض جسم مدور مثل الكرة، وهي واقفة في الهواء، بأن الله يجمع جبالها وبحارها وبراريها وعماراتها وخرابها"<sup>(3)</sup>

وقد تجاوزوا بذلك النظرة اليونانية القديمة للأرض (شكل مسطح). ودحضوا الرأي السائد بأن سطح الأرض من الجانب المقابل لموضعنا، هو أسفل الأرض، وقد استعملوا حججا هندسية منطقية تبين أن أسفل الأرض بالحقيقة، هو نقطة وهمية في عمق الأرض، وهي مركزها باعتبار أن الأرض كروية الشكل، واستنتجوا أن هذه النقطة، ذات بعد ثابت عن سطح الأرض من أي جانب كان منها. وبينوا - اعتمادا على حجة الملاحظة العلمية المنطقية - أن الإنسان يكون ثابتا على الأرض، في أي جانب

(1) أرسطو، "منطق أرسطو"، تحقيق: عبد الرحمان بدوي، ج 1، ص 165.

(2) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا"، تحقيق: بطرس البستاني، ج 1، ص 37.

(3) المصدر نفسه، ص 56.

كان منها: رأسه إلى السماء وقدماه أسفل نحو مركز الأرض "واعلم يا أخي أن الإنسان، أي موضع وقف على سطح الأرض، من شرقها أو جنوبها أو شمالها، أو من هذا الجانب أو من ذلك الجانب وقوفه حيث كان، فقدمه أبدا يكون فوق الأرض ورأسه إلى فوق مما يلي السماء، ورجلاه أسفل مما يلي الأرض".<sup>(1)</sup>

ويمكننا أن نستنتج من كلامهم هذا، إرهافات أولية بقانون الجاذبية الذي سيتبلور فيما بعد مع العالم "إسحاق نيوتن". كما يعتمد إخوان الصفا قانون السببية في تفسيرهم للتركيب الجيولوجي للأرض وسبب ثباتها في الفضاء، وقد أوردوا في ذلك عدة أقوال سابقة مأخوذة عن اليونانيين، لكنهم يغلبون الرأي القائل بأن "مركز الجذب" أو الجاذبية بمصطلحنا الحديث يقع في مركز الأرض، وهو الذي شكّل كروية الأرض وحدّد طبقاتها الجيولوجية (نواة مكونة من الحديد المصهور ثم غلافات مكونة من المعادن الأخف منه) وهو لعمرى، سبق علمي لم تتوصل إليه البشرية إلا مع تطور العلوم الجيولوجية في العصور الحديثة. "لأنه لما كان مركز الأرض، مركز الفلك أيضا، وهو مغناطيس الأثقال، وأجزاء الأرض لما كانت كلها ثقيلة، انجذبت إلى المركز، وسبق جزء واحد وحصل في المركز، ووقفت باقي الأجزاء حولها، يعني حول النقط، يطلب كل جزء منها المركز، فصارت الأرض بجميع أجزائها كرة واحدة، بذلك السبب".<sup>(2)</sup>

كما توصل إخوان الصفا اعتمادا على المنهج العلمي القائم على الملاحظة والتحليل فالاستنتاج إلى أن العناصر الأربعة المكوّنة للكون المادي قد تموضعت في الكون حسب أوزانها بتأثير قانون الجاذبية أو "قوة الجذب" حسب تسميتهم متّخذة الترتيب التالي: الأرض-الماء-الهواء-النار، وقد استعملوا القياس المنطقي لإثبات أن مواضع الكواكب في الفلك (الكون) تخضع إلى نفس العلة والسبب، وهو خفة مادتها أو كثافتها "وذلك أن الباري -عزّ وجلّ- جعل لكل جسم من الأجسام الكليات، يعني النار والهواء والماء والأرض، موضعا مخصوصا هو أليق المواضع به، وهكذا القمر وعطارد والزهرة والشمس والمريخ والمشتري وزحل، جعل لكل واحد منها موضعا مخصوصا في فلكه هو ثابت فيه، والفلك يديره معه، وهذا القول أشبه الأفاويل بالحق، لأن هذه العلة مستمرة في ترتيب الأفلاك السبعة والكواكب الثابتة والسيارة".<sup>(3)</sup>

وهذا يقترب كثيرا من تفسيرات علم الفلك الحديث لمواقع كواكب مجموعتنا الشمسية، حسب المادة المتكونة منها (كواكب حجرية/ كواكب غازية) ويمكن أن نستنتج من هذا اقتناع إخوان الصفا بوحدة القوانين والنواميس الكونية، وإيمانهم بالنظام الكلي الذي ينتظم الوجود.

## II- هيئات وكيفيات حضور المنطق في النظر إلى ما وراء الطبيعة:

عند النظر في الماورائيات سيعتمد إخوان الصفا أساسا على القياس البرهاني، لأن هذا المجال يدرس أشياء لا تعلم بالحواس، لذا كان لزاما الاستدلال بالمعلوم على المجهول، والبرهنة بإطلاق حكم الجزء على الكل<sup>(4)</sup>، وسنهتم في هذا القسم بمسألة تجلّي فيها استعمال المنطق البرهاني لدى إخوان الصفا بوضوح وهي مسألة تفسير نشوء العالم.

\* مقدمة أولى: لكل سبب مسبّب، ولكل علة معلول

\* مقدمة ثانية: لا يمكن أن تكون سلسلة العلل والمعلولات - من حيث المنطلق - ممتدة إلى ما لا نهاية

(1) م. ن، ص 57.

(2) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا"، تحقيق: بطرس البستاني، ج1، ص 57.

(3) المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

(4) أرسطو، "منطق أرسطو"، تحقيق: عبد الرحمان بدوي، ج2، ص 329.

\* نتيجة: لا بد من وجود علّة أولى نتجت عنها بقية العلل، وهو الخالق والمبدع الأول (الله)

وهذا يقدم إخوان الصفا دليلا عقليا برهانيا على وجود الله، وهو عبارة عن مقدمات صحيحة تؤدي إلى استنتاج صحيح. ويرى إخوان الصفا، أن الله خلق الأشياء دفعة واحدة بالقوة في إبداعه الأول، ثم أخرجها من القوة إلى الفعل، الشيء بعد الشيء، وهم بذلك يتبنون فكرة "الفيض أو الصدور" والتي تحمّل العقل الأول، الذي أبدعه الله، مسؤولية فيض باقي الموجودات وترتيبها، ومنحها درجة الكمال، طبقا لمنزلتها وامتدادها<sup>(1)</sup>

وبناء على ذلك فأول مراتب الموجودات - في نظرهم - بعد الله هي العقل الفعال الذي صدر عن الله مباشرة بطريق الإبداع، ثم فاضت النفس الكلية بواسطة العقل الفعال، ثم فاض عن النفس الكلية "الهيولي الأولى" ويقصدون بها المادة، وهكذا تتدرج الموجودات بعضها عن بعض بطريق الفيض، فكل موجود تام فإنه بفيض منه على ما دونه فيض ما، والمثال في ذلك النار وما يفيض منها على ما حولها من الحرارة والتسخين للأجسام القريبة منها، وهذا الفيض مستمر وغير منقطع كما يفيض من عين الشمس النور والضياء، فمتى انعدمت الشمس انعدم النور والضياء، كذلك إذا أمسك الله فيضه عن العالم واتصاله المستمر به انعدم وتلاشى دفعة واحدة "إنه مادام الفيض على المفاض عليه متواترا ومتصلا، فإنه باق على ما هو به، فإن قصر عنه بطل وجوده"<sup>(2)</sup>

ويرى إخوان الصفا أن هناك تناسقا بين العالمين العلوي والسفلي، وهو ناتج عن حكمة إلهية دبرت الأمور ونظمتها، حيث يبدو جسم العالم بأسره شبيها بجسم إنسان تام الأعضاء، كما أن جسم الإنسان شبيهه بالعالم أجمع، وبذلك فقد نظروا إلى العالم باعتباره وحدة حية متكاملة ونابضة بالحياة "إن العالم إنسان كبير، والإنسان عالم صغير"<sup>(3)</sup>

## الباب الثاني: وظائف المنطق والرياضيات في رسائل إخوان الصفا

### الفصل الأول: الوظيفة التصحيحية (التأويل: الظاهر والباطن)

وظف إخوان الصفا الرياضيات والمنطق لخدمة علم التأويل من أجل تصحيح المفاهيم الدينية الإسلامية، وتعد من الدعائم المتينة التي تركز عليها معتقداتهم وعلومهم الفلسفية. والتأويل عند إخوان الصفا هو العلم الباطني للقرآن، ويقوم على الاستدلال بالمحسوسات على المعقولات، وبالمعلوم على المجهول، من أجل التوفيق بين الظاهر والباطن وبين الشريعة والفلسفة، فكل شيء لدى إخوان الصفا له ظاهر وباطن، وبالتالي فإن للشريعة في نظرهم معنيان: باطني وظاهري.

المعنى الباطن هو المعنى الحقيقي، وهو متفق مع معطيات العلم والحكمة وتتوصل إليه بواسطة التأويل، أما المعنى الظاهر فمجعلول للعامّة، وهو متناسب مع بساطة أفهامها، كما أن الظاهر عند إخوان الصفا حجاب يستر الباطن، لذا لا يجب الوقوف عنده بل تجاوزه باستعمال التأويل المرتكز على العقل والمنطق، إذ يقولون "فظواهر الأمور قشور وعظام، وبواطنها لبّ ومخّ"<sup>(4)</sup>.

وبناء على هذا أول إخوان الصفا المفاهيم الإسلامية تأويلا رمزيا، إذ اعتبروا البعث بعد الموت مقتصرًا على النفوس دون الأجساد، كما أن الملائكة في نظرهم تعد قوى طبيعية موكّلة بحفظ العالم وتدير الكون بتفويض إلهي، واعتبروا كذلك أن

(1) فؤاد معصوم، "إخوان الصفا فلسفتهم وغايتهم"، ط1، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1998، صص: 210-211.

(2) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا"، تحقيق: بطرس البستاني، ج1، ص 350.

(3) المصدر نفسه، ص 188.

(4) م. ن، ج3، ص 449.

النار ما هي إلا "عالم الكون والفساد" بينما الجنة هي "عالم الأفلاك"، كما اعتبروا أن نعم الجنة قد وردت على سبيل التشبيه والتمثيل وليس التجسيم.

### الفصل الثاني: الوظيفة البنائية (بناء وإنتاج نظرية في المعرفة)

أقام إخوان الصفا نظريتهم في المعرفة على المنطق والرياضيات لما بينهما من صلة وثيقة، فالرياضيات تبحث في جوهر الوجود وتساعد على الانتقال من المحسوس إلى المجرد، أما المنطق فهو يبحث في المعاني الفعلية للعلم الطبيعي ويجلي تصور النفس للعلم الإلهي، وتبني نظرية المعرفة عند إخوان الصفا على النظر في جميع علوم الموجودات وبيان كيفية حدوثها ونشوتها من علة واحدة. وتشمل نظرية المعرفة عند إخوان الصفا عدة جوانب فكرية ومن أهمها: الجانب العددي والجانب الرمزي والجانب البيولوجي.

#### I- الجانب العددي:

اعتبر الفيثاغوريين (نسبة إلى فيثاغورث) أن سبيل معرفة الأشياء أوصافها، ولكن أكثر الأوصاف ليست عامة، وإنما هناك صفة واحدة عامة في كل شيء وهي: العدد، إذن فالعدد هو جوهر الوجود وحقيقته، ولما كانت الأعداد كلها متفرعة عن الواحد لأنها مهما بلغت من الكثرة فهي واحد متكرر، فإن الواحد هو أصل الوجود، عنه نشأ ومنه تكوّن<sup>(1)</sup>. وقد اتبع إخوان الصفا هذا الفكر الفيثاغوري وجعلوه لبنة أساسية في بناء مذهبهم الفلسفي وإقامة نظريتهم في المعرفة، وجعلوا للعدد المحلّ الأوسع في فلسفتهم واعتمدوا عليه في تفسيراتهم للأشياء، وأصبح الأساس في فهم الكون والوجود "نقول على رأي فيثاغورث الحكيم عن طبيعة العدد: من عرف العدد وأحكامه وطبيعته وأجناسه وأنواعه وخواصه، أمكنه أن يعرف كمية أجناس الموجودات وأنواعها"<sup>(2)</sup>.

#### II- الجانب الرمزي:

يمثل الجانب الرمزي عنصراً أساسياً في فلسفة إخوان الصفا بصفة عامة، وفي نظريتهم المعرفية والفلسفية على وجه الخصوص، فقد اعتمدوا في عرض فلسفتهم على الرموز والإشارات، واشتغلوا على علم التعمية أو التشفير وذلك بترميز الحروف والكلمات، اعتماداً على الأرقام والأعداد، بهدف الوصول إلى ما يضمرون، والتعبير عما يريدون بطريقة رمزية لا يفهمها إلا الخاصة، وقد كان هذا الأسلوب الرمزي مألوفاً لدى الباطنية والصوفية والشيعية "إننا لما بسطنا هذا الكتاب لإخواننا، وجب علينا أن نخفي ما نريد أن نكشفه، ونستر ما نريد أن نوضحه بعلامات يتعلق معناها، ويعتاص حلها، ويعسر فتحها إلا على من هو من أهلها"<sup>(3)</sup>.

#### II – الجانب البيولوجي:

يمكن أن نعتبر فلسفة إخوان الصفا في مجملها فلسفة بيولوجية، لأن أكثر ما يستشهدون به من وقائع مستمد من ميدان الحياة والطبيعة. والوجود في نظر إخوان الصفا تنتظمه حركتان حركة هابطة من الكائنات والموجودات العلوية إلى الكائنات والموجودات السفلية، وحركة صاعدة من الكائنات السفلية إلى الكائنات العلوية، ويرى إخوان الصفا أن الإنسان في تكوينه البيولوجي، نموذج مصغر للكون، ويعتبرون أن الكون في تركيبه نموذج كبير للإنسان، إذ أن هناك تشابهاً كبيراً بين تركيب

(1) فاروق عبد المعطي، "فيثاغورس فيلسوف علم الرياضيات"، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994، صص 26-30.

(2) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا"، تحقيق: بطرس البستاني، ج3، ص 178.

(3) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا"، تحقيق: بطرس البستاني، الرسالة الجامعة، ص 237.

جسد الإنسان وتركيب العالم، فالإنسان والكون يكوّنان وحدة عضوية يستحيل علينا أن نحللها إلى أجزاء مستقل بعضها عن بعض، حتى أنهم شبهوا العالم "كمثل شجرة واحدة، لها عروق وأعصاب، وعليها فروع وقضبان وعلى تلك الفروع والقضبان أوراق وتحتها نور وثمار لها لون ورائحة"<sup>(1)</sup>

واستطاع إخوان الصفا بذلك تصوير فكرة وحدة الوجود وتجسيمها في صورة وحدة عضوية تضم الكون كله في كائن واحد، تجري فيه نفس كلية غير منقسمة، رغم ما يتشعب عنها من فروع، كما تفتن إخوان الصفا إلى أن الموجودات، وإن كانت مستقلة ومتميزة عن بعضها البعض، فهي تشترك في وحدة الصنعة ووحدة الهندسة الجزئية، إذ أن تركيب المادة هي واحدة رغم تشكلاتها المختلفة والمتنوعة، لأن لها صانعا ومبدعا واحدا "واعلم أن المعادن متصل أولها بالتراب وآخرها بالنبات، والنبات أيضا متصل آخره بالحيوان، والحيوان متصل آخره بالإنسان، والإنسان متصل آخره بالملائكة"<sup>(2)</sup>.

### الفصل الثالث: الوظيفة الإصلاحية

نظر إخوان الصفا إلى الفلسفة نظرة أوسع ممن سبقهم من الفلاسفة، فقد استطاعوا الجمع بين الجانب النظري وهو حب الحكمة والسعي إلى البحث عن الحقيقة والجانب العملي وهو تطبيق هذه المعرفة في الواقع، وربطها بمقتضيات العلم والمجتمع، وقد اعتمد إخوان الصفا في ذلك المنهج الرياضي المنطقي من أجل "تطهير الشريعة بالفلسفة" وتصحيح المفاهيم الدينية السائدة، وبناء نظرية علمية عقلانية متكاملة في المعرفة، مما سيمهد الطريق إلى التغيير وإصلاح المجتمع<sup>(3)</sup>. ويمكننا تصنيف الأهداف الإصلاحية لإخوان الصفا إلى صنفين: هدف أخلاقي اجتماعي ظاهر وهدف سياسي باطن لا يمكن التوصل إليه إلا عبر القراءة المعمقة لرسائلهم.

#### أ- الهدف الظاهر: (هدف أخلاقي اجتماعي)

ويتجلى هدف إخوان الصفا الظاهر في سعيهم إلى إقامة مدينة فاضلة، وقد تصوّروا هذه المدينة الفاضلة تصوّرا روحانيا مجردا فهم يتخيلونها "مرتفعة، عالية في مملكة صاحب الناموس الأكبر، لكي تشرف على سائر المدن والأمصار في كل الأوقات، وتسيّد المدينة على الصفا والتعاون بين أهلها، ليتحقق الكمال والهدف الأقصى، وهو الخلود في النعيم"<sup>(4)</sup>

وقد اهتم إخوان الصفا بالأخلاق كسلوك عملي (فردى وجماعي) بغية إشاعة الاستقرار داخل المجتمع وإقامة مدينتهم الفاضلة، واستعملوا نظرية النسبة الرياضية للتوصل إلى فكرة "الوسطية الأخلاقية" وهي انعكاس لتلك الوسطية العامة الشاملة السائدة في الكون، وهي سرّ تناسقه وانسجامه. فالفضيلة في نظرهم وسط بين رذيلتين، وفي هذا السياق يعرّف إخوان الصفا العدل بأنه ما كان متوسطا بين ضدين، فالعدل في السياسة عندهم ما "لم يمل إلى عبوس موحش ولا ملق مدهش، والعدل في البلاغة هو التوسط بين الإيجاز المخلّ والإطناب الممل"<sup>(5)</sup>

(1) المصدر نفسه، ج3، ص 216.

(2) م. ن، ج2، ص 277.

(3) Voir : Albert Nader, *Courants d'idées en Islam du sixième au vingtième siècle*, Paris : Médiaspaul, 2003, P : 93-94.

(4) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا"، تحقيق: بطرس البستاني، ج5، ص 171.

(5) المصدر نفسه، ج1، ص 42.

كما يرى إخوان الصفا ضرورة انتقاء سكان هذه المدينة على أساس معارفهم الروحانية والأخلاقية أولا، ولكن دون إغفال المعارف الطبيعية والمادية "وينبغي أن يكون أهل هذه المدينة قوما أختارا حكماء فضلاء مستبصرين بأمور النفوس وحالاتها، وما يتبع ذلك من أمور الأجساد وحالاتها"<sup>(1)</sup>

## II-الهدف الباطن: (هدف سياسي)

لا يصح إخوان الصفا بهذا الهدف بشكل ظاهر في رسائلهم، لأنه ورد مموها اعتمادا على أسلوب رمزي يحتمل التأويلات المختلفة، ولكننا نستشفه ونتبينه عبر القراءة المعمقة والمتأنية، ففي رسائل إخوان الصفا تعاطف ضمني مع الدعوة العلوية وتصويب لها ومسعى جاد لإقامة نظام سياسي جديد، كما نستبطن من خلال رسائلهم نقمة على السلطة القائمة (الحكم العباسي) ورغبة في الثورة عليها وإقامة حكم عادل قائم على قيم الأخلاق والفضيلة "وينبغي أن يكون أساس هذه المدينة على تقوى الله، كيلا ينهار بناؤها، وأن يشيد بناؤها على الصدق في الأقاويل والتصديق في الضمائر، وتتم أركانها على الوفاء والأمانة، كيما تدوم"<sup>(2)</sup>

كما يوظف إخوان الصفا علم التنجيم للإقناع بأن تغير الدول وتبدل الأحوال سنة كونية دائمة ودائبة "إن الدور إذا بلغ العقرب، يحل بالعالم مصائب لا تحصى، وتفسد أحوال الملوك، وتعم الحروب، وتسقط هيبة السلطان الذي في يده زمام الشريعة، ويطمع سائر الملوك فيه، ويصير الحكم عند ذلك لدولة إخوان الصفا، وتكون مدة تسلطهم مائة وتسعا وخمسين سنة."<sup>(3)</sup>

## خاتمة:

تعد رسائل إخوان الصفا مزيجا من الفلسفة والرياضيات والمنطق بغرض إنتاج نظرية جديدة في المعرفة وتمثل الوجود، وبعد دراستنا لكيفيات ووظائف الرياضيات والمنطق في القسم الرياضي من هذه الرسائل، توصلنا إلى جملة من النتائج:

- جعل إخوان الصفا الرياضيات في المرتبة الأولى من العلوم الفلسفية وهذا يدل على المكانة المحورية التي تحتلها الرياضيات في فلسفتهم وفكرهم، كما أنهم يدرجون الموسيقى ضمن علم الرياضيات باعتبارها مبنية على قواعد وقوانين منظمة قائمة على التناسب والتناسق الرياضي.

- قسم إخوان الصفا الرياضيات إلى نوعين: رياضيات ذهنية (علم العدد) ورياضيات عملية تطبيقية (الهندسة والموسيقى) وقد انتهوا بذلك إلى العلاقة الوثيقة بين الرياضيات كعلم مجرد (منهج العلوم) وتطبيقاتها العملية في المجالات المختلفة (الهندسة، الطبيعيات، البيولوجيا).

- يعتبر إخوان الصفا أن أكثر معلومات الإنسان مكتسب بطريق القياس، والقياس عندهم نوعان: قياس منطقي وقياس برهاني.

(1) م.ن، ج5، ص 691.

(2) م.ن، ص.ن.

(3) إخوان الصفا، "رسائل إخوان الصفا وعلان الوفا"، الرسالة الجامعة، ص 399.

- اعتمد إخوان الصفا في تحليلهم للظواهر الطبيعية على القياس المنطقي المنتج والقائم على مقدمات صحيحة، لأن هذه الظواهر معلومة بالحواس ويمكن فيها قياس المعلوم على المعلوم، أما عند النظر فيما وراء الطبيعة، فقد ارتكزوا أساساً على القياس البرهاني لأن هذا المجال يدرس ظواهر لا تعلم بالحواس، فكان لزاماً الاستدلال بالمعلوم على المجهول.
- توصل إخوان الصفا إلى أن مبدأ التناسب والتناسق الرياضي قانون كوني عام، يتجلى في مختلف مظاهر الوجود (التناسب الموسيقي، التناسب اللوني، التناسب الكيميائي).
- استخدم إخوان الصفا قانون السببية (لكل سبب مسبب) وكذلك قانون العلية (ارتباط العلة بالمعلول) لتفسير عديد الظواهر الطبيعية، وكذلك لإثبات وجود الله (العلّة الأولى المنتجة لكل العلل).
- إن حذق استعمال الرياضيات والمنطق مكن إخوان الصفا من اكتشاف النواميس الكونية الفاعلة في الموجودات، ومن بينها سنّة التدافع والصراع والتجاذب المؤدية إلى خلق التوازن والتآلف والتناسق بين المتنافرات.
- اعتمد إخوان الصفا في فلسفتهم الرّؤية الرّياضية للوجود، فالأعداد في نظرهم هي انعكاس للموجودات في هذا العالم، ومن خلال دراسة الرياضيات يمكن فهم كلّ مكونات الوجود.
- بواسطة القياس البرهاني، استدللّ إخوان الصفا بعلم العدد لإثبات وحدانية الله، فالواحد الذي لا يتجزأ، هو أصل الأعداد كلّها، وهو انعكاس للخالق والإله الواحد.
- إن تعمق إخوان الصفا في دراسة العدد واستعمال الرموز والإشارات، مكّتهم من وضع الأسس الأولى لعلم التعمية أو التّشفير، الذي أصبح في عصرنا الحالي اختصاصاً علمياً متطوراً، يستعمل في العديد من المجالات (العسكرية والإعلامية والاتصالية).
- إن الهدف الأولي من دراسة المنطق والرياضيات عند إخوان الصفا هو فهم العلوم الطبيعية، والترقي بعد ذلك إلى العلوم الإلهية التي يعتبرونها منتهى "المعارف الحقيقية".
- عبر بحث إخوان الصفا في التناسب والتناسق بين الألحان والأنغام، وضعوا الأساس والمبادئ الأولية للموازن الموسيقية (السلم الموسيقي).
- لإخوان الصفا أهداف أخلاقية ظاهرة، تتمثل في إصلاح المجتمع وإقامة المدينة الفاضلة، وأهداف سياسية باطنة تتمثل في القضاء على دولة أهل الجور والفساد (الدولة العباسية) وإقامة دولة أهل الخير، بدلاً منها، وهي دولة إخوان الصفا.
- يعتبر إخوان الصفا أن الفلسفة، بما تحويه من آليات الفهم الصائب ومنهج التفكير السليم (الرياضيات والمنطق) هي المنهج العقلاني لفهم الدين الإسلامي، وتطهير الشريعة الإسلامية من الجهل والخرافة.
- إن تركيز إخوان الصفا على استعمال المنهج الرياضي والمنطقي في رسائلهم، نموذج ودليل على أن الحضارة العربية الإسلامية حضارة قائمة، في أساسها على العقل والمنطق في فهم الدين الإسلامي وبناء تصور متكامل للوجود وللكون، رغم ما شابها أحياناً من مظاهر التقليد والجمود.

#### قائمة المراجع:

- 1- إخوان الصفا: "رسائل إخوان الصفا وعلان الوفا"، تحقيق: بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، 1957.
- 2- أرسطو: "منطق أرسطو"، تحقيق: عبد الرحمان بدوي، دار القلم، بيروت، 1980.



3- فاروق عبد المعطي: " فيثاغورس فيلسوف علم الرياضيات "، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994.

4- فؤاد معصوم: " إخوان الصفا فلسفتهم وغايتهم "، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، 1998.

5- Albert Nader: " **Courants d'idées en Islam du sixième au vingtième siècle** ". Paris : Médiaspaul, 2003.

6- Fadlou Shehadi: " **Philosophies of Music in Medieval Islam** " . Leiden. New York. Koln: Brill, 1995.



## سياسة الاستعمار الفرنسي تجاه ظاهرة التسول والفئات المتسولة في المدن التونسية

عبد العزيز بن عبد النبي، باحث دكتوراه/جامعة صفاقس، تونس

### ملخص

ارتبط البروز الكبير والتاريخي لظاهرة التسول والفئات المتسولة في المدن التونسية زمن الحماية الفرنسية بالمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والهيكلية التي أحدثها الحضور الاستعماري الفرنسي مع تواتر الأزمات المناخية. هذا التنامي لظاهرة التسول داخل المدن أفرز إشكاليات ديمغرافية واجتماعية وأمنية وصحية، وجعلها تحظى بمكانة مهمة ضمن السياسات القانونية والأمنية والاجتماعية للحكومة الفرنسية بتونس حيث أسست السياسة الاستعمارية التي راوحت بين الشدة واللين لإطار قانوني وتشريعي في مجابهة الانتشار الكبير للفئات المتسولة في شوارع المدن التونسية. فمنذ السنوات الأولى للاستعمار انصبحت الجهود الأمنية الفرنسية نحو تطبيق صارم لإجراءات الترحيل القسري للشحاذين نحو مواطنهم الأصلية لتنتقل منذ ثلاثينات القرن 20 نحو تدعيم سياسة تعاملها مع هذه الفئات المتسولة بإجراءات اجتماعية ومجهودات إغاثية. إلا أن هذه السياسات المتبعة في مجابهة ظاهرة التسول شابتها عديد التجاوزات والنقائص والعقبات التنظيمية جعلها دون فاعلية تذكر أمام تزايد كبير في أعداد الشحاذين.

الكلمات المفتاحية: ظاهرة التسول، المتسولون، المدن التونسية، الاستعمار الفرنسي

### مقدمة

تميزت السياسة الفرنسية بتعدد آلياتها في معالجة ظاهرة التسول وتزايد أعداد المتسولين في المدن التونسية الكبرى، فقد فرض تطور سياق ممارسة الشحاذة على سلطة الحماية اتخاذ عدة إجراءات وتدابير مزجت بين ما هو قانوني ووردي عقابي وبين ما هو وقائي إغاثي واجتماعي. واعتبارا إلى أن الاستعمار الفرنسي في تونس لم يقطع نهائيا مع المنظومة القانونية التونسية الصادرة أساسا عن الباي بل اتخذها مصدرا ومرتكزا لسن تشريعاته القانونية المكافحة للتسول والمتسولين في الحواضر التونسية الكبرى، فقد حددت الأوامر العلية والمراسيم الحكومية والفرنسية - رغم محدودية تطبيقها على أرض الواقع وما شابهها من انتقادات من قبل عديد المشرعين الفرنسيين- طبيعة الإجراءات العقابية تجاه ممتني الشحاذة مثل الحكم القضائي بالسجن والخطية المالية دون أن تصل إلى الصبغة الجنائية<sup>1</sup>، ثم التدابير الاحترازية للحد من تكرار ممارستها أو العودة إليها والتي انحصرت أساسا في عمليات الترحيل القسري للمتسولين نحو مواطنهم الأصلية حفاظا على السلامة الصحية والأمنية لسكان المدن الكبرى واعتمادا على التدخل الأمني والعسكري الفرنسي المباشر للإشراف على تنفيذ هذه الآلية الردعية.

<sup>1</sup> عبد الستار (فوزية)، مبادئ علم الإجرام وعلم العقاب، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 1985، ص 256.

طرحت الإجراءات العقابية والردعية عديد التساؤلات حول مدى نجاعتها في الحدّ من تزايد أعداد المتسولين داخل المدن التونسية مما دفع الإقامة العامة الفرنسية بتونس إلى محاولة انتهاج سياسة المساعدات الاجتماعية والإعانات الوقائية خصوصا خلال الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والمناخية التي ضربت البلاد التونسية بداية من الثلاثينات مع انتشار للأوبئة والمجاعات دون التخلي عن الإجراءات الأمنية والردعية والتي بدورها كانت محل نقد لاذع نتيجة فاعليتها المحدودة وإخضاع الفئات المتسولة إلى الإجراءات الأمنية أكثر منه إلى الدعم الإغاثي العيني والمادي.

## 1- الإجراءات القانونية والقضائية

انتهجت السلطات الاستعمارية الفرنسية منذ تواجدها المباشر في تونس سياسة التآطير القانوني لمجابهة ظاهرة التسول والفئات الممارسة لها، حيث سارعت منذ السنوات الأولى إلى إصدار التشريعات القانونية والأوامر العلية والقرارات الإدارية والبلدية لمنع وتحجير ممارسة الشحاذة داخل المدن التونسية والتي كان منطلقها الأول الأمر العلي الصادر بتاريخ 1 أفريل 1885 الذي حدد إجراءات تنقل واستقرار المجموعات الريفية حول مدينة تونس ضمنا وحفاظا على الأمن العام<sup>1</sup> لتصنف ظاهرة التسول في المدونات القانونية الفرنسية في خانة الجح التي تستوجب أحكاما قضائية وعقوبات جزائية<sup>2</sup>.

وأمام تنامي ظاهرة التسول والانتشار المتواصل للشحاذين صدر القرار الأول لبلدية الحاضرة تونس بتاريخ 5 ديسمبر 1895 بتحجير ممارسة التسول في فضاءات محددة تشمل الأحياء الأوروبية<sup>3</sup> تلتها قوانين جزائية ترتيبية لتتوج بصور أمر 23 جانفي 1902 الذي يعتبر الأكثر شمولية وتفصيلا وتمكين رؤساء البلديات من استصدار قرارات لمكافحة التسول في شوارع المدن<sup>4</sup>، وهو ما سارع بتنفيذه المجلسين البلديين لمدينتي سوسة و صفاقس بإصدارهما لقرارات متتالية لمنع تواجد وتنقل واستقرار الشحاذين في المدينة الأوروبية والعربية وكذلك بالأماكن العمومية والمقابر والحدائق<sup>5</sup>. والجدير بالذكر أن صدور القوانين والقرارات اتخذ نسقا متقطعا وتصعيديا من خلال العقوبات المنصوص عليها لمقاومة ظاهرة التسول ومرتبطة في علاقة مباشرة بمدى استفحال هذه الظاهرة وتزايد عدد ممارسيها حيث نلاحظ توقفا شبه تام لصدور هذه القوانين والتشريعات منذ بداية العشرينات لتعود للصدور وبشكل متتالي منذ أواسط الثلاثينات<sup>6</sup> بعد أن شهدت البلاد التونسية انتشارا وارتفاعا كبيرا في أعداد الشحاذين وتحديدًا بداية من سنة 1937 فصدر الأمر العلي بتاريخ 3 أفريل 1939 الذي شدد على مضاعفة العقوبات المسلطة على ممتني التسول والمشجعين عليه<sup>7</sup> ثم أتبع بقرارات إدارية وبلدية وأمنية تقضي بملاحقة الشحاذين في جميع المدن التونسية والقبض عليهم<sup>8</sup>.

تميزت هذه التشريعات القانونية الفرنسية بنقائص عديدة وإشكاليات تطبيقية مختلفة جعلها منذ أوائل القرن 20 محل متابعة ونقد من بعض المشرعين الفرنسيين أهمها الدراسة القانونية للمحامي الفرنسي بتونس "كلوزيو ستيفانو" الذي استهلها

<sup>1</sup> الرائد الرسمي التونسي، 1 أفريل 1885.

<sup>2</sup> Colosio (Stefano), L'application du code pénal français en Tunisie et la législation Tunisienne relative à la mendicité, Tunis, 1903, p 9.

<sup>3</sup> الأرشيف الوطني التونسي، السلسلة M5، الصندوق 11، ملف 509، وثيقة عدد 15 بتاريخ 6 مارس 1902.

<sup>4</sup> نفس المصدر، س E، ص 620، م 13، م ف 30، و 3 بتاريخ 1 فيفري 1902.

<sup>5</sup> أرشيف بلدية صفاقس، قرار بتاريخ 1902 / قرار بتاريخ 20 فيفري 1910 / قرار بتاريخ 30 مارس 1918.

<sup>6</sup> (أ، و، ت)، س A، ص 4، م 18، م ف 1، و 88 بتاريخ 4 جوان 1935.

<sup>7</sup> (أ، و، ت)، س SG5، ص 61، م 1، م ف 14، و 1 بتاريخ 15 أفريل 1939.

<sup>8</sup> نفس المصدر، س A، ص 4، م 18، و 285 بتاريخ 5 ديسمبر 1940.

بتذكير السلطات الفرنسية العاجزة عن تطبيق قوانين منع التسول في المدن التونسية الكبرى، أن تونس تخضع لنظام الحماية وليست مستعمرة عسكرية: "أولا تونس بلد يخضع لنظام الحماية وليس لنظام عسكري... وفي ظل غياب قانون خاص صادر عن البرلمان الفرنسي ومعتمد من قبل السلطات التونسية، فإنه لا يمكن فرض تطبيق القوانين القمعية في تونس... نحن في حاجة إلى تدخل من قبل السلطات التشريعية المختصة"<sup>1</sup> وأعاد تأكيدها الكاتب الفرنسي "جورج ريكتنولد" في مقال نشره سنة 1935 بعنوان "سياستنا في تونس"<sup>2</sup>. هذه الصعوبات في تفعيل الإجراءات والآليات القانونية ازدادت تعقيدا مع تنامي الأزمات الاقتصادية والاجتماعية واستفحال ظاهرة التسول داخل المجتمع التونسي وفرضت على السلطات الفرنسية تغييرات في طريقة التعاطي مع الظاهرة بإتباع منهج التسامح واللامبالاة في التعاطي القضائي والعدلي مع جنحة التسول.

جدول عدد 1: مقارنة بين أعداد المحكومين قضائيا بتهمة التسول، تونس - الجزائر 1900-1940<sup>3</sup>

السنة	تونس	الجزائر
1900	19	235
1901	18	226
1902	18	211
1903	31	331
1904	50	800
1905	35	334
1906	16	206
1907	7	173
1908	9	198
1909	9	184
1910	19	178
1911	2	198
1912	7	166
1913	5	169
1914	3	137
1915	2	101
1916	4	107
1917	1	92
1918	2	87
1919	2	34

<sup>1</sup> Colosio (Stefano), L'application...op.cit, p 4.

<sup>2</sup> Rectenwald (Georges), «Notre politique en Tunisie, Question nord - africaines», revues des problèmes sociaux de l'Algerie, de la Tunisie et du Maroc, 1935, p 40.

<sup>3</sup> Compte Générale de l'Administration de la justice criminelle, France - Algérie - Tunisie, imprimerie nationale, Paris, 1900 à 1940.

211	0	1920
49	1	1921
63	2	1922
52	0	1923
62	0	1924
110	2	1925
60	1	1926
69	2	1927
49	1	1928
85	4	1929
64	2	1930
45	0	1931
62	2	1932
42	0	1933
67	0	1934
68	0	1935
66	0	1936
66	0	1937
33	0	1938
33	0	1939
31	0	1940

يمكن الاستنتاج انطلاقاً من أعداد المحكومين قضائياً بتهمة التسول أن السياسة الفرنسية الاستعمارية تجاه ظاهرة التسول والمتسولين انقسمت إلى مرحلتين تراوحت بين الشدّة واللين، فالمرحلة الأولى تنحصر زمنياً خلال العشرية الأولى من القرن 20 متميّزة بالشدّة بلغ فيها عدد المحكومين بجنحة التسول 50 شخصاً سنة 1904 - وهي سنوات ذروة موجة النزوح الأولى للأهالي نحو الحواضر التونسية الكبرى - و800 شخصاً في الجزائر<sup>1</sup>. أما المرحلة الثانية تنطلق منذ بداية العشرية الثانية من القرن 20، اتبعت أثناءها سلطات الحماية سياسة اللين لتبلغ حد اللامبالاة حيث انحصر عدد المحكومين سنوياً ما بين الصفر والاثنتين من المتهمين، بل إنه لم تسجل أي محاكمة للمتسولين خصوصاً منذ منتصف الثلاثينات علماً وأن هذه الفترة الزمنية قد شهدت بداية الارتفاع غير المسبوق في أعداد الشحاذين. وتجدر الإشارة إلى أن أغلب المحكومين بجنحة التسول هم من المتهمين بتكرار ممارسة الشحاذة والمواظبة على امتهاؤها أو ما يعرف قضائياً باسم "الجرم المكرر" علماً وأن مجمل الأحكام الصادرة ضد المتهمين تكون غالباً بالإيقاف الوقي وفي حالات قليلة بالسجن لمدة تتراوح بين 6 أشهر والسنة<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> Compte Générale...op.cit.

<sup>2</sup> (أ، و، ت)، س A، ص 4، م 18، م ف 2، و 65 بتاريخ 29 مارس 1941.

تعكس هذه السياسة الاستعمارية ووعي السياسيين الفرنسيين بأن تضخم هذه الظاهرة داخل المجتمع التونسي هي نتيجة حتمية للسياسات الفرنسية القائمة على التهجير القسري للأهالي والاستغلال والتفجير الممنهج للتونسيين، وأن التعامل القانوني الزجري والقضائي تجاه هذه الأعداد الضخمة من المتسولين لا مبرر له ولا أسباب موضوعية لإتباعه، بل يمكن أن يشكل خطرا على استقرار نظام الحماية في تونس إضافة إلى أن الحكومة الفرنسية في تونس أصبحت غير قادرة ماديا وأمنيا على استيعاب هذه الأعداد المتزايدة للشحاذين داخل السجون<sup>1</sup>.

أما بالنسبة إلى الجزائر وانطلاقا من نفس هذه المعطيات المسجلة في أعداد المحكومين قضائيا بتهمة التسول نستنتج أن مسألة التعامل القضائي الفرنسي تجاه الشحاذين لا يختلف كثيرا عن نظيرتها تونس-علما وأن الجزائر تخضع إلى نظام استعماري عسكري- فبالنظر إلى أعداد المحكومين سنويا بتهمة التسول مقارنة بإجمالي عدد سكان الجزائر<sup>2</sup> وإجمالي المحكومين في جرائم وجنح مختلفة<sup>3</sup>، فإن العدد يظل ضعيفا جدا ولا يختلف في نسبه الإجمالية عما تم تسجيله في البلاد التونسية. كما تذكر السجلات الخاصة بالأحكام والجرائم الصادرة عن إدارة العدالة الجنائية بفرنسا والجزائر وتونس أن البلاد التونسية لا تضم سوى محكمتين اثنتين متواجدين في كل من مدينتي تونس وسوسة يوكل إليهما النظر في مختلف الجنح والجرائم الواقعة في كامل أنحاء البلاد التونسية، في حين تضم الجزائر 17 محكمة مقسمة بين 3 أقاليم جغرافية ما ييسر عملية إحالة المتهمين ومحاكمتهم:

4 محاكم في الجزائر العاصمة / 6 محاكم في إقليم وهران / 7 محاكم في إقليم قسنطينة<sup>4</sup>.

بالرغم من الغياب الكلي للأحكام القضائية ضد الشحاذين- وهو ما أفقد النصوص التشريعية المتعلقة بمنع التسول قيمتها وفعاليتها القانونية والزجرية عبر عن ذلك التقرير الأمني الفرنسي الخاص بظاهرة التسول في مدينة تونس بتاريخ 29 مارس 1942 بالقول: "أصبح من النادر جدا تطبيق هذه النصوص التشريعية أمام المحاكم الفرنسية بتونس"<sup>5</sup>- فإنه لا يمكن لنا الجزم التام بتخلي السلطات الاستعمارية في تونس عن سياسة الردع القانوني ضد المتسولين، حيث تم التوجه نحو اعتماد آلية ردعية أخرى موازاة مع النصوص القانونية المحجّرة لممارسة التسول تقوم على تفعيل قرارات ترحيل الشحاذين المتواجدين والوافدين على المدن التونسية الكبرى نحو مواطنهم الأصلية.

## 2- سياسة الترحيل القسري

تعتبر سياسة الترحيل القسري للمتسولين آلية ردع قديمة أعيد استحداثها أثناء الفترة الاستعمارية لتتنزل في إطار مراقبة تنقل الوافدين البدو إلى الحواضر التونسية الكبرى والمحافظة على السلم الاجتماعي والأمن العام والمراقبة الصحية، وقد تم التنصيص على هذه الإجراءات والقرارات استنادا على الأمر العلي الصادر بتاريخ 1 أبريل 1885 إضافة إلى صدور القانون الخاص بتنظيم استقرار وتواجد الأجانب بالبلاد التونسية<sup>6</sup>، وقد تضمنت أغلب المراسلات والشكايات الموجهة إلى

<sup>1</sup> نفس المصدر، و 285 بتاريخ 5 ديسمبر 1940.

<sup>2</sup> تطور عدد السكان في الجزائر:

1911: 4741000 / 1921: 4923000 / 1931: 5588000 / 1936: 6201000 / 1946: 7460000

Annuaire statistique de la France, Paris, 1936 - 1946.

Tabutin (D), Vallin (J), La population de l'Algérie, CICRED, Paris, 1974, p 17.

<sup>3</sup> Compte Générale...op.cit.

<sup>4</sup> Compte Générale...op.cit.

<sup>5</sup> (أ، و، ت)، س، ص، 4، م، 18، م، 2، و 65 بتاريخ 29 مارس 1941.

<sup>6</sup> الرائد الرسمي التونسي، 16 أبريل 1898 / 20 جوان 1916.

المصالح الأمنية الفرنسية من قبل متساكني مدينة تونس منذ السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي مطالبات بفرض مراقبة شديدة على المجموعات النازحة وتنفيذ إجراءات الترحيل القسري في حق الممتهنين للتسول "كان من الواجب إراحة العباد والبلاد منهم وترحيلهم لعروشهم وإلزامهم بالإقامة بها."<sup>1</sup> ، وتفيدنا المصادر الأرشيفية وإلى حدود بداية القرن 20 أن العدد الأهم من المتسولين المرحلين هم من الأجانب وخصوصا ذوي الأصول الإيطالية بنسبة تتجاوز 70٪ من مجموع المرحلين الأجانب حسب إحصائيات 1913<sup>2</sup>. والسؤال المطروح هل كان لهذه الآلية الردعية جدوى في الحد من تواجد الشحاذين في المدن التونسية علما وأن عمليات الترحيل تشمل جميع الفئات الهامشية أم أنها تميزت بمحدودية فاعليتها متخذة إجراءات وترتيبات جديدة تماشيا مع تطور ظاهرة التسول؟

وفقا للمعطيات المصدرية فإن آلية الترحيل تميزت منذ اعتمادها بمحدودية التنفيذ والتطبيق حيث تفيد التقارير الأمنية الفرنسية عدم التزام الأهالي المرحلين من المتسولين بقرارات منع التنقل والترحال واستغلال جميع الظروف المناسبة للعودة إلى المدن سواء بصفة علنية ضمن أفواج النزوح المتتالية<sup>3</sup> أو بطرق سرية معللين ذلك بأعداء مختلفة منها ولادة ونشأة المتسولين المرحلين في الحاضرة<sup>4</sup> أو الإدعاء بالمجيء للتداوي أو زيارة مريض<sup>5</sup>. وشهدت عمليات الترحيل تراجعاً إبان الحرب العالمية الأولى لتتواصل بصفة تدريجية منذ أواسط العشرينات تزامنا مع ضعف تطبيق الإجراءات القانونية المنظمة لشروط التنقل<sup>6</sup> وفشل سياسة إعمار البوادي قصد ترغيب الأهالي للاستقرار فيها<sup>7</sup> ثم تضاعف موجات النزوح بداية من ثلاثينات القرن 20.

هذه السياسة القمعية لم تكن محل رضاء من طرف الأهالي ومن قبل بعض التونسيين الفاعلين في المجالس البلدية على غرار المدعو "توفيق الفندري" عضو مجلس بلدية صفاقس الذي طالب السلطات الفرنسية بضرورة التوقف عن طرد الأهالي خارج المناطق الحضرية للمدينة في انتظار ترحيلهم وتوفير الحد الأدنى من مستلزمات الإيواء والعيش واصفا هذه التجمعات الكبيرة من المحتاجين والمتسولين باسم "أحياء المحرومين والموتى"<sup>8</sup>. وقد استئنفت سلطات الحماية بعض الحالات المتسولة من الترحيل القسري وفق شروط محددة وهي كالآتي:

- المتسولين أصيلي مدينة طرابلس الليبية "الطرابلسية" غير القادرين ماديا ومعنويا على العودة إلى مواطنهم الأصلية.

- العائلات التي تمكن رئيسها من الحصول على عمل.

- العائلات المستقرة بالحاضرة وليست أصيلة البادية والأرياف أو العابرة أو تقطن معمرات مبنية من الحجارة أو من الطوب.

<sup>1</sup> (أ، و، ت)، س E، ص 551، م 2، م ف 2، و 17 بتاريخ 1898.

<sup>2</sup> Statistique Générale de la Tunisie, Tunis, 1913.

<sup>3</sup> (أ، و، ت)، س SG2، ص 196، م 1، و 64 بتاريخ 23 فيفري 1944.

<sup>4</sup> نفس المصدر، س E، ص 551، م 2، و 76 بتاريخ 8 ماي 1895.

<sup>5</sup> نفس المصدر، ص 4، م 18، م ف 3، و 5 بتاريخ 7 جوان 1945.

<sup>6</sup> نفس المصدر، س A، ص 2، م 30، م ف 1، و 54 بتاريخ 14 جوان 1919.

<sup>7</sup> نفس المصدر، س E، ص 234، م 3، و 11 بتاريخ 1920.

<sup>8</sup> (أ، ب، ص)، محضر مداوات المجلس البلدي بتاريخ 15 جويلية 1936، مداخلة توفيق الفندري.

- المصنفين ضمن الحالات الخاصة والاستثنائية مثل: النساء الحوامل في الأشهر الأخيرة، أباء وأمهات المرضى المعالجين بالمستشفى الصادقي والمسنون والعجز وقدماء المحاربين وأطفال الجمعيات والتكية والأشخاص المعتوهين المحالون للعلاج في مستشفى الأمراض الذهنية والنفسية بجهة منوبة.

- العائلات والأفراد أصيلي المناطق المجاورة للعاصمة تونس.<sup>1</sup>

- المتسولين المستقرين بأراضي الباي والمكفولين بحماية الأمراء.<sup>2</sup>

عرفت آلية ترحيل المتسولين إلى مواطنهم الأصلية منذ بداية أواسط الثلاثينات ترتيبات تنظيمية لتحديد المعنيين بالترحيل القسري والمستثنين منه بصيغة أكثر صرامة - خاصة إثر صدور تقرير أممي نصّ على أن نسبة 20٪ من الشحاذين المرحلين في شهر أكتوبر سنة 1937 قد عادوا إلى مدينة تونس<sup>3</sup> - لتشمل جميع الجوانب التشريعية والإغاثية والصحية والأمنية<sup>4</sup> وبصيف أكثر تشدداً خلال الأربعينات<sup>5</sup>. فعلى المستوى التنظيمي والتشريعي نصّت المراسيم والأوامر العلية على ضرورة التكامل بين جميع إدارات وأجهزة الدولة لتوفير الظروف المناسبة أمنياً وإغاثياً وصحياً للمرحلين وتلافي قدر المستطاع وقوع خسائر بشرية في صفوف المتسولين المطرودين والمرحلين<sup>6</sup>، إلا أن ذلك لم يمنع من وقوع حالات وفاة في صفوف الشحاذين المرحلين نتيجة لتعمد السلطات الاستعمارية مخالفة الترتيبات المنصوص عليها وعدم توفير مستلزمات السلامة والإغاثية الطبية والغذائية أثناء عمليات الترحيل<sup>7</sup>.

فقد نصت الأوامر على إبلاغ المتسولين المشمولين بقرار الترحيل قبل ثمانية أيام من يوم الانطلاق ثم تجميعهم مع عائلاتهم بين الساعة الرابعة صباحاً والساعة الخامسة صباحاً ليتم ترحيلهم سواء على متن الشاحنات بالنسبة للمرحلين نحو المناطق القريبة من المدينة<sup>8</sup> أو على متن قطارات السلع بالنسبة للمتجهين نحو الجهات الحدودية والمناطق الجنوبية للبلاد التونسية والتي حظي أهلها بأولوية الترحيل على أن يوزع عليهم الخبز طيلة الرحلة وعند الوصول<sup>9</sup>.

وتأكيداً على سعي السلطات الاستعمارية في المحافظة الإجبارية على سلامة الشحاذين المرحلين، أصدرت تقريراً تقييمياً تضمن ضرورة تفعيل القرارات القاضية بالإحاطة الطبية المستعجلة للفئات المتسولة والقيام بحملات تعقيم لأماكن سكنهم وإخضاعهم لحملات التلقيح ضد الأوبئة والأمراض المعدية قبل مباشرة عمليات الترحيل<sup>10</sup> وكذلك بإقامة مراكز ومخيمات للإيواء المؤقت في بعض مناطق العبور لتمكين الشحاذين المرحلين من الحصول على قسط من الراحة على أن لا تتجاوز مدة

<sup>1</sup> (أ، و، ت)، س A، ص 4، م 18، م ف 1، و 189 بتاريخ 11 مارس 1938.

<sup>2</sup> نفس المصدر، و 140 بتاريخ 17 جوان 1936.

<sup>3</sup> نفس المصدر، و 45 بتاريخ 11 نوفمبر 1937.

<sup>4</sup> نفس المصدر، س SG5، ص 136، م 1، م ف 4، و 7 بتاريخ 11 أبريل 1941.

<sup>5</sup> نفس المصدر، س A، ص 4، م 18، م ف 2، و 65 بتاريخ 29 مارس 1941.

<sup>6</sup> نفس المصدر، و 1 بتاريخ 3 أبريل 1939.

<sup>7</sup> نفس المصدر، م ف 3، و 143 بتاريخ 24 فيفري 1942.

<sup>8</sup> (أ، و، ت)، س E، ص 234، م 3، م ف 24، و 144 بتاريخ 27 ماي 1946.

<sup>9</sup> نفس المصدر، س A، ص 4، م 18، م ف 2، و 60 بتاريخ 1 أبريل 1941.

<sup>10</sup> نفس المصدر، س SG2، ص 75، م 8، و 235 بتاريخ 2 ماي 1938.

الإيواء والراحة 48 ساعة على أقصى تقدير<sup>1</sup>. كما أقر التقرير الصادر عن الإقامة العامة الفرنسية ووزارة الصحة في شهر فيفري سنة 1948 بضرورة تواصل المتابعة الصحية الدورية للشحاذين إلى ما بعد ترحيلهم نحو مناطقهم الأصلية مع الحرص على تسجيلهم في ملفات صحية خاصة بهم<sup>2</sup>.

إن من أهم الأسباب المساهمة في عدم فاعلية إجراءات ترحيل المتسولين وهشاشة تطبيقها محدودية الدعم المالي الحكومي باعتباره الضامن الأكبر لإتمام عمليات الترحيل ومجابهة انتشار ظاهرة التسول، فقد عبرت بعض التقارير الفرنسية عن عدم قدرة إدارات الحماية الفرنسية بتونس على تغطية ودعم التكلفة المتزايدة سنويا في مصاريف الترحيل القسري للمتسولين نحو مواطنهم الأصلية، فعلى سبيل الذكر نجد أن الوجبة الواحدة قدرت بما قيمته 6 فرنكات للشحاذ الواحد سنة 1941<sup>3</sup> لترتفع تكلفتها إلى 20 فرنكا بداية من سنة 1948<sup>4</sup>، أما تكلفة مصاريف نقل المتسولين المرحلين قدرت سنة 1946 بما قيمته 10638 فرنكا للشخص الواحد عن الكيلومتر الواحد دون اعتبار مصاريف وجباته الغذائية اليومية<sup>5</sup> لتتطور قيمتها إلى حوالي 80000 فرنك سنة 1948<sup>6</sup> مما اضطر بعض الوزارات والمصالح ذات العلاقة بعمليات الترحيل على غرار إدارة الصحة العمومية إلى التداين المالي من أجل إتمام إجراءاتها الطبية تجاه الشحاذين بضمن الموازنة المقررة للسنة التي تليها<sup>7</sup>.

وأمام الارتفاع المتواصل في التكلفة العامة لمصاريف ترحيل المتسولين التي تطورت قيمتها من حوالي 1500000 فرنك بالنسبة للواقفة الواحدة سنة 1946<sup>8</sup> إلى حوالي 5 مليون فرنك سنة 1948<sup>9</sup>، فقد أعلنت الإقامة العامة الفرنسية بتونس في أحد تقاريرها المنبثق عن جلسة عامة للوزارات والإدارات ذات الصلة بموضوع الترحيل، عجزها عن تغطية هذه التكاليف والمبالغ المقررة، ما أحدث اضطرابا وإخلالا في تنفيذ المراسيم الحكومية وساهم في جعل هذه الآليات الردعية دون فاعلية تذكر في الحدّ من التزايد غير المسبوق للشحاذين داخل المدن التونسية.

### 3- السياسة الأمنية:

حرصت السلطات الاستعمارية على متابعة التطبيق الفوري للقرارات الحكومية بتحويل مهمة التنفيذ إلى المصالح الأمنية والعسكرية الفرنسية التي تتكفل بعمليات اعتقال المتسولين المنتشرين في شوارع المدن التونسية وأحوازها: "عثر رجال مصالحننا خلال دورية أمنية في المدينة على أحد الأهالي النازحين الذي اعترف بقدمه إلى المدينة لكسب قوته بممارسة التسول... تشرفت بالقبض عليه واقتياده إلى القايد وأقترح بضرورة ترحيله إلى موطنه الأصلي"<sup>10</sup>. ونستنتج من التقارير الفرنسية إفراطا في الاعتماد على الأسلوب الأمني لمجابهة ظاهرة التسول من خلال المشاركة والإحاطة والمتابعة الأمنية المشددة

<sup>1</sup> نفس المصدر، س E، ص 234، م 3، م ف 24، و 216 بتاريخ 30 أوت 1944.

<sup>2</sup> نفس المصدر، س SG3، ص 6، م 5، و 9 بتاريخ 17 فيفري 1948.

<sup>3</sup> نفس المصدر، ص 18، م 18، م ف 3، و 134 بتاريخ 5 فيفري 1942.

<sup>4</sup> نفس المصدر، ص 6، م 5، و 5 بتاريخ 10 فيفري 1948.

<sup>5</sup> نفس المصدر، س E، ص 234، م 3، م ف 24، و 144 بتاريخ 27 ماي 1946.

<sup>6</sup> (أ، و، ت)، س SG2، ص 196، م 1، و 11 بتاريخ 22 سبتمبر 1948.

<sup>7</sup> نفس المصدر، س E، ص 234، م 3، م ف 24، و 36 بتاريخ 11 ماي 1945.

<sup>8</sup> نفس المصدر، و 144 بتاريخ 27 ماي 1946.

<sup>9</sup> نفس المصدر، س SG3، ص 6، م 5، و 10 بتاريخ 14 فيفري 1948.

<sup>10</sup> نفس المصدر، س A، ص 183، م 1، م ف 14، و 2 بتاريخ 8 جانفي 1909.

لمختلف الإجراءات المنصوص عليها إداريا وإغاثيا وصحيا ليتطور الدور الأمني من مجرد القيام بحملات أمنية للقبض على المتسولين المنتشرين في شوارع المدن والمشاركة في ترحيلهم إلى:

- تنفيذ عمليات تجميع المتسولين في مراكز الإيواء الوقتي والمساهمة في القيام بالمراقبة الصحية وتطعيمهم باللقاح ضد الأوبئة ثم توزيع الإعانات الغذائية على الشحاذين طيلة فترة الاعتقال وأثناء الرحلة، ثم الإشراف المباشر على تنظيم القوافل وحراستها والتأكد النهائي من بلوغها المنطقة المحددة<sup>1</sup>.

- القيام بعمليات جرد للمتسولين المرشحين وإخراج المتهمين منهم لعرضهم أمام المحكمة، ففي سنة 1940 تم الإبقاء على 81 متسولا متهمين بجنح مختلفة من مجموع 2883 متسول مرشحين<sup>2</sup>.

- المراقبة الدورية لسجل الحالات المتسولة المستثناة من قرارات الترحيل والقيام بدوريات مفاجئة لهؤلاء الأفراد للتأكد إن كانوا لازالت تتوفر فيهم شروط الاستثناء للبقاء في الحواضر الكبرى أم يتم إجبارهم على تنفيذ أوامر الترحيل القسري<sup>3</sup>.

- التنسيق الإداري والأمني بين المراقبين المدنيين والمصالح الأمنية لتكليف الجندرية والأوجاق بمراقبة الطرقات ومداخل المدن لمنع دخول المتسولين من الشحاذين النازحين<sup>4</sup> والقيام بدوريات مراقبة للأماكن التي تم إخلاءها من المتسولين تحسبا لعودتهم أو استقرار شحاذين جدد<sup>5</sup>.

- إقامة الحواجز الأمنية والعسكرية المتقدمة في العديد من النقاط القريبة من المدن الكبرى ويتم التنسيق بين هذه المراكز عن طريق فرقة أمنية متنقلة ومكونة من 6 أفراد من الصباحية<sup>6</sup>، وقد تم لاحقا مضاعفة هذه الحواجز سعيا لمراقبة جميع المنافذ المؤدية إلى المدن الكبرى وإقامة حواجز مماثلة في القرى والمناطق البعيدة استباقا لأي عملية نزوح جماعي للمتسولين نحو الحاضرة على غرار الحواجز التي أقيمت بمنطقتي زغوان والنيفضة<sup>7</sup>.

لقد كان لهذه الإجراءات الأمنية انعكاسات سلبية على نجاح سياسة الترحيل المعتمدة من قبل سلطات الحماية الفرنسية كآلية لردع المتسولين ومنع تواجدهم بشوارع المدن الكبرى، حيث تبرز الأرقام المرتفعة من سنة إلى أخرى في أعداد الشحاذين داخل الحواضر التونسية الكبرى هشاشة الدور الأمني والعسكري في تطبيق مختلف المناشير والقرارات الإدارية المتعلقة بتنظيم ومراقبة قوافل المتسولين المرشحين مرجعها إلى ضعف الإمكانيات المادية واللوجستية والنقص الكبير في أعداد الأمنيين والحراس المكلفين بمصاحبة القوافل مما دفع السلطات الفرنسية للقيام بانتداب أعوان حراسة مؤقتين لفترة زمنية حدد أقصاها بثلاثة أشهر<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> نفس المصدر، س SG3، ص 6، م 5، و 5 بتاريخ 10 فيفري 1948.

<sup>2</sup> (أ، و، ت)، س A، ص 4، م 18، م ف 2، و 65 بتاريخ 29 مارس 1941.

<sup>3</sup> نفس المصدر، س SG3، ص 6، م 5، و 9 بتاريخ 17 فيفري 1948.

<sup>4</sup> نفس المصدر، س A، ص 4، م 18، م ف 2، و 41 بتاريخ 11 جويلية 1941.

<sup>5</sup> نفس المصدر، م ف 1، و 89 - 90 بتاريخ 1945.

<sup>6</sup> نفس المصدر، م ف 3، و 161 بتاريخ 19 جويلية 1945.

<sup>7</sup> نفس المصدر، س SG3، ص 6، م 5، و 9 بتاريخ 17 فيفري 1948.

<sup>8</sup> نفس المصدر، س E، ص 234، م 3، م ف 24، و 68 بتاريخ 1 جويلية 1946.

#### 4- المساعدات الاجتماعية والإعانات الوقائية:

اتبعت السلطات الاستعمارية الفرنسية سياسة المساعدات الاجتماعية والإعانات الوقائية بصفة جليّة منذ ثلاثينات القرن 20 - بالتوازي مع تنفيذها لإجراءات الترحيل والردع القانوني- لإغاثة الأعداد الكبيرة والمتزايدة من الفئات المتسولين التي صنفتها التقارير الفرنسية ضمن الشرائح المعدّمة والبائسة<sup>1</sup>. وتتكون المساعدات العينية المقدمة إلى المتسولين أساساً من مواد غذائية مثل الزيت والأرز والسميد والخبز وأغطية وملابس تقدم وفق مطالب توجه إلى الكاتب العام للبلاد التونسية وضمن قوائم إحصائية تقريبية بعدد العائلات المحتاجة في كل مدينة، فعلى سبيل الذكر تطور عدد العائلات المحتاجة في مدينة تونس خلال شهري أوت وسبتمبر لسنة 1936 من حوالي 5600 عائلة إلى أكثر من 8400 عائلة بزيادة تقدر نسبتها 50/2<sup>2</sup>، كما تم في حالات أخرى توزيع وجبات يومية من الحساء الشعبي والخبز على المتسولين بمعدل 25000 خبزة يومية لإغاثة 8000 متسول مستقرين في ضواحي مدينة تونس<sup>3</sup>، وتبيّن في إحدى المراسلات الموجهة من قبل لجنة التضامن بالقيروان إلى المقيم العام الفرنسي سنة 1938 حجم الكارثة الإنسانية والبيّوس والمجاعة التي أصابت أهالي المدينة ولجوء العدد الأكبر منهم إلى طلب الصدقة والتسول في الشوارع، مطالبة سلطات الحماية بضرورة الإسراع لدعم جهود الإغاثة من أجل مواصلة توفير الوجبات اليومية من الحساء الشعبي للشحاذين بمعدل 1300 وجبة يومية بقيمة 350 فرنك<sup>4</sup>.

جدول عدد 2: قيمة النفقات العينية للإعانات الاستعجالية سنة 1936<sup>5</sup>

المدينة	شهر نوفمبر 1936	سنة 1936
تونس	968881	4323382
سوسة	635263	2692162
القيروان	267810	904090
صفاقس	144685	438561

يمكن القول أن عملية توزيع المساعدات والإعانات لا تتم على نفس الوتيرة ونفس النسق والقيمة المادية فهي تخضع إلى التأثيرات السلبية للأزمات الاقتصادية والاجتماعية والمناخية وإلى المصالح المالية والمتغيرات السياسية لدولة الحماية الفرنسية، إضافة إلى حجم تواجد المتسولين داخل كل مدينة، فقد استأثرت الحاضرة تونس بالنصيب الأكبر من النفقات العينية مقارنة ببقية المدن الأخرى بقيمة 4323382 فرنك سنة 1936 وبقيمة 968881 فرنك خلال شهر نوفمبر فقط من نفس السنة بما يفوق مرتين المبلغ المرصود لمدينة صفاقس خلال السنة. ويفسر هذا الأمر برمزية العاصمة تونس ومكانتها

<sup>1</sup> (أ، و، ت)، س SG9، ص 97، م 2، و 5 بتاريخ 18 جويلية 1936.

<sup>2</sup> نفس المصدر، و 9 بتاريخ 21 نوفمبر 1936.

<sup>3</sup> نفس المصدر، س SG2، ص 56، م 9، و 4 بتاريخ 1 أفريل 1937.

<sup>4</sup> نفس المصدر، س SG9، ص 100، م 10، و 2 بتاريخ 2 ديسمبر 1938.

<sup>5</sup> نفس المصدر، ص 97، م 2، و 4 بتاريخ 30 نوفمبر 1936.

الاعتبارية والديمغرافية باعتبارها المدينة الأكثر استقطابا للنازحين والوافدين من الفئات الاجتماعية المشردة التي تحول أغلب أفرادها خلال السنوات العجاف إلى متسولين في شوارعها.

جدول عدد 3: الإعانات الموزعة على المشردين والمتسولين بمدينة تونس: ماي - ديسمبر 1937<sup>1</sup>

الشهر	عدد الوجبات	السميد / القنطار	الأرز/ كلغ	الزيت/ كلغ
ماي	49456	1073.77	826.43	26844.25
جوان	49948	998.96	749.17	24974
جويلية	49979	749.64	999.58	24989.5
أوت	24300	607.46	-	12150
سبتمبر	24225	605.56	-	12112.5
أكتوبر	23939	598.41	-	11969.5
نوفمبر	23647	591.15	-	11823.5
ديسمبر	24645	616.08	-	12322.5

لم يقتصر التباين في توزيع الإعانات حسب المدن فقط بل نلاحظ اختلافا شهريا في توزيع الوجبات اليومية وفي كميات المواد الغذائية على المشردين والمتسولين، فقد سجلت الأشهر الثلاثة ماي وجوان وجويلية سنة 1937 ارتفاعا مهما في عدد الوجبات اليومية والمواد الغذائية الموزعة مقارنة ببقية الأشهر بلغ أقصاها خلال شهر ماي بنسب فاقت الضعف خصوصا في مادة الزيت<sup>2</sup>، ويعكس هذا الارتفاع في كميات المواد الإغائية الموزعة على المشردين والمتسولين حجم المأساة والمجاعة التي اجتاحت المجتمع التونسي خلال أواسط الثلاثينات وتحديدا سنة 1937، في حين يفسر الانخفاض في توزيع الوجبات اليومية والمساعدات الغذائية وانقطاع توزيع بعضها على غرار مادة الأرز بداية من شهر أوت، إلى القرار السياسي الاستعماري الذي اعتبر هذه المصاريف والمساعدات استنزافا للموارد المالية لدولة الحماية بتونس خصوصا إثر التفطن لوجود تلاعب في توزيع المساعدات والإعانات ومغالطات في تدوين أسماء المحتاجين من المشردين والمتسولين وفي تسجيل قيمة المصاريف وتكلفة الأموال المرصودة لهذه الإعانات. فقد أقرت الكتابة العامة للحكومة الفرنسية بتونس في إحدى مراسلاتها إلى شيخ مدينة تونس بضرورة تخفيض عدد المنتفعين من المساعدات الإغائية الحكومية إلى أكثر من النصف<sup>3</sup>، إلا أنها لم تستطع إلغاء هذه السياسة الوقائية أو الحد منها نظرا إلى تفاقم الأوضاع المأساوية للمشردين والمتسولين بسبب الانعكاسات السلبية للحرب

<sup>1</sup> (أ، و، ت)، س SG9، ص 97، م 6، و 10 بتاريخ جانفي 1938.

<sup>2</sup> المصدر نفسه.

<sup>3</sup> (أ، و، ت)، س SG9، ص 109، م 5، و 8 بتاريخ 27 جانفي 1938.

العالمية الثانية على البلاد التونسية وللاضطرابات المناخية المتواصلة خلال الأربعينات وتواصل المجاعات إضافة إلى الضغط الذي مارسه الصحافة التونسية في كشف الواقع المأساوي للمجتمع التونسي إبان تلك الفترة الزمنية<sup>1</sup>.

بلغت قيمة المساهمات المالية الحكومية الاستعمارية لدعم المجهود الإغاثي وإسعاف المحتاجين من المشردين والمتسولين أكثر من 48145667 فرنك خلال الفترة الممتدة من سنة 1943 إلى سنة 1945<sup>2</sup> كما تضاعفت كميات القمح المرصودة للتوزيع الشهري مجانا على المحتاجين والمتسولين في بعض المدن التونسية لتبلغ أثناء شهر نوفمبر سنة 1948 على النحو التالي:

سوسة - المهديّة: 650 قنطار

القيروان: 600 قنطار

صفاقس 300 قنطار<sup>3</sup>.

وتوجهت الإدارات والمصالح المهتمة بإغاثة المتسولين بمراسلات عاجلة خلال شهر أفريل سنة 1948 طالبت فيها الكتابة العامة للحكومة الفرنسية بضرورة مضاعفة كميات المواد الغذائية الممنوحة شهريا لإطعام الشحاذين بما يتماشى وأعدادهم المتزايدة باستمرار لتكون الزيادة كالآتي:

العجين: من 500 كلغ إلى 1000 كلغ

الكسكسي: من 400 كلغ إلى 800 كلغ

الخبز: من 50 كلغ إلى 150 كلغ يوميا

الزيت: من 60 لتر إلى 90 لتر ثم إلى 150 لتر<sup>4</sup>

كما استغلت السلطات الاستعمارية سنة 1948 الأعياد الدينية الإسلامية لتوزيع المساعدات الاستثنائية من الحبوب والسميد على المحتاجين من المشردين والمتسولين في مختلف المدن التونسية الكبرى.

بنزرت: 200 قنطار

القيروان: 100 قنطار

سوسة: 100 قنطار

صفاقس: 100 قنطار<sup>5</sup>

<sup>1</sup> جريدة الزهرة، 12 فيفري 1948 / جريدة الحرة، 13 مارس 1948 / L'Echo de Tunis, 4 décembre 1943

<sup>2</sup> (أ، و، ت)، س SG9، ص 109، م 5، و 3 - 4 بتاريخ 6 أكتوبر 1945.

<sup>3</sup> نفس المصدر، ص 123، م 6، و 3 بتاريخ 9 نوفمبر 1948.

<sup>4</sup> (أ، و، ت)، س SG3، ص 6، م 5، و 40 بتاريخ 5 أفريل 1948.

<sup>5</sup> نفس المصدر، س SG9، ص 123، م 6، و 2 بتاريخ 5 أوت 1948

س SG8، ص 9، م 5، و 1 بتاريخ 4 جويلية 1949.

وخلال سنتي 1951 و 1952 تم توزيع 5000 كلف من السميد بتكلفة جمالية قدرت بـ309750 فرنك<sup>1</sup>. إلا أن التساؤل المطروح هل وجهت حقا هذه السياسة الوقائية والاجتماعية إلى إغاثة المتسولين والسعي للحد من تواجدهم في شوارع المدن التونسية الكبرى؟

تبرز التقارير الأمنية الاستعمارية ضعفا كبيرا في قيمة الإعانات والمساعدات المقدمة للمتسولين مقارنة بنظرائها من الشرائح الاجتماعية المحتاجة، فكمية المؤن الغذائية الممنوحة يوميا إلى الحرفيين المفلسين تقارب ضعف الكمية المرصودة لإغاثة آلاف الشحاذين<sup>2</sup> الذين يقضون أحيانا أكثر من سبعة أيام أمام مراكز التزويد<sup>3</sup>. وقد تعددت رسائل النقد اللاذعة ضد هذه السياسة الاجتماعية الاستعمارية الفاشلة والقائمة على تعميق مأساة الفئات المتسولة وتعمد السلطات الفرنسية المغالطة في نشر المعلومات الخاصة بعمليات الإغاثة والإسعاف وإنكارها وجود مجاعة وكارثة إنسانية في تونس تفسره تضخم حالات الوفاة جوعا للكثير من الشحاذين.

خاتمة:

تراوحت السياسة الفرنسية في التعاطي مع المتسولين بين المد والجزر والشدة واللين تماشيا مع الانعكاسات السلبية للأزمات الظرفية والهيكلية على المجتمع التونسي وما أفرزته من تزايد متسارع في أعداد الشحاذين في شوارع المدن التونسية الكبرى، فقد سارعت إدارة الحماية منذ السنوات الأولى للاحتلال إلى إحاطة إشكالية مجاهدة التسول والمتسولين بإطار قانوني وتشريعي تواصل إلى بداية الخمسينات. اتخذ هذا الإطار القانوني في مرحلة أولى منهجا ردعيا في التعامل مع الشحاذين بتكثيف عمليات الترحيل القسري والمنظم للمتسولين نحو قرانهم ومناطقهم الأصلية بتكاتف جميع جهود الإدارات والهيكل الحكومية الفرنسية لإتمام هذا الإجراء الذي ظل دون فاعلية أمام الارتفاع غير المسبوق في أعداد المتسولين بمختلف المدن التونسية، دون التغافل عن بعض الأحكام القضائية الصادرة ضد بعض الأفراد المتهمين بممارسة الشحاذة والتي سُجلت تحديدا خلال العشرية الأولى من القرن العشرين.

وفي مرحلة ثانية فرض تدهور الأوضاع المعيشية للمتسولين على سلطات الحماية الفرنسية إتباع سياسة اللين من خلال توزيع الإعانات الوقائية والمساعدات الغذائية سواء بشكل استعجالي إبان سنوات الجفاف والفيضانات أو بشكل دوري شهري أو مناسباتي. إلا أن هذا التوجه الوقائي شابهته عديد التجاوزات والنقائص التنظيمية والدعم المالي أمام عجز الحكومة الفرنسية عن الاستجابة لكافة الاحتياجات ومتطلبات الإغاثة مما عمق مأساة الفئات المتسولة وجميع الشرائح الاجتماعية الهامشية والمحتاجة.

قائمة المصادر والمراجع:

1- الأرشيف الوطني التونسي

- السلسلة A، الصندوق 2، ملف 30، ملف فرعي 1.

الصندوق 4، ملف 18، ملف فرعي 1 - 2 - 3.

<sup>1</sup> نفس المصدر، س SG9، ص 127، م 8، و 1 بتاريخ 3 ديسمبر 1951.

<sup>2</sup> نفس المصدر، س SG2، ص 109، م 5، و 3 بتاريخ 23 جانفي 1939.

<sup>3</sup> جريدة الشباب، 8 جانفي 1937.

- الصندوق 183، ملف 1، ملف فرعي 14.
- السلسلة E، الصندوق 4، ملف 18، ملف فرعي 3.
- الصندوق 234، ملف 3، ملف فرعي 24.
- الصندوق 551، ملف 2، ملف فرعي 2.
- الصندوق 620، ملف 13، ملف فرعي 30.
- السلسلة M5، الصندوق 11، ملف 509.
- السلسلة SG2، الصندوق 56، ملف 9.
- الصندوق 75، ملف 8.
- الصندوق 109، ملف 5.
- الصندوق 196، ملف 1.
- السلسلة SG3، الصندوق 6، ملف 5.
- الصندوق 18، ملف 18، ملف فرعي 3.
- السلسلة SG5، الصندوق 136، ملف 1، ملف فرعي 4.
- الصندوق 61، ملف 1، ملف فرعي 14.
- السلسلة SG8، الصندوق 9، ملف 5.
- السلسلة SG9، الصندوق 97، ملف 2 - 6.
- الصندوق 100، ملف 10.
- الصندوق 109، ملف 5.
- الصندوق 123، ملف 6.
- الصندوق 127، ملف 8.

## 2- أرشيف بلدية صفاقس

قرار بتاريخ 1902 / قرار بتاريخ 20 فيفري 1910 / قرار بتاريخ 30 مارس 1918.  
محضر مداوات المجلس البلدي بتاريخ 15 جويلية 1936، مداخلة توفيق الفندري.

## 3- الرائد الرسمي التونسي

1- 16 أفريل 1885 / 20 جوان 1916.

## 4- الجرائد

- جريدة الشباب، 8 جانفي 1937.

- جريدة الزهرة، 12 فيفري 1948.

- جريدة الحرية، 13 مارس 1948.

- L'Echo de Tunis, 4 décembre 1943.

5- عبد الستار (فوزية)، مبادئ علم الإجرام وعلم العقاب، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، 1985.

6- Colosio (Stefano), L'application du code pénal français en Tunisie et la législation Tunisienne relative à la mendicité, Tunis, 1903.

7- Rectenwald (Georges), «Notre politique en Tunisie, Question nord - africaines», revues des problèmes sociaux de l'Algerie, de la Tunisie et du Maroc, 1935.

8- Compte Générale de l'Administration de la justice criminelle, France - Algérie - Tunisie, imprimerie nationale, Paris, 1900 à 1940.

9- Annuaire statistique de la France, Paris, 1936 - 1946.

10- Tabutin (D), Vallin (J), La population de l'Algérie, CICRED, Paris, 1974.

11- Statistique Générale de la Tunisie, Tunis, 1913.



## اتجاهات معلمي المدارس لبرنامج إكساب الثقافة الاستهلاكية للطلبة: بحث تطبيقي

أ.د.بيداء ستارلفتة/مركز بحوث السوق وحماية المستهلك/جامعة بغداد، العراق

أ.م.د.محمد عبد الرزاق الصوفي/ مركز بحوث السوق وحماية المستهلك/جامعة بغداد، العراق

### مخلص:

يهدف البحث إلى التعرف على واقع الاتجاهات نحو مجالات إكساب الثقافة الاستهلاكية عبر استطلاع عينة من المعلمين في المدارس (الجنائن، الإبداع، النجاح، نور الهدى، الفيحاء، 14 تموز)، ومن ثم بيان درجة ترتيب تلك المجالات بحسب أولوياتها وأهميتها، فضلاً عن الكشف عن الفروقات في استجابات المبحوثين لتحديد اتجاهاتهم نحو تلك المجالات بحسب المدارس، واستخدمت الاستبانة كأداة رئيسة في جميع البيانات والمعلومات من العينة البالغة 120 معلم، وحللت إجاباتهم باستخدام الأوساط الحسابية والانحرافات المعيارية والأهمية النسبية واختبار t بالاعتمادية على البرنامج الإحصائي الجاهز (SPSS)، وتوصل البحث إلى عدة استنتاجات أهمها:

1. جاء مجال قيم ترشيد الاستهلاك بالمرتبة الأولى من حيث الأهمية من قبل العينة المبحوثة ثم يليه مجال المعرفة والوعي الاستهلاكي بالمرحلة الثانية وأخيراً مجال الممارسات السلوكية بالمرحلة الثالثة.
  2. ظهرت فروق في استجابات العينة المبحوثة نحو مجالات إكساب الثقافة الاستهلاكية للطلبة بحسب المدارس
- الكلمات المفتاحية: الثقافة الاستهلاكية، معلمي المدارس، ترشيد الاستهلاك.

### مقدمة:

يعد موضوع الثقافة الاستهلاكية من المواضيع المهمة والحيوية التي بات التركيز عليها بشكل كبير في الوقت الحاضر بسبب انتشار ظاهرة الاستهلاك المفرط والذي يعد من الأنماط السلوكية التي شاعت اليوم في مجتمعاتنا بنسبة كبيرة وهذه الأنماط تُقبل على الاستهلاك متجاوزة درجة إشباع الحاجات الضرورية إلى إشباع الحالات الثانوية، وتشير الدراسات إلى أن الأنماط الاستهلاكية متأصلة لدى الفرد منذ الصغر بالممارسة اليومية، وعليه فأن التربية السليمة على إكساب ثقافة استهلاكية صحيحة تتطلب غرس معارف وقيم وممارسات سلوكية من خلال نشر الوعي بين صفوف الطلبة في المراحل التعليمية الابتدائية، لذا فأن للمدارس من خلال المعلمين دوراً بارزاً في التنشئة الاستهلاكية السليمة لا يقل شأنها عن دور الأسرة في غرس قيم استهلاكية نحو ترشيد الاستهلاك وعادات غذائية جيدة.

لذا جاء هذا البحث ليتناول موضوع اتجاهات معلمي المدارس لبرنامج إكساب الثقافة الاستهلاكية للطلبة من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول: منهجية البحث.

المبحث الثاني: المرتكزات الفكرية الأساسية للثقافة الاستهلاكية.

المبحث الثالث: مناقشة نتائج البحث وتفسيرها.

المبحث الرابع: الاستنتاجات والتوصيات.

المبحث الأول: منهجية البحث

أولاً: مشكلة البحث:

تتحدد مشكلة البحث في قلة الدراسات والبحوث المحلية والعربية في مجال إكساب الثقافة الاستهلاكية للطلبة في المراحل الابتدائية لكونها المرحلة الأساس التي يتم فيها نشر الوعي بين صفوف الطلبة عن طريق إدارات تلك المدارس متمثلة بالمعلمين بوصفهم القادرين على التأثير وتغيير الأنماط السلوكية لديهم، كما لاحظ الباحثين من خلال زيارتهم ومشاهداتهم الميدانية للمدارس المبحوثة أن هناك بعض من المظاهر الاستهلاكية غير مرغوب فيها منتشرة بين الطلبة. من هنا أدرك الباحثين ضرورة الكتابة في هذا الموضوع وإجراء مثل هذا البحث، وعليه تكمن مشكلة البحث في الإجابة عن التساؤلات الآتية:

1. ما درجة أهمية إكساب الثقافة الاستهلاكية للطلبة من وجهة نظر العينة المبحوثة؟
2. هل هناك ميل لدى المعلمين في المدارس المبحوثة نحو برنامج إكساب الثقافة الاستهلاكية للطلبة؟
3. هل هناك فروق في استجابات العينة المبحوثة لمجالات الثقافة الاستهلاكية بين المدارس؟

ثانياً: أهمية البحث:

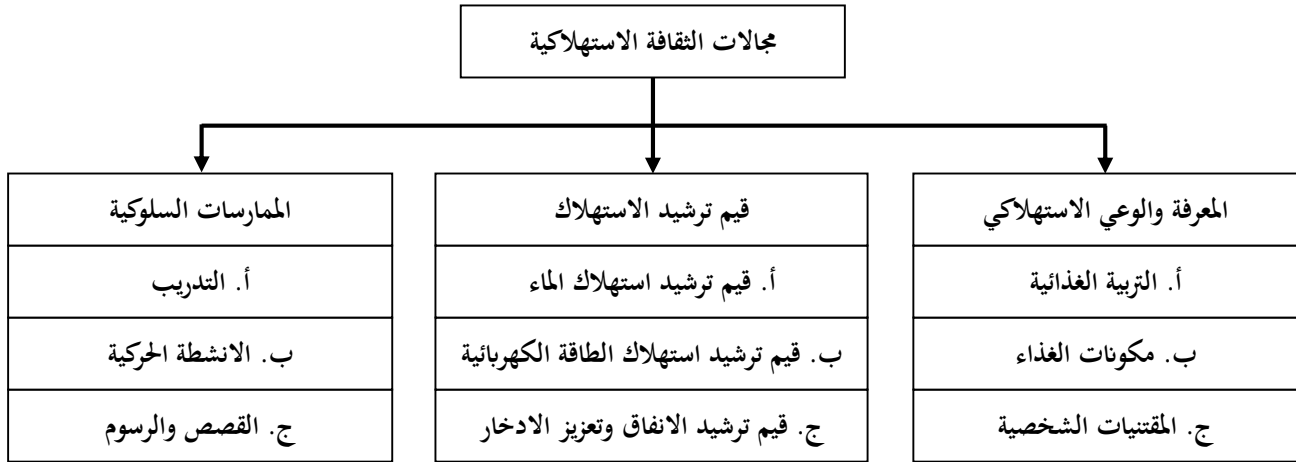
1. يكتسب البحث أهمية من حيث كونه يمس مرحلة عمرية مهمة وهي مرحلة الابتدائية والتي يكون فيها الفرد قادراً على اكتساب السلوكيات والممارسات السليمة والصحيحة بطريقة سهلة وبمبسطة.
2. تكمن أهمية البحث بما وصل إليه من نتائج تفيد في توجيه أنظار المسؤولين في وزارة التربية بأهمية موضع الثقافة الاستهلاكية بغية تضمينه في مناهج المواد الدراسية لتنشئة جيل يعي هذا المفهوم وتطبعه بشكل سليم.
3. يساهم هذا البحث في إبراز الدور الذي يمارسه المعلمين في تعديل السلوكيات الاستهلاكية غي السليمة والشائعة يسن الطلبة من خلال نشر الوعي بمفهوم قيم ترشيد الاستهلاك وتنميته بينهم.
4. تأتي أهمية البحث من الحاجة إلى توجيه الباحثين والمختصين للكتابة فيه لأنه يتسم بقلّة الأبحاث والدراسات التي لم تنل قدراً كافياً من الاهتمام على المستوى المحلي والعربي.

ثالثاً: أهداف البحث:

1. التعرف على واقع الاتجاهات نحو مجالات إكساب الثقافة الاستهلاكية عبر استطلاع آراء عينة من المعلمين في المدارس المبحوثة.
2. بيان درجة ترتيب مجالات الثقافة الاستهلاكية بحسب أولويتها وأهميتها.
3. الكشف عن الفروقات في استجابات المعلمين لتحديد اتجاهاتهم نحو مجالات الثقافة الاستهلاكية بحسب المدارس.

رابعاً: أنموذج البحث:

بني أنموذج البحث بالاعتماد على<sup>(1)</sup><sup>(2)</sup><sup>(3)</sup><sup>(4)</sup> والشكل (1) يوضح أنموذج البحث.



الشكل (1): أنموذج البحث.

خامساً: فرضيات البحث:

1. تميل اتجاهات المعلمين في المدارس المبحوثة نحو مجالات إكساب الثقافة الاستهلاكية للطلبة.

2. توجد فروق ذات دلالة معنوية في استجابات العينة لمجالات الثقافة الاستهلاكية بين المدارس المبحوثة.

سادساً: منهج البحث:

اعتمد البحث المنهج الوصفي بأسلوبه الاستطلاعي الملائم لتحليل وتفسير البيانات المستحصل عليها واستخلاص النتائج منها.

سابعاً: حدود البحث:

1. الحدود المكانية: وتتمثل في الحدود الجغرافية لمحافظة بغداد/ قضاء الكرخ متمثلاً في المدارس الابتدائية (الجنائن، الإبداع، النجاح) وقضاء الرصافة متمثلاً في المدارس الابتدائية (نور الهدى، الفيحاء، 14 تموز).

2. الحدود البشرية: وتشمل عينة من المعلمين في المدارس المبحوثة.

<sup>1</sup> Weker, H.; Rudzka-Kantoch, Z.; Struciuska, M.; Maron, A.; Gozdalik, E.; Marcinkowska, M. and Klemarczyk, W: " Nutrition of preschool age children, general considerations and assessment of child nutrition ". Roczniki panstwowej Zakladu Higieny, Vol. 51, No. 4, 2000. [Article in Polish].

<sup>2</sup> حسن، هيثم سعيد: "إمكانية ترشيد استهلاك الوقود وحماية البيئة عند تسخين الماء"، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة العلوم الهندسية، المجلد السابع والثلاثون، العدد الأول، 2015.

<sup>3</sup> المجالي، عبد الحميد: "مبادئ ترشيد استهلاك المياه في الفقه الإسلامي"، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد الثاني والثلاثون، العدد الثاني، 2005.

<sup>4</sup> الرفاعي حسن: "الاستهلاك والادخار في الاقتصاد" دار النفائس، بيروت، لبنان، 2006.

3. الحدود الزمانية: وتتمثل بمدة إجراء البحث وتمتد من (2016 /1 /2) ولغاية (2016 /12 /6).

ثامنا: عينة البحث:

تم اختيار عينة عشوائية من المعلمين في المدارس الابتدائية المبحوثة والبالغ عددهم (120) معلم وبواقع ثلاث مدارس في قضاء الكرخ وثلاث مدارس في قضاء الرصافة، (والجدول، 1) يوضح وصف العينة:

جدول (1): وصف عينة البحث.

وصف عينة البحث			الخصائص
النسبة المئوية	العدد	التفاصيل	
50	60	الكرخ	القضاء
50	60	الرصافة	
18	21	نور الهدى	اسم المدرسة
14	17	الفيحاء	
18	22	14 تموز	
17	20	الجنائن	
18	21	الإبداع	
15	19	النجاح	
25,8	31	ذكر	الجنس
74,2	89	انثى	
21,7	26	20 فأقل	العمر
22,5	27	21 – اقل من 30	
25,8	31	31 – اقل من 40	
30	36	41 فأكثر	
6,7	8	إعدادية	المؤهل العلمي
33,3	40	بكالوريوس	
60	72	دبلوم	
39	47	اقل من 10 سنوات	عدد سنوات الخدمة
43	52	10 – اقل من 25	
18	21	25 سنة فأكثر	
%100	120		

يتضح من الجدول (1) الآتي:

1. تساوت نسبة العينة المسحوبة من قضائي الكرخ والرصافة وهي 50% لكل منهما.

2. توزعت نسبة العينة بحسب المدارس بين 14% إلى 18%.

3. اغلب العينة هم من الإناث ويشكلون نسبة 74,2% في حين كانت نسبة الذكور 25,8.

4. بلغت أعلى نسبة من أفراد العينة ضمن الفئة العمرية (41 سنة فأكثر) وهي تشكل 30% بينما كانت أقل فئة عمرية (20 سنة فأقل) وبنسبة (21,7%).

5. المؤهل العلمي لأفراد العينة أغلبها كان حاصلًا على شهادة الدبلوم وبنسبة 60% في حين أقل مؤهل للعينة المبحوثة الإعدادية وبنسبة 6,7%.

6. كانت النسبة الغالبة من العينة المبحوثة ممن لديها خدمة (10 سنوات - أقل من 25 سنة) وهي تشكل 43%.

تاسعا: أداة البحث:

تم الاعتماد على الاستبانة كأداة رئيسة لجمع المعلومات المتعلقة بالبحث وقد تضمنت (45) فقرة موزعة على ثلاث مجالات (مجال المعرفة والوعي الاستهلاكي) و (مجال قيم ترشيد الاستهلاك) و (مجال الممارسات السلوكية) وبواقع (15) فقرة لكل مجال وعلى مقياس ليكرت الخماسي (اتفق بشدة، اتفق، محايد، لا اتفق، لا اتفق بشدة) وبأوزان (5، 4، 3، 2، 1) على التوالي.

عاشرا: صدق وثبات الاستبانة:

أ. صدق المحتوى:

تم اختبار صدق المحتوى بترتيب مجاميع الإجابات تصاعديا وتقسيما إلى مجموعتين متساويتين واخذ (27%) من أعلى الدرجات و(27%) من أدناها ثم تم قياس الفرق بين المجموعتين باستخدام (Mann-Whitney) لحساب الفرق وكانت قيمة (t) المحسوبة البالغة (8,2) وهي أكبر من الجدولية البالغة (2,7) عند مستوى معنوية (0,01) مما تؤكد تلك النتيجة إلى صدق المقياس في جميع فقراته.

ب. ثبات الاستبانة:

استخدام طريقة التجزئة النصفية في تحقيق ثبات الأداة وبحساب معامل الارتباط بيرمان والبالغ (0,81) وهو بذلك معامل ثابت عالي.

الحادي عشر: الأساليب الإحصائية:

تم الاستعانة بالتطبيق الإحصائي الجاهز (SPSS) في استخراج النسبة المئوية، الوسط الحسابي، الانحراف المعياري، الأهمية النسبية، اختبار t.

المبحث الثاني: المرتكزات الفكرية الأساسية للثقافة الاستهلاكية

أولا: مفهوم الثقافة الاستهلاكية والتعريف:

تعود جذور مفهوم الثقافة الاستهلاكية إلى ظهور المجتمعات الحديثة (مجتمعات ما بعد الصناعة المعاصرة) والتي حاولت تغيير مصطلح الثقافة الإنسانية المعتمد على القيم الثقافية الموروثة بثقافة استهلاكية تركز على المظاهر والكماليات الشكلية وتغذي لدى الفرد الإسراف بنسبة كبيرة متجاوزة درجة إشباع الحاجات الضرورية إلى إشباع الحاجات الثانوية غير

الضرورة بحيث تفقد الأفراد القدرة على التفكير السليم وتضليل وعمهم<sup>(1)</sup>، إذ أن نمط السلوك الاستهلاكي لدى الفرد يتأصل في مرحلة الطفولة (أي منذ الصغر) ويتأثر بالعديد من العوامل النفسية والاجتماعية والاقتصادية مثل التقليد والمحاكاة والدخل النقدي والإعلانات التجارية ووسائل الإعلام المختلفة<sup>(3)</sup>، ولغرض تعريف الثقافة الاستهلاكية لابد لنا من معرفة ما المقصود بالثقافة أولاً، فهي كلمة متكونة من عنصرين احدهم معنوي ويشمل القيم والأفكار والمعتقدات الدينية السائدة في المجتمع، والثاني هو مادي متمثل بالمباني والحاسبات والسيارات والأجهزة الكهربائية... الخ<sup>(4)</sup>، أما<sup>(5)</sup> فقد عرف الثقافة بأنها عامل حاسم وأساس في إقرار الفرد لحاجاته لأنها تنبع من القيم والمعتقدات المكتسبة من المحيطين به وأصبحت معياراً شخصياً للتعامل مع الآخرين عبر تفسير الحالات التي يتفاعل معها بصفته ضمن المجتمع، أما معنى الاستهلاك، فأن المتبع لهذه الكلمة في اللغة سيجد بأنها مأخوذة من الفعل هلك والذي يعني النفاذ أو التغير أو التبديل<sup>(6)</sup>، أما كلمة استهلاك كاصطلاح اقتصادي فأنها تعني استعمال المنتجات واستنفادها وإشباع حاجات الإنسان إشباعاً مباشراً<sup>(7)</sup>، كما يرمز مصطلح الاستهلاك إلى العوامل الاجتماعية والاقتصادية والثقافية<sup>(8)</sup>، ويؤثر التعليم في سلوك المستهلك وبرامج ترشيد الاستهلاك، فالرموز والحقائق المتولدة في المجتمع والتي تنتقل من جيل لآخر تكون محددة ومنظمة للسلوك الإنساني وتؤثر الثقافة على كل ما يحيط بالإنسان من فنون ونظام ومباني وملبس وغذاء وعمل، ويكون نظام القيم والعادات والتقاليد والسلوك الاجتماعي مكونات ثقافية تنعكس على نمط الاستهلاك في كافة المجالات<sup>(9)</sup>.

وفي سياق ما تقدم، يمكن تعريف الثقافة الاستهلاكية، بكونها مجموعة من الجوانب المعرفية النظرية والمكتسبة المصاحبة للعملية الاستهلاكية والتي تحدد آليات استعمال السلع والخدمات، فهي بذلك مرتبطة بمقومات الشخصية ونمط الحياة والعادات الاجتماعية السائدة في المجتمع والمكتسبة للفرد<sup>(10)</sup>، كما عرفها كل من<sup>(11)</sup> بأنها: مجموعة من المعاني والرموز والصور التي تصاحب العملية الاستهلاكية والتي تضفي عليها معناها وتحقق دلالتها في الحياة اليومية.

<sup>1</sup> زريقة، يسري: "اثر التلفزيون في نمو الثقافة الاستهلاكية" رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، سوريا، 2005، ص72.

<sup>2</sup> الجسمي، عبد الله: "الهوية وثقافة العولمة" دار التنوير للنشر، الإمارات، 2008، ص193.

<sup>3</sup> الرماني، زيد بن محمد: "الاستهلاك عند الأطفال"، مقال نشر في صحيفة الجزيرة السعودية، العدد 13140، الجمعة، 19 رمضان، 2008، ص31.

<sup>4</sup> إبراهيم، احمد: "إدارة الحياة في ترشيد الاستهلاك" الطبعة الأولى، الدار الأكاديمية للعلوم، مصر، 2010، ص100.

<sup>5</sup> البكري، ثامر ياسر: "الاتصالات التسويقية والترويج" الطبعة الأولى، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، 2016، ص80.

<sup>6</sup> عبدة، موفق محمد: "حماية المستهلك في الفقه الاقتصادي الإسلامي، دراسة مقارنة" الطبعة الأولى، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2002، ص30.

<sup>7</sup> نوفل، ربيع محمود: "اقتصاديات الأسرة وترشيد الاستهلاك" الطبعة الأولى، دار الناشر الدولي، الرياض، السعودية، 2006، ص55.

<sup>8</sup> حبيب، محمد عمر: "المظاهر الاجتماعية والثقافية المحددة لنمط الاستهلاكي في المجتمع الليبي"، المجلة الجامعة، المجلد الثاني، العدد الخامس عشر، 2013، ص230.

<sup>9</sup> الفريوي، محمد قاسم: "مبادئ التسويق الحديث" دار وائل للنشر، عمان، الاردن، 2001، ص28.

<sup>10</sup> نوفل، ربيع محمود: "اقتصاديات الأسرة وترشيد الاستهلاك" الطبعة الأولى، دار الناشر الدولي، الرياض، السعودية، 2006، ص36.

<sup>11</sup> أبو طالب، مها سليمان وعطوة، محمد جمال: "السلوك الشرائي واتجاهات ربات الأسر عند التسوق من وسائل البيع المباشرة"، مجلة الإسكندرية للتبادل العلمي، المجلد الرابع والعشرون، العدد الرابع، 2003، ص35-36.

وفي ضوء ما تقدم فإن الباحثين وضعوا تعريفا إجرائيا للثقافة الاستهلاكية بكونها: عملية تحويل مجموعة من العناصر المقدمة للطلبة من معارف وقيم وممارسات سلوكية بهدف رفع مستوى الوعي الاستهلاكي لديهم في سنوات الدراسة ومن ثم المجتمع من خلال المدارس.

ثانيا: اتجاهات معلمات المدارس نحو التربية الاستهلاكية السليمة:

تساهم العديد من الجهات في توطين وترسيخ الثقافة الاستهلاكية الجيدة لدى الأفراد، وتعد الأسرة والمدرسة أول بيئتين حاضنتين لها، فالأسرة تزود الطفل بالقيم من خلال سنوات حياته الأولى ومن ثم تكون المدرسة المكان المناسب والأساس لتلقي وتدریس وممارسة الطلاب لسلوكيات يتم الاستفادة منها في الحياة اليومية، فيتوافق وتعاون جهود كل من الأسرة والمدرسة والمجتمع يتم تعزيز قيم الثقافة الاستهلاكية الصحيحة والجيدة.

تعد المرحلة الابتدائية في حياة الفرد مرحلة وضع البذور الأولى للشخصية التي يكون لها دور أساس في تبلور ملامحها، إذ تكمن أهمية هذه المرحلة في مراقبة الأطفال وتوجيه سلوكهم التوجيه السليم الذي يعد أمرا ضروريا حتى يمكنهم المشاركة في تنظيم الاستهلاك، لذا فإن المرحلة الابتدائية تعد مرحلة تربوية هامة من مراحل التعليم المختلفة التي يطلق عليها بمرحلة الطفولة المتأخرة والتي تتراوح الأعمار فيها بين 6 إلى 12 سنة<sup>(1)</sup>، إذ يتم من خلالها تشكيل الصفات الشخصية للطفل وتحديد اتجاهاته وميوله، فهي فترة المرونة والقابلية على الحركة والتعليم وتطوير المهارات<sup>(2)</sup>، كما يسهل في هذه السنوات تعديل السلوك وغرس الاتجاهات الاقتصادية نظرا لما يتمتع به أطفال هذه المرحلة العمرية من درجة عالية من التقبل، لذا فإن إكساب الطفل للقيم الايجابية في هذه الفترة تمثل حاجة ملحة يمكن للمعلمة أن تسهم بنصيب كبير منها، فالمعلمة لها دور تطبيقي في غرس القيم الاستهلاكية الجيدة وهي القدوة التي يقع على عاتقها مسؤولية تنشئة الجيل بتنشئة منسجمة وقيم المجتمع الذي ينشأ فيه متمثلة بتنمية المعارف والميول والقدرات والعادات بحيث تتولد لديه اتجاهات ايجابية نحو ترشيد الاستهلاك والمحافظة على الممتلكات العامة في المجتمع، كونها تتمتع بمجموعة من الخصائص الشخصية والاجتماعية والتربوية التي تميزها عن غيرها من معلمات المراحل العمرية الأخرى، لذا تكون الاتجاهات مدخل ضروري لفهم القيم، إذ أنها تعبر عن ميل الفرد نحو اتخاذ موقف معين أو تبني فكرة ما في صورة تفضيل أو عدم تفضيل<sup>(3)</sup>، فضلا عن ذلك فأنها تمثل الآراء الايجابية والسلبية نحو موضوع معين حسب ميول الأشخاص وخبراتهم ورغباتهم<sup>(4)</sup>، فكلما زادت ثقافة المعلمة أو الأسرة التربوية، كلما ارتقى هذا الوعي الاستهلاكي وأصبح أكثر قدرة على التصرف المتوازن والرشيد بين الاستهلاك والاستثمار وزاد من قدرتهم في غرس هذه المفاهيم الاستهلاكية الصحيحة لدى الطلاب.

ثالثا: مجالات الثقافة الاستهلاكية

ركز البحث الحالي على المجالات الثلاثة الآتية:

<sup>1</sup> عمر، كامل عمر عارف وعيسى، عواطف محمود: "علاقة الاتجاهات الوالدية بالأداء الاستهلاكي للأبناء في مرحلة الطفولة (10-12)", مجلة دراسات الطفولة. معهد الدراسات العليا للطفولة، القاهرة، أكتوبر، 2007، ص30.

<sup>2</sup> القرعان، احمد خليل: "الطفولة المبكرة" الطبعة الأولى، دار الإسراء للنشر، عمان، الأردن، 2004، ص21.

<sup>3</sup> طه، طارق: "التسويق بالانترنت والتجارة الالكترونية" دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، مصر، 2006، ص365.

<sup>4</sup> الشريف، مها عبد الله: "اتجاهات أعضاء هيئة التدريس بجامعة ام القرى نحو الحوافز الجديدة" رسالة ماجستير، قسم الإدارة التربوية والتخطيط كلية التربية جامعة ام القرى، 2010، ص26.

### أولاً: مجال المعرفة والوعي الاستهلاكي:

يهتم هذا المجال بتنظيم الأفكار والمعلومات والخبرات المتعلقة بالتغذية الضرورية للمحافظة على صحة وسلامة العقل والجسم وبالتالي إدراك الطرق الصحيحة في استهلاك الغذاء التي تساعد على اكتساب الفرد للمعلومات والبحث عن المعارف وتشمل:

#### أ. التربية الغذائية:

يتم من خلالها تنمية الوعي الصحي من خلال إكساب أو تعديل مجموعة من المعارف والمهارات تتعلق بالتركيز على نوعية الغذاء وليس الكمية، فضلاً عن، الالتزام بوجبات استهلاك الطعام في مواعيدها وبيان مخاطر الأطعمة المكشوفة وتجنب استهلاكها<sup>(1)</sup>.

#### ب. مكونات الغذاء:

التركيز على اختيار طعام متكامل من حيث العناصر الغذائية والمناسب لاحتياجات الجسم ليحميه من سوء التغذية، فضلاً عن، تعديل العادات الغذائية الخاطئة بهدف غرس مفاهيم غذائية سليمة، ويتطلب ذلك المعرفة بمصادر الغذاء ومكوناته، فضلاً عن، التثقيف بأهم المأكولات والمشروبات الصحية وبأهمية تنوع أصناف الوجبات الغذائية<sup>(2)</sup>.

#### ج. المقتنيات الشخصية:

التركيز هنا في التثقيف الاستهلاكي للتمييز بين ما هو ضروري وما هو فائض عن الحاجة واقتناء الألعاب والأجهزة الأخرى وفقاً للحاجة إليها والمحافظة عليها أطول فترة ممكنة، فضلاً عن، التعرف على كيفية التصرف بالمقتنيات الفائضة عن الحاجة من خلال إهدائها للآخرين.

#### ثانياً: مجال قيم ترشيد الاستهلاك:

إن ترشيد الاستهلاك لا يعني تقليل الاستهلاك وإنما الاستعمال الأمثل للوصول إلى الهدف المطلوب دون هدر أو ضياعات<sup>(3)(4)</sup>، كما إنها تعني حسن استغلال الموارد المتاحة وعدم الإسراف في استعمالها وتقليل الفاقد منها قدر الإمكان<sup>(5)</sup>، ومن ذلك نستشف أن لقيم ترشيد الاستهلاك غايات تهدف في النهاية إلى تحقيق حماية الأموال من العبث وسوء الاستغلال<sup>(6)</sup>، وتشمل مجالات قيم ترشيد الاستهلاك جوانب متعددة منها:

<sup>1</sup> Weker, H.; Rudzka-Kantoch, Z.; Struciuska, M.; Maron, A.; Gozdalik, E.; Marcinkowska, M. and Klemarczyk, W: " Nutrition of preschool age children, general considerations and assessment of child nutrition ". Roczniki panstwowego Zakladu Higieny, Vol. 51, No. 4, 385-392, 2000, Page 385.

<sup>2</sup> Spurrier, J.N.; Magarey, A.A.; Golley, R.; Curnow, F. and Sawyer, M: " Relationships between the home environment and physical activity and dietary patterns of preschool children: a cross sectional study ". International Journal of Behavioral Nutrition and Physical Activity, No. 5, No. 31, 2008, page 34.

<sup>3</sup> حسن، هيثم سعيد: "إمكانية ترشيد استهلاك الوقود وحماية البيئة عند تسخين الماء"، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة العلوم الهندسية، المجلد السابع والثلاثون، العدد الأول، 2015، ص 11.

<sup>4</sup> World Energy Outlook, 2011 edition, (International Energy Agency, France, 2011). Page 127

<sup>1</sup> العيسوي، إبراهيم: "ترشيد الاستهلاك في مصر"، مجلة مصر المعاصرة، القاهرة، العدد 384، 1991، ص 73.

<sup>2</sup> المجالي، عبد الحميد: "مبادئ ترشيد استهلاك المياه في الفقه الإسلامي"، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد الثاني والثلاثون، العدد الثاني، 2005، ص 274.

## أ. قيم ترشيد استهلاك الماء:

يشكل الماء عصب الحياة الرئيس ويعد من أثنى الموارد المتوافرة على سطح الأرض، إلا أن الإفراط في استعمالها ما يزال يزداد بشكل مضطرب مما يستوجب غرس قيم في هذا المجال للمحافظة عليها وعدم الإفراط بها من خلال الحث على تجنب ترك الحنفية مفتوحة باستمرار وإتباع آداب استعمال المياه بالأسلوب الصحيح، فضلا عن، غرس مفهوم المسؤولية المجتمعية والحرص الدائم بالمحافظة على الثروات الطبيعية.

## ب. قيم ترشيد استهلاك الطاقة الكهربائية:

تشكل هذه الطاقة أهمية كبيرة في حياة الإنسان وأصبحت ضرورة ملحة له، وبما أن مصادر الحصول عليها تعتمد على النفط والغاز والمياه وهذه مصادر غير متجددة، لذا أصبح من الضروري التوجه بإجراءات تقنين استهلاكها والحد من الهدر فيها من خلال الحث على إطفاء المصابيح المضاءة نهارا وعدم الإسراف في استعمال الأجهزة المنزلية الكهربائية وتوعية الأصدقاء والمقربين بضرورة ترشيد استعمال الطاقة الكهربائية<sup>(1)</sup> <sup>(2)</sup>.

## ج. قيم ترشيد الإنفاق وتعزيز الادخار:

يتم هنا التعريف بمعنى الادخار، إذ انه يعني المتوفر من المال، ويتم ذلك من خلال التشجيع على اقتطاع جزء من المصروف اليومي لوقت الحاجة<sup>(3)</sup>، كما يكون لغرس مفهوم قيمة المال للشراء وفق الحاجة أهمية كبيرة مع التشجيع على مساعدة المحتاجين من خلال التوفير، فضلا عن، تجنب الشراء من الأسواق المرتفعة الثمن بقصد التفاخر أمام الأصدقاء.

## ثالثا: مجال الممارسات السلوكية

يتعلم الأطفال السلوك من خلال سلسلة من المواقف وتعامل الآخرين معهم ويكون ذلك من خلال:

## أ. التدريب:

يتم تدريب الأطفال على كيفية استعمال النقود، ويمكن للأسرة أن تساعد في عملية تدريب قدرات الطفل المعرفية من خلال اصطحابهم إلى الأسواق وممارسة عملية الشراء عمليا ومحاسبة البائع عن المشتريات وقيامه بالشراء للهدايا بنفسه.

## ب. المشاركة في الأنشطة الحركية:

تساعد هذه الأنشطة في تنمية مفاهيم ومدارك ومهارات الأطفال حركيا ومعرفيا ووجدانيا، وتكون من خلال تنظيم معارض لنتائج الطلاب عن ترشيد الاستهلاك والتشجيع على إقامة الرحلات المدرسية وصنع أشياء وحاجات ملموسة من

<sup>3</sup> المصري، رضوان والطبجي، احمد: "ترشيد استهلاك الطاقة وتحسين كفاءة استخدامها في بعض المنشآت الصناعية وتأثير ذلك على البيئة" نقابة المهندسين، دمشق، 2004، ص 25.

<sup>4</sup> المرسي، الصفصائي: "القيم الأسرية بين الأصالة والمعاصرة" دار الآفاق العربية، القاهرة، مصر، 2002، ص 257.

<sup>5</sup> الرفاعي حسن: "الاستهلاك والادخار في الاقتصاد" دار النفائس، بيروت، لبنان، 2006، ص 70.

تجميع بعض مخلفات البيئة لترسيخ مفهوم إعادة التدوير وإجراء المسابقات لأفضل الأعمال اتقاناً والمساهمة في زراعة بعض النباتات في حديقة المدرسة، فضلاً عن، تدريب الأطفال على الأعمال الجماعية ومساعدة الآخرين (1) (2).

### ج. القصص والرسوم:

بالإمكان استثمار القصص الواردة في المناهج التعليمية وتوضيح ذلك بأسلوب مبسط عن أهمية الترشيد من خلال ربط المفردات والمناهج ذات العلاقة كالقراءة والتربية الأسرية والدينية والوطنية بمفهوم ومواضيع الثقافة الاستهلاكية وتعزيز الترشيد ومكافأة الأطفال الجيدين، فضلاً عن، تشجيع الأطفال على الرسم والتكوين.

### المبحث الثالث: مناقشة نتائج البحث وتفسيرها

#### أولاً: وصف استجابات العينة للمجالات المبحوثة:

بلغ الوسط الحسابي العام لمجالات الثقافة الاستهلاكية 4,36 وهو بذلك أعلى من الوسط الفرضي البالغ 3 وبتحرف معياري 0,75 ويعكس ذلك أن هناك اتفاقاً عالياً من قبل العينة على فقرات هذه الاستبانة (والجدول، 2) يوضح ذلك على النحو الآتي:

جدول (2): وصف استجابات العينة للمجالات المبحوثة.

الأهمية النسبية	التحرف المعياري	الوسط	مقياس ليكرت					المجالات	
			1	2	3	4	5		
			لا اتفق بشدة	لا اتفق	محايد	أتفق	أتفق بشدة		
<b>أولاً: المعرفة والوعي الاستهلاكي</b>									
<b>أ- التربية الغذائية</b>									
%87	0,783	4,34	1	1	14	44	60	التكرار %	التوعية بالابتعاد عن استهلاك الكمية من الغذاء والاهتمام بنوعيته
			0,8	0,8	11,7	36,7	50		
%87	0,829	4,37	2	0	15	38	65	التكرار %	التوعية بضرورة الالتزام بمواعيد وجبات الطعام اليومية لغرس مفهوم الاستهلاك المنظم
			1,7	0	12,5	31,7	54,2		
%90	0,686	4,51	1	0	7	41	71	التكرار %	التوجيه إلى طرق التغذية السليمة والتعامل الصحيح مع الغذاء
			0,8	0	5,8	34,2	59,2		
%91	0,786	4,57	2	1	7	27	83	التكرار	

<sup>1</sup> راتب، أسامة كامل والخولي، أمين: "التربية الحركية للطفل" الطبعة الثالثة، دار الفكر، القاهرة، مصر، 1994، ص 42.

<sup>2</sup> Garcia, C.; Garcia, L.; Floyd, J & John, L: " Improving public health through early childhood movement programs ". Journal of Physical Education, Recreation and Dance, Vol. 73, No. 1, 27-31, 2002, page 27.

			1,7	0,8	5,8	22,5	69,2	%	التثقيف بضرورة غسل الخضار والفاواكه بشكل جيد قبل استهلاكها
%89	0,829	4,45	2	1	11	33	73	التكرار	بيان مخاطر الأطعمة المكشوفة والتثقيف بتجنب استهلاكها
			1,7	0,8	9,2	27,5	60,8	%	
%89	0,876	4,45	الإجمالي						
ب- مكونات الغذاء									
%87	0,709	4,37	0	3	7	53	57	التكرار	التعريف بمصادر الغذاء وفوائده
			0	2,5	5,8	44,2	47,5	%	
%87	0,739	4,34	1	1	10	52	56	التكرار	التوعية بمواصفات الأغذية التي تلي احتياجات الجسم
			0,8	0,8	8,3	43,3	46,7	%	
%91	0,660	4,53	0	1	8	37	74	التكرار	التثقيف بأهم المأكولات والمشروبات الصحية
			0	0,8	6,7	30,8	61,7	%	
%88	0,681	4,42	0	1	15	47	62	التكرار	التوعية بأهمية تنوع أصناف الوجبات الغذائية
			0	0,8	8,3	39,2	51,7	%	
	0,698	4,47	0	1	11	38	70	التكرار	المعرفة بمخاطر استهلاك الأغذية الجاهزة
			0	0,8	9,2	31,7	58,3	%	
%87	0,699	4,43	الإجمالي						
ج- المقتنيات الشخصية									
%86	0,703	4,29	0	0	17	51	52	التكرار	التثقيف الاستهلاكي للتمييز بين ما هو ضروري وما هو فائض عن الحاجة
			0	0	14,2	42,5	43,3	%	
%87	0,696	4,69	0	1	12	50	57	التكرار	التوعية بترتيب الاحتياجات وفقا للإمكانات المادية للأسرة
			0	0,8	10	41,7	47,5	%	
%84	0,826	4,20	0	4	19	46	51	التكرار	بيان أسباب شراء السلع ومن أين؟ ومتى؟ وكيف؟
			0	3,3	15,8	38,3	42,5	%	
%86	0,799	4,32	1	1	16	43	59	التكرار	التوعية باقتناء الألعاب والأجهزة والمقتنيات الأخرى بحسب الحاجة إليها والحفاظ عليها لأطول فترة ممكنة
			0,8	0,8	13,3	35,8	49,2	%	
%86	0,830	4,28	1	2	17	43	57	التكرار	التعريف بكيفية التصرف بالمقتنيات الفائضة عن الحاجة بإهدائها للآخرين
			0,8	1,7	14,2	35,8	47,5	%	
%86	0,772	4,29	الإجمالي						
%88	0,756	4,38	إجمالي المجال						
ثانياً: قيم ترشيد الاستهلاك									
أ- قيم ترشيد استهلاك الماء									

%92	0,665	4,61	0	1	9	26	84	التكرار	ترسيخ قيم تجنب هدر المياه والمحافظة عليها في المنزل والمدرسة
			0	0,8	7,5	21,7	70	%	
%93	0,609	4,63	0	0	8	29	83	التكرار	الحث على تجنب ترك الحنفية مفتوحة والانشغال بعمل اخر
			0	0	6,7	24,2	69,2	%	
%91	0,656	4,58	0	1	8	31	80	التكرار	التأكد من إغلاق حنفية الماء عند انتهاء الحاجة منها
			0	0,8	6,7	25,8	66,7	%	
%90	0,698	4,52	1	0	8	38	73	التكرار	القيام بفتح الحنفية ببطء وتجنب هدر المياه
			0,8	0	6,7	31,7	60,8	%	
%90	0,635	4,52	0	0	9	40	71	التكرار	غرس مفهوم المسؤولية والحرص الدائم على الثروات الوطنية
			0	0	7,5	33,3	59,2	%	
%91	0,652	4,57	الإجمالي						
ب- قيم استهلاك الطاقة الكهربائية									
%91	0,671	4,56	0	2	6	35	77	التكرار	الحرص على إطفاء المصابيح المضاءة نهارا في المنزل والصف
			0	1,7	5	29,2	64,1	%	
%91	0,605	4,56	0	1	4	42	73	التكرار	ترسيخ مفهوم توفير استخدام الطاقة الكهربائية والمحافظة عليها
			0	0,8	3,3	35	60,8	%	
%88	0,740	4,42	0	2	12	40	66	التكرار	تنبيه الأصدقاء والمقربين بضرورة ترشيد استخدام الطاقة الكهربائية
			0	1,7	10	33,3	55	%	
%91	0,683	4,56	1	0	8	35	77	التكرار	القيام بإطفاء المصابيح في أي مكان لا حاجة به للإضاءة
			0,8	0	5,8	29,2	64,2	%	
%89	0,647	4,46	0	0	10	45	65	التكرار	تجنب تشغيل الأجهزة الكهربائية لمدة طويلة
			0	0	8,3	37,5	54,2	%	
%90	0,671	4,51	الإجمالي						
ج- قيم ترشيد الإنفاق وتعزيز الادخار									
%91	0,574	4,58	0	0	5	40	75	التكرار	غرس قيم ادخار جزء من المصروف لإنفاقه عند الضرورة
			0	0	4,2	33,3	62,5	%	
%90	0,594	4,48	0	0	6	50	64	التكرار	الحرص على الالتزام بالمصروف المخصص للإنفاق
			0	0	5	41,7	53,3	%	
%85	0,753	4,27	0	0	22	44	54	التكرار	غرس قيمة المال وضروراته للشراء وفق الحاجة
			0	0	18,3	36,7	45	%	
%88	0,782	4,40	0	1	19	31	69	التكرار	تشجيع مساعدة المحتاجين بالمال من خلال التوفير في المصروف
			0	0,8	15,8	25,8	57,5	%	
%84	0,820	4,24	1	1	20	44	54	التكرار	

			0,8	0,8	16,7	36,7	45	%	غرس مفهوم تجنب الشراء من الأسواق المرتفعة الثمن بقصد التباهي أمام الأصدقاء
%88	0,721	4,40	الإجمالي						
%90	0,686	4,49	إجمالي المجال						
ثالثاً: الممارسات السلوكية									
أ- التدريب									
%88	0,760	4,40	0	1	17	35	67	التكرار	تدريب الطلاب على ممارسة العادات
			0	0,8	14,2	29,2	55,8	%	المستحبة لغسل الاسنان بعد تناول كل وجبة
%82	0,807	4,11	0	3	24	50	43	التكرار	ممارسة الشراء عمليا من خلال الطلب من الوالدين اصطحابهم الى الاسواق للشراء
			0	2,5	20	41,7	35,8	%	
%82	0,862	4,12	2	1	23	49	45	التكرار	التدريب على تعلم كيفية الشراء ومحاسبة البائع دون اي خطأ
			1,7	0,8	19,2	40,8	37,8	%	
%83	0,766	4,13	0	2	22	54	42	التكرار	التدريب على كيفية اختيار هدايا الأعياد والمناسبات
			0	1,7	18,3	45	35	%	
%85	0,845	4,26	2	0	19	43	56	التكرار	التدريب على كيفية الموازنة بين ما يتوفر لديه من مصروف واحتياجاته
			1,7	0	15,8	35,8	46,7	%	
%84	0,814	4,20	الإجمالي						
ب- الأنشطة الحركية									
%81	0,702	4,06	0	0	26	61	33	التكرار	اقامة او تنظيم معرض بسيط من نتاج الطلاب يتحدث عن ترشيد الاستهلاك
			0	0	21,7	50,8	27,5	%	
%80	0,772	3,98	1	3	22	66	28	التكرار	تقديم عروض مسرحية يجسد فيها الطلاب شخصيات ترسخ مفهوم الوعي الاستهلاكي
			0,8	2,5	18,3	55	23,3	%	
%81	0,792	4,06	1	1	25	56	37	التكرار	تقديم هدايا للجمعيات الخيرية تجمع ثمنها بالتشارك مع الطلاب
			0,8	0,8	20,8	46,7	30,8	%	
%87	0,690	4,33	0	0	15	50	55	التكرار	التشجيع على اقامة الرحلات المدرسية
			0	0	12,5	41,7	45,8	%	
%84	0,853	4,19	2	0	22	45	51	التكرار	تكوين اشياء فنية من مخلفات الاشياء لاكسابهم مفاهيم اعادة التدوير
			1,7	0	18,3	37,5	42,5	%	
%83	0,771	4,12	الإجمالي						

ج- القصص والرسوم									
%86	0,760	4,29	0	0	22	41	57	التكرار	عمل الملصقات الإرشادية البسيطة والنشرات عن مواضيع الثقافة الاستهلاكية وتعزيز الترشيد لبيان الاستهلاك السليم للغذاء
			0	0	18,3	34,2	47,5	%	
%88	0,708	4,44	0	0	15	37	68	التكرار	تعليم الطلاب المبادئ الدينية والقيم الإنسانية المعبرة عن مفهوم ترشيد الاستهلاك
			0	0	12,5	30,8	56,7	%	
%86	0,738	4,29	0	1	17	48	54	التكرار	ربط موضوع الثقافة الاستهلاكية بموضوعات المواد المدرسية الأخرى ذات العلاقة
			0	0,8	14,2	40	45	%	
%82	0,840	4,09	1	2	25	49	43	التكرار	استثمار القصص الواردة في المناهج التعليمية لتعريفهم بأسعار الأشياء التي تخصهم
			0,8	1,7	20,8	40,8	35,8	%	
%89	0,733	4,47	0	0	17	29	74	التكرار	مكافأة الطلاب في يوم رفعة العلم ممن يلتزم بما تعلمه من مفاهيم الترشيد ليكون قدوة لزملائه
			0	0	14,2	24,1	61,7	%	
%86	0,766	4,32	الإجمالي						
%84	0,788	4,22	إجمالي المجال						

ومن خلال ما تم الحصول عليه في أعلاه نلاحظ ما يأتي:

#### 1. وصف استجابات العينة لمجال المعرفة والوعي الاستهلاكي:

انجبت إجابات العينة لإجمالي هذا المجال بالاتفاق العالي إذ بلغ المتوسط الحسابي له 4,38 وبانحراف معياري 0,756 وبأهمية نسبية 88%، فقد جاء بعد التربية الغذائية بالمرتبة الأولى من حيث الأهمية النسبية البالغة 89% وبوسط حسابي مقداره 4,45 وبانحراف معياري 0,876 إذ أن أبرز الفقرات التي أسهمت في إيجابية هذا البعد هي (الفقرة، 4) والتي تتضمن (التثقيف بضرورة غسل الخضار والفواكه بشكل جيد قبل استهلاكها) ومن الواضح أن اتجاهات معلمات المدارس نحو تثقيف الطلبة بسلوكيات مستحبة لسلامة ونظافة الخضار والفواكه قبل تناولها.

أما بعد مكونات الغذاء فقد جاء بالمرتبة الثانية من حيث الأهمية النسبية والتي مقدارها 87% وبمتوسط حسابي مقداره 4,43 وبانحراف معياري قدره 0,699، إذ حصلت (الفقرة، 3) على هذه الأهمية والتي تنص على (التثقيف بأهم المأكولات والمشروبات الصحية) وهذا يعني أن اتجاهات المعلمات في المدارس المبحوثة يؤكدون على أن التثقيف يركز على التعرف بأهم ما يتناوله الطلاب من مأكولات ومشروبات صحية تحتوي على جميع الأنواع الضرورية للجسم من بروتينات و كربوهيدرات والفيتامينات والمعادن وكمية كافية من الماء ليكون غذاءً متوازناً.

أما بعد المقتنيات الشخصية فقد جاء بالمرتبة الثالثة من حيث الأهمية النسبية البالغة 86% وبوسط حسابي 4,29 وانحراف معياري 0,772، وان ابرز العناصر التي أسهمت في اغناء هذا البعد هي (الفقرة، 2) والتي تشير إلى (التوعية بترتيب الاحتياجات وفقاً للإمكانات المادية للأسرة) فقد كان اتجاه المعلمات من هذه الفقرة باتفاق عالي إذ بلغ المتوسط الحسابي لها 4,36 وانحراف معياري 0,696.

### 2. وصف استجابات العينة لمجال قيم ترشيد الاستهلاك:

اتجهت إجابات العينة لإجمالي هذا المجال بالاتفاق وبدرجة عالية، إذ بلغ المتوسط الحسابي له 4,40 وانحراف معياري 0,686 وبأهمية نسبية 90%، فقد جاء بعد قيم ترشيد استهلاك الماء بالمرتبة الأولى من حيث الأهمية النسبية والبالغة 91% وبمتوسط حسابي مقداره 4,57 وانحراف معياري 0,652، وقد ساهمت (الفقرة، 2) في ايجابية هذا البعد والتي تنص على (الحث على تجنب ترك الحنفية مفتوحة والانشغال بعمل آخر) وتعكس تلك النتيجة على دور المعلمة في تثبيت متجه ترشيد استهلاك الماء لدى الطلبة من خلال حث الطلبة على إتباع آداب استخدام الماء من خلال الترشيد في الاستعمال.

أما بعد استهلاك الطاقة الكهربائية فقد جاء بالمرتبة الثانية من حيث الأهمية النسبية البالغة 90% وبمتوسط حسابي بلغ قيمته 4,51 وانحراف معياري 0,671، فقد ساهمت (الفقرات، 1 و 2 و 4) في ايجابية هذا البعد إذ بلغ المتوسط لكل منها هو 4,66، إذ يمكن للمعلمات أن تنمي قيمة ترشيد استهلاك الطاقة الكهربائية وترسيخ مفهوم المحافظة عليها وتوعية الطلبة إلى وجود مصادر للطاقة أخرى يمكن أن يستفاد منها الإنسان مثل الطاقة الشمسية.

أما بعد قيم ترشيد الإنفاق وتعزيز الادخار فقد جاء بالمرتبة الثالثة من حيث الأهمية النسبية والبالغة 88% وبوسط حسابي 4,40 وانحراف معياري 0,721 ومن ابرز الفقرات التي أسهمت في ايجابية هذا البعد هي (الفقرة، 1) والتي تشير إلى (غرس قيم ادخار جزء من المصروف لإنفاقه عند الضرورة) فقد كان اتجاه المعلمات نحو هذه الفقرة باتفاق عالي، إذ بلغ المتوسط الحسابي لها 4,58 وانحراف معياري 0,574، إذ يمكن لها أن تنمي قيمة الادخار لدى الطلبة من خلال توجيههم لاقتناء صندوق خاص يضعون فيه جزء من مصروفهم فيه لتوضيح لهم عن فائدة الادخار.

### 3. وصف استجابات العينة لمجال الممارسات السلوكية:

اتجهت إجابات العينة لإجمالي هذا المجال بالاتفاق وبدرجة عالية، إذ بلغ المتوسط الحسابي له 4,22 وانحراف معياري 0,788 وبأهمية نسبية 84%، فقد جاء بعد القصص والرسوم بالمرتبة الأولى من حيث الأهمية النسبية والبالغة 86% وبمتوسط حسابي مقداره 4,32 وانحراف معياري 0,766، وقد أسهمت (الفقرة، 5) في اغناء هذا البعد والتي تشير إلى (مكافأة الطلاب في يوم رفعة العلم ممن يلتزم بما تعلمه من مفاهيم الترشيد ليكون قدوة لزملائه) تعكس هذه النتيجة إلى أهمية دور المعلمة في متابعة الطلاب وللتحقق من التزامهم بما تعلموه من المدرسة من قيم الترشيد ليتم مكافأتهم بذلك.

أما بعد الأنشطة الحركية فقد جاء بالمرتبة الثالثة من حيث الأهمية النسبية البالغة 83% وبوسط حسابي 4,12 وانحراف معياري 0,771، إذ أن ابرز الفقرات التي أسهمت في اغناء هذا البعد هي (الفقرة، 4) والتي مفادها (التشجيع على إقامة الرحلات المدرسية) إذ بلغ المتوسط الحسابي لها 4,33 وانحراف معياري 0,690 وتعكس تلك النتيجة على اتفاق المعلمات على أهمية النمو السليم للطلبة من خلال احتياجهم للحركة والتنقل ليكتسب ويتعلم قيم التعامل مع الجماعة.

أما بعد التدريب فقد جاء بالمرتبة الثانية من حيث الأهمية النسبية البالغة 84% وبمتوسط حسابي 4,20 وانحراف معياري 0,814، فقد ساهمت (الفقرة، 1) في اغناء هذا البعد والتي تشير إلى (تدريب الطلاب على ممارسة العادات المستحبة لغسل الأسنان بعد تناول كل وجبة) إذ حصلت على أهمية نسبية 88% وبوسط حسابي 4,40 وانحراف معياري 0,760 وتلك

النتيجة تدل على أن اتفاق العينة المبحوثة وبدرجة عالية بضرورة التدريب والممارسة على أداء العادات المستحبة منها غسل الأسنان بعد كل وجبة وخصوصاً بعد الإفطار والعشاء.

وفي سياق ما تقدم يمكن توضيح ترتيب المجالات حسب الأهمية النسبية كما في (الجدول، 3)

جدول (3): ترتيب الأهمية النسبية لمجالات الثقافة الاستهلاكية

الترتيب	الأهمية النسبية	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	المجالات
الثاني	%88	0,756	4,38	المعرفة والوعي الاستهلاكي
الأول	%90	0,686	4,49	قيم ترشيد الاستهلاك
الثالث	%84	0,788	4,22	الممارسات السلوكية

يتضح من الجدول أن مجال قيم ترشيد الاستهلاك حصل على المرتبة الأولى من حيث الأهمية النسبية وجاءت المجالات الأخرى متسلسلة بالأهمية النسبية (المعرفة والوعي الاستهلاكي، الممارسات السلوكية) لتمثل المرتبة الثانية والثالثة على التوالي من حيث الأهمية النسبية.

ثانياً: اختبار فرضيات البحث

1. اختبار الفرضية الأولى للبحث:

لغرض اختبار صحة الفرضية الأولى للبحث والتي تشير إلى (تمثيل اتجاهات المعلمين في المدارس المبحوثة نحو إكساب الثقافة الاستهلاكية للطلبة)، فقد تم استخدام اختبار (t) لكل مجال من مجالات الثقافة الاستهلاكية (الجدول، 4).

جدول (4): قيمة (t) لمجالات وأبعاد الثقافة الاستهلاكية.

ت	المجالات	الأبعاد	قيمة t	قيمة p	مستوى الدلالة
1	المعرفة والوعي الاستهلاكي	التربية الغذائية	138,532	0,000	0,025
		مكونات الغذاء	155,096		
		المقتنيات الشخصية	136,042		
	الإجمالي	246,100			
2	قيم ترشيد الاستهلاك	قيم ترشيد استهلاك الماء	171,547	0,000	0,025
		قيم ترشيد استهلاك الطاقة الكهربائية	164,563		
		قيم ترشيد الإنفاق وتعزيز الادخار	149,313		
	الإجمالي	277,911			
3	الممارسات السلوكية	التدريب	126,439	0,000	0,025
		الأنشطة الحركية	130,852		

	137,947	القصص والرسوم	
	226,865		الإجمالي

توضح النتائج المشار إليها في أعلاه أن قيمة (t) المحسوبة لكل من (المعرفة والوعي الاستهلاكي وقيم ترشيد الاستهلاك والممارسات السلوكية) هي 136,042 و 277,911 و 226,865 على التوالي وبما أن قيمة (p) لكل المجالات هي 0,000 اقل من مستوى الدلالة البالغ 0,025 وهذا بما يؤكد على قبول الفرضية الرئيسية الأولى للبحث أن المعلمين في المدارس المبحوثة يميلون نحو تطبيق برنامج لاكتساب الثقافة الاستهلاكية للطلبة لغرض تنمية الوعي الاستهلاكي لديهم كالتوعية بالغذاء الكامل من خلال الثقافة الغذائية وتكوين عادات غذائية سليمة، فضلاً عن، الحرص على أن تحتوي كل وجبة يتناولها الطالب العناصر الأساسية للغذاء.

## 2. اختبار الفروق في استجابات العينة بين المدارس المبحوثة:

بغية التحقق من الفرضية الثانية للبحث ولتي تشير إلى (توجد فروق ذات دلالة معنوية في استجابات العينة للمجالات المبحوثة بين المدارس) تم استخدام اختبار (t) لإيجاد معنوية الفروق وبعد إجراء المعالجات الإحصائية تم الحصول على النتائج وكما موضحة في (الجدول، 5).

### جدول (5): قيم (t) المحسوبة وبحسب المدارس المبحوثة.

المدارس	قيمة t المحسوبة	درجة الحرية	قيمة p	مستوى الدلالة
نور الهدى والفيحاء	3,555	16	0,000	0,025
نور الهدى و14 تموز	7,794	21	0,000	
نور الهدى والجنائن	2,080	11	0,038	
نور الهدى والإبداع	-5,756	21	0,000	
نور الهدى والنجاح	9,817	18	0,000	
الفيحاء و14 تموز	3,731	16	0,000	
الفيحاء والجنائن	-1,654	11	0,099	
الفيحاء والإبداع	-7,696	16	0,000	
الفيحاء والنجاح	7,077	16	0,000	
14 تموز والجنائن	5,098	11	0,000	
14 تموز والإبداع	-13,306	21	0,000	
14 تموز والنجاح	3,137	18	0,002	
الجنائن والإبداع	-3,804	11	0,000	
الجنائن والنجاح	7,181	11	0,000	
الإبداع والنجاح	14,999	18	0,000	

يتضح من النتائج المستحصل عليها أن أقيام (t) المحسوبة وبالقيمة 3,555 و 7,794 و 2,080 و -5,756 و 9,817 و 3,731 و -1,654 و -7,696 و 7,077 و -5,098 و -13,306 و 3,137 و -3,804 و 7,181 و 14,999 و بدرجات حرية 16 و 21 و 11 و 21 و 18 و 16 و 11

و16 و16 و11 و21 و18 و11 و11 و18 لكل من المدارس (نور الهدى والفيحاء) و(نور الهدى و14 تموز) و(نور الهدى والجنائن) و(نور الهدى والإبداع) و(الفيحاء و14 تموز) و(الفيحاء والجنائن) و(الفيحاء والإبداع) و(الفيحاء والنجاح) و(14 تموز والجنائن) و(14 تموز والإبداع) و(14 تموز والنجاح) و(الجنائن والإبداع) و(الجنائن والنجاح) و(النجاح) على التوالي وان قيمة p هي اقل من مستوى الدلالة 0,025 ماعدا الفروق بين مدرستي (نور الهدى والجنائن) و(الفيحاء والجنائن) وبذلك تقبل الفرضية الثانية للبحث التي توضح وجود فروق ذات دلالة معنوية في استجابات العينة يعزى سبب ذلك إلى اختلاف مستويات الثقافة فقد تبين ضمن وصف العينة أن أغلبها من حملة شهادة الدبلوم ثم تليها البكالوريوس.

#### المبحث الرابع: الاستنتاجات والتوصيات

##### أولاً: الاستنتاجات:

1. أظهرت النتائج أن مجال قيم ترشيد قد جاءت بالمرتبة الأولى من الاتفاق واهتمام العينة المبحوثة ثم يليها مجال المعرفة والوعي الاستهلاكي بالمرحلة الثانية وأخيراً مجال الممارسات السلوكية بالمرحلة الثالثة.
2. تبين من النتائج أن مجالات إكساب الثقافة الاستهلاكية للطلبة قد حققت ميلاً كافياً من قبل المعلمين في المدارس المبحوثة.
3. أكدت النتائج إلى أن هناك فروقاً دالة إحصائية في استجابات المعلمين لتحديد اتجاهاتهم نحو مجالات إكساب الثقافة الاستهلاكية بحسب المدارس المبحوثة باستثناء بين المدارس (نور الهدى والجنائن) و(الفيحاء والجنائن).

##### التوصيات:

1. ضرورة قيام وزارة التربية بإعادة صياغة المناهج الدراسية وتضمينها بمجالات ومفهوم الثقافة الاستهلاكية وعلى المراحل الدراسية كافة لكون نشر الثقافة الاستهلاكية والتوعية بها يجب أن تكون جزءاً أساسياً من النظام التعليمي.
2. قيام المدارس بالفعاليات والمناسبات التي تركز على ترسيخ مفهوم الوعي الاستهلاكي.
3. إعداد وصياغة برامج توعوية وإرشادية من قبل المؤسسات التعليمية للمساعدة في تنمية الوعي الاستهلاكي السليم وغرس قيم الادخار وترشيد الاستهلاك.
4. تقديم الحوافز المادية والمعنوية للمشاركين في البرامج التدريبية التثقيفية من الملاكات التربوية.

##### قائمة المراجع:

- 1- إبراهيم، احمد: "إدارة الحياة في ترشيد الاستهلاك" الطبعة الأولى، الدار الأكاديمية للعلوم، مصر، 2010.
- 2- البكري، ثامر ياسر: "الاتصالات التسويقية والترويج" الطبعة الأولى، دار ومكتبة الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016.
- 3- أبو طالب، مها سليمان وعطوة، محمد جمال: "السلوك الشرائي واتجاهات ربات الأسر عند التسوق من وسائل البيع المباشرة"، مجلة الإسكندرية للتبادل العلمي، المجلد الرابع والعشرون، العدد الرابع، 2003.
- 4- الجسسي، عبد الله: "الهوية وثقافة العولمة" دار التنوير للنشر، الإمارات، 2008.

- 5- حبيب، محمد عمر: "المظاهر الاجتماعية والثقافية المحددة لنمط الاستهلاكي في المجتمع الليبي"، المجلة الجامعة، المجلد الثاني، العدد الخامس عشر، 2013.
- 6- حسن هيثم سعيد: "إمكانية ترشيد استهلاك الوقود وحماية البيئة عند تسخين الماء"، مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية، سلسلة العلوم الهندسية، المجلد السابع والثلاثون، العدد الأول، 2015.
- 7- راتب، أسامة كامل والخولي، أمين: "التربية الحركية للطفل" الطبعة الثالثة، دار الفكر، القاهرة، مصر، 1994.
- 8- الرفاعي حسن: "الاستهلاك والادخار في الاقتصاد" دار النفائس، بيروت، لبنان، 2006.
- 9- الرماني، زيد بن محمد: "الاستهلاك عند الأطفال"، مقال نشر في صحيفة الجزيرة السعودية، العدد 13140، الجمعة، 19 رمضان، 2008.
- 10- زريقة، يسري: "اثر التلفزيون في نمو الثقافة الاستهلاكية" رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، سوريا، 2005.
- 11- طه، طارق: "التسويق بالانترنت والتجارة الالكترونية" دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، مصر، 2006.
- 12- عمر، كامل عمر عارف وعيسى، عواطف محمود: "علاقة الاتجاهات الوالدية بالأداء الاستهلاكي للأبناء في مرحلة الطفولة (10-12)"، مجلة دراسات الطفولة. معهد الدراسات العليا للطفولة. القاهرة، أكتوبر، 2007.
- 13- عبدة، موفق محمد: "حماية المستهلك في الفقه الاقتصادي الإسلامي، دراسة مقارنة" الطبعة الأولى، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2002.
- 14- العيسوي، إبراهيم: "ترشيد الاستهلاك في مصر"، مجلة مصر المعاصرة، القاهرة، العدد 384، 1991.
- 15- القرعان، احمد خليل: "الطفولة المبكرة" الطبعة الأولى، دار الإسراء للنشر، عمان، الأردن، 2004.
- 16- القريوتي، محمد قاسم: "مبادئ التسويق الحديث" دار وائل للنشر، عمان، الأردن، 2001.
- 17- المجالي عبد الحميد: "مبادئ ترشيد استهلاك المياه في الفقه الإسلامي"، مجلة دراسات علوم الشريعة والقانون، المجلد الثاني والثلاثون، العدد الثاني، 2005.
- 18- المرسي، الصفصافي: "القيم الأسرية بين الأصالة والمعاصرة" دار الأفاق العربية، القاهرة، مصر، 2002.
- 19- المصري، رضوان والطبيجي، احمد: "ترشيد استهلاك الطاقة وتحسين كفاءة استخدامها في بعض المنشآت الصناعية وتأثير ذلك على البيئة" نقابة المهندسين، دمشق، 2004.
- 20- الشريف، مها عبد الله: "اتجاهات أعضاء هيئة التدريس بجامعة أم القرى نحو الحوافز الجديدة" رسالة ماجستير، قسم الإدارة التربوية والتخطيط كلية التربية جامعة أم القرى، 2010.
- 21- نوفل، ربيع محمود: "اقتصاديات الأسرة وترشيد الاستهلاك" الطبعة الأولى، دار الناشر الدولي، الرياض، السعودية، 2006.
22. Garcia, C.; Garcia, L.; Floyd, J & John, L: " Improving public health through early childhood movement programs ". Journal of Physical Education, Recreation and Dance, Vol. 73, No. 1, 27-31, 2002.



23. Spurrier, J.N.; Magarey, A.A.; Golley, R.; Curnow, F. and Sawyer, M: " **Relationships between the home environment and physical activity and dietary patterns of preschool children: a cross sectional study** ". International Journal of Behavioral Nutrition and Physical Activity, Vol. 5, No. 31, 2008.
24. Weker, H.; Rudzka-Kantoch, Z.; Struciuska, M.; Maron, A.; Gozdalik, E.; Marcinkowska, M. and Klemarczyk, W: " **Nutrition of preschool age children, general considerations and assessment of child nutrition** ". Roczniki panstwowego Zakladu Higieny, Vol. 51, No. 4, 385-392, 2000. [Article in Polish].
25. **World Energy Outlook**, 2011 edition, (International Energy Agency, France, 2011).

## انعكاسات ظاهرة الهجرة الخارجية على بنية الأسرة ووظائف أفرادها في المجتمع النفزاوي "دراسة سوسيوديموغرافية"

د.نعيمة الفقيه/الإدارة الجهوية للشؤون الاجتماعية بقبلي، تونس

حدي حرشاني/أخصائية اجتماعية مهيئة الحقيقة والكرامة، تونس

131

### ملخص:

فرضت الهجرة الخارجية نفسها على المستوى الأكاديمي ومستوى المؤسسات البحثية بسبب تزايد تأثيراتها التي تمسّ بدرجة أولى الأسرة. ومن هنا تأتي أهمية هذه المقالة لإثبات أنّ الهجرة أصبحت واقعا نلتمسه في قسم هامّ من الأسر سواء بنفزاوة التي شهدت تزييدا مطردا لهجرة أرباب الأسر منذ الستينات أو بتونس وللإجابة عن إشكال هامّ مازال مطروحا يتعلّق بظاهرة الهجرة الخارجية وانعكاساتها في بنية ووظائف أسرة المهاجر وعلاقات أفرادها. تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على حقيقة الحراك السكاني نحو الخارج بنفزاوة وتبين تاريخها وتزايدها ومن ثمّ الكشف عن تأثيراتها على أسرة المهاجر الباقية بمنطقة المنشأ. وبيّنت الدراسة أنّه يمكن للهجرة أن تلعب دورا مهماً في النهوض بالأسرة كما لها أن تؤثر سلبا على هذه الخلية الاجتماعية.

الكلمات المفتاحية: الهجرة الخارجية- الأسرة- العلاقات الأسرية- الحراك السكاني- بنية ووظائف الأسرة.

### مقدمة:

أصبحت الهجرة الدوليّة اليوم ظاهرة حيويّة على المستويين البنائي والوظيفي في خارطة المجتمع النّفزاوي خصوصا والمجتمع التّونسي والمغاربي بصفة عامّة. وأصبح من العسير التّقليل من قيمتها أو التّغاضي عنها للأهميّة التي تكتسبها في الآونة الأخيرة، فقد أثبتت الاحصائيّات ارتفاع معدّلات هذه الظّاهرة حيث بلغ عدد الجالية التّونسيّة بالخارج سنة 2009 ما يقارب 1098212 مهاجرا(وزارة الشؤون الاجتماعية والتضامن، 2009). وتزايدت صلّتها بالأسرة، بشكل باتت فيه التّحرّكات الهجرية وخصوصا تحرّكات الأزواج ذات أثر واضح في خصائص الأسرة البنيويّة والوظيفيّة. ولا شكّ في أنّ التّفاعل القائم بين الخليّة الأسريّة وعملية التّحرّك السّكاني لجدير بأن يفضي إلى تحولات عميقة تعيشها الأسرة إلى درجة أصبحت فيها الهجرة والأسرة يمثّلان مع بعضهما البعض النّقطة المركزيّة في سياسات الدّول سواء المصدّرة أو المستقبلة للمهاجرين وفي البرامج التّنمويّة العربيّة والمتوسّطيّة والأوروبيّة والعالميّة. ولئن عمل عديد الباحثين على تناول موضوع الهجرة الدوليّة في مستوى تأثيرها على الأسرة مولين الأهميّة القصوى للانعكاسات على الجانب الاقتصادي مع التّغاضي جزئيّا أو كليّا عن انعكاساتها في بقيّة الجوانب الحياتيّة الأسريّة، فإنّ ذلك جعلنا نجد الفرصة سانحة حتّى نقدّم مقالا حديثا وأكثر جديّة مواكبا لتطوّرات الهجرة وبعيدا عن الدّراسات السّابقة في الآن ذاته وبشكل يتوافق مع زاوية النّظر المتعولة لدراسة الأسرة الحديثة في ضوء تصاعد تحرّكات أفرادها نحو الدّول الغربيّة.

لقد عرف المجتمع النَّفزاوي<sup>1</sup> ظاهرة الهجرة الدوليَّة منذ زمن طويل، وما تزال حتَّى الآن تشكِّل متغيِّراً أساسياً في بنائه الاجتماعي وفي العلاقة بين أسر المهاجرين والعالم الغربي. هذه الظَّاهرة تزايدت أكثر في السَّنوات الرَّاهنة نظراً للإقبال عليها من طرف متساكني المنطقة- مجال البحث، وبدت جد منتشرة بالجهة بشكل باتت تمسّ فيه نسبة هامّة من الأسر. ورغم انعكاساتها السَّلبية سواء على الصَّعيد الأسري أو الاجتماعي، إلَّا أنَّها تلقى المزيد من الاقبال من قبل كمّ هائل من أصيلي الجهة الّذين يتوافدون على تجربة التّواجد بالخارج الّتي تحكمها عوامل اقتصاديَّة واجتماعيَّة وثقافيَّة ونفسيَّة دافعة أو جاذبة تحدّد للمهاجر النَّفزاوي اتِّباع منعى يتماشى وحاجته إلى الانتقال إلى الخارج، وهو ما تبيّنته النُّظريَّات المعاصرة للهجرة الّتي اعتبرت التّوجّه نحو الغرب محكوم بقوى الطُّرد وقوى الجذب. وقد تختلف نظريَّات الهجرة الدوليَّة في تفسير أسبابها ونتائجها تبعاً لاختلاف زوايا نظر الباحثين لهذه المسألة، إلَّا أنَّها تجمع على اتِّفاق يقرّ بأنّ الهجرة الخارجيّة ظاهرة أمّلتها مقتضيات التّغيّر الاجتماعي وعزّزتها حاجة المهاجرين لتحسين أوضاع أسرهم الباقية بنفزاوة.

من الأكيد أنّ الهجرة الدوليَّة ليست بظاهرة جديدة في مجتمع نفزاوة ولكن جديدها هو ما يحصل من تغيّر في حجمها وأنماطها ودوافعها وأثارها بشكل يجعل منها استراتيجيّة تقويّ ديناميكيَّة الأسرة وتزيد في فعاليتها على إثر تعزيز منزلتها الاجتماعيَّة. وهو ما يجعل من هذه الظَّاهرة في حاجة لنموذج فكري معاصر مواكب للحدّات ومتطلّبات العصر يتناول انعكاسات هذه الظَّاهرة بصورة شموليّة على الوحدة الأسريَّة الّتي لعبت دوراً كبيراً في خلق هذه الحركيّة السَّكانيَّة، ومن ثمّ جاءت هذه الدِّراسة لتلقي الضَّوء على ظاهرة هجرة أرباب الأسر في خضمّ الحدّات المتعوملة من نفزاوة نحو الخارج في ظلّ هذه الطُّروف والمعطيات يشكِّل أمراً ذا أهمّيَّة لما قد تبرزه الدِّراسة من نتائج سواء على الأسر الباقية أو على المجتمع المحليّ والوطني بشكل عامّ، حتافق يمكن الاستفادة منها على المستويين العلمي والعملّي. واقتضت المحاولة التأسيسيَّة لهذه الدِّراسة تنزيل البحث ضمن سياق نظري تمثّل في نظريَّة الجذب والطرْد ونظريَّة التّغيّر الاجتماعي ونظريَّة الحاجيات التكميليَّة لروبرت وونش ونظريَّة الأدوار لدوكستر، هذه النُّظريَّات يتنزّل اختيارها في سياق التّفاعل الجدلي للباحثة المتزامن مع الظاهرة المدروسة بشكل يمكنها من مقارنة الظاهرة الهجرة وفكّ ملامستها الخفيَّة للكشف عن كفيَّة اشتغالها وحقيقة تأثيرها على أسرة المهاجر. أردفنا هذه النُّظريَّات بدراسة ميدانية تؤكّد مدى فاعليتها الإجرائية في فهم واستجلاء باطن الظاهرة وإظهار أشكال التفاعل الأسري مع تجربة تحرك أرباب الأسر نحو الخارج. وكنتيجة لهذه الدِّراسة فإن للهجرة إسهامات هامة تساعد الأسرة على تحقيق حاجياتها والرفق بأدوارها وعلاقات أفرادها ومكانتها وذلك عبر تنمية مداخلها وتحسين مستوى عيشها ودعم قيمها الثقافيَّة والسلوكية وأدوارها الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة والرفق بوضعها الديموغرافي. كما أن هناك أثر واضح لغياب الأب في انتشار بعض السلوكيات اللاسوية لدى الزوجين والأبناء ويكون لها بعض المخاطر على الحياة الأسرية التي يشوبها الخلل والتفكك وتصبح مهددة بالاندثار في ظلّ تواجد الأب بالمهجر.

في ضوء ما سبق حاولنا صياغة الإشكالية المركزيَّة التاليَّة: كيف تعيش الأسرة الباقية بنفزاوة هجرة الأب؟ وماهي مختلف التحوّلات التي تشهدها؟

#### أهمية الدِّراسة :

تبرز أهمية الدِّراسة الحاليَّة من خلال أهمية الهجرة الخارجيّة وعلاقتها بالأسرة الباقية بمنطقة الأصل، هذه الأخيرة التي تعتبر من المواضيع الشديدة الأهمية والتي تشكِّل تحدياً مطروحاً خاصّة في عصر تشهد فيه مناطق العالم المزيد من الانفتاح على

<sup>1</sup> نفزاوة تمثل منطقة البحث الميداني، وهي ولاية تسمى حالياً قبلي تقع في جنوب البلاد التونسية، وتم اختيارها لأنها عرفت بظاهرة الهجرة الخارجيّة منذ الستينات ومازالت متواصلة إلى حدود اليوم.

بعضها البعض وتزايد فيه الحاجة لتحركات السكانية. كما تبرز أهمية هذه الدراسة من خلال العمل على الإسهام في تشكيل أرضية علمية تكون بدورها منطلقا وإطارا مرجعيا لفهم ظاهرة سكانية ميزت ومازالت تميز جهة نفاوة والكشف عن أبرز خصوصياتها وإفرازاتها داخل أهم الوحدات الاجتماعية ألا وهي الأسرة.

#### 1- الإطار المفاهيمي للدراسة :

##### 1- مفهوم الهجرة الخارجية :

حسب الدكتور الأمين الكلاعي "تعَدّ الهجرة الخارجية الحالة التي يجتاز فيها المهاجر حدود بلاده البرّية أو البحريّة أو الجوّية متّجها إلى بلد آخر" (الأمين الكلاعي، 2002). وتعتبر الحاجة للهجرة الخارجية متأكّدة وتستجيب للتقسيم العالمي للعمل، فالدول الأجنبية بتركيبها السكانية وخصائصها الديموغرافية وتكدّس ثرواتها وأنماط إنتاجها المتطورة تظلّ رغم حدّها لتيارات الهجرة مواطن استقطاب لمجتمعات نامية ذات كثافة سكانية مرتفعة ونمط إنتاجي فلاحي تقليدي ومستوى عيش متدنّ. فالهجرة الخارجية في هذا المستوى تظهر بمثابة الاستراتيجية السكانية المعدّلة لمتطلّبات النمو والتّمنية بين الدول النامية والدول المتقدّمة، لذلك أصبحت لهذه الظاهرة مكانة متميّزة في حياة الأسر والمجتمعات وفي اقتصاديات أغلب الدول خاصّة وأتّها تعدّ مورد رزق لأسر كثيرة في هذا العالم.

وتعريفنا الإجمالي للهجرة الخارجية في هذه الدراسة يتمثل في "أنّ الهجرة عمليّة مغادرة لأرض الوطن تجاه أماكن أخرى من العالم حيث تتوقّر سبل تحسين الحياة وللخروج من وضعيّة اجتماعيّة لعيش أخرى أفضل. وتكون دوافع هذه المغادرة عديدة ومتنوّعة كلّ حسب أسبابه الخاصّة وأهدافه المرسومة بصورة مسبقة وتكون الأسرة الباقية الحلقة المعبّرة عمّا ينجّر عن الهجرة من تأثيرات تعكس قيمتها المتزايدة في السّنوات الأخيرة".

##### 2- مفهوم الأسرة :

تعَدّ الأسرة حسب علم الاجتماع "وحدة اجتماعيّة يقترن بها رجل بإمرأة في علاقة مشروعّة يقَرّها العرف والدين بعقد رسمي موثوق عبر مسيرة المجتمع التّطوّريّة تسفر عن إنجاب أبناء وتجمعهم معيشة مشتركة في مكان واحد" (مجموعة من المؤلفين، 1992).

وتظهر الأسرة كما تراها الباحثة إجرانّا "مؤسّسة اجتماعيّة إنسانيّة تتألّف من الأبوين والأبناء، ومجموع الأسر تكوّن النّسيج المجتمعي لبلد معيّن. نظريّا تأخذ هذه الخليّة شكلين هما الأسرة النّواة والأسرة الممتدّة وواقعيا بجهة نفاوة تتواجد الأسرة الانتقاليّة إلى جانب الشّكلين المذكورين وهي الأسرة التي تمثّل مواصفات الأسرة النّواة وفي نفس الوقت لا تنقطع تواصلها عن الأسرة الممتدّة وخصوصيّاتها". وتتجلّى الأسرة بمثابة حقيقة اجتماعيّة ضروريّة في حياة الفرد والمجتمع على حدّ السّواء، تسهم من جهة في تعزيز وجود الفرد وحقوقه ومكانته وبناء شخصيّته عبر منظومة العلاقات القائمة داخل هذه الخليّة، ومن جهة أخرى تعزّز الموروث الاجتماعي والثّقافي للمجتمعات، فهي مصدر انتعاش الأفراد وحمائهم، وأداة للرّقي بالمجتمعات. هذا يقَرّ بأنّ أيّة تحركات هجريّة لأحد أفراد هذه المؤسّسة يكون لها أثر جليّ على بنية ووظائف الأسرة التي تعدّ مصدر للظاهرة السّكانية موضوع الدّرس ألا وهي الهجرة الدوليّة.

##### 3- مفهوم التغير الاجتماعي :

استخدم هذا المصطلح لدى علماء الاجتماع للإشارة إلى ظاهرة التحوّل والنّمو والتكامل والتكيّف، فهو يعني الأوضاع الجديدة التي تطرأ على البناء الاجتماعي والنّظم والعادات وأدوات المجتمع نتيجة لتشريع أو قاعدة جديدة لضبط السّلك، أو كنتاج

لتغيّر في بناء فرعي أو في جانب من الوجود الاجتماعي أو البيئة الطبيعيّة أو الاجتماعيّة. أما روس فينسب إلى تعريف التغيّر الاجتماعي بوصفه "التّعدّيات التي تحدث في المعاني والقيم التي تنشر في المجتمع أو بين بعض جماعاته الفرعية" (محمد الجوهري، 1995).

## II- الإطار النظري للدراسة :

### 1- المسار التاريخي للهجرة الخارجية بجهة نفاوّة :

إنّ التّوجّه نحو الخارج بمنطقة نفاوّة ليست بظاهرة جديدة بل قديمة متجدّدة تتأصّل بتاريخ الجهة منذ زمن بعيد. ويعود ميلاد هذه الظّاهرة إلى القرن 19 وهو ما يمثّل فترة انتصاب الاستعمار الفرنسي. وما توصلنا إليه هو أنّ التّدقّقات الهجرية في بداية مسارها التاريخي لم تكن هامةً لكتّما تزايدت بعد حرب 1939-1945 وبصورة خاصّة إثر الاستقلال. وتبيّن من خلال الأدبيّات الخاصّة بالهجرة أنّ التّعدادات السّكانية لم تتناول الاحصائيّات الخاصّة بالمهاجرين إلّا منذ تعداد 1966 (Baduel، 1980) وهو ما يجعلنا بصدد غموض يكتسي الاحصائيّات الحقيقيّة للجالية النّفاوّة بالخارج في بداية تاريخها. لكنّ تتبّع تاريخ الجهة والتّعمّق في أبحاث السّوسولوجي بيير روبري بادويل يمثّل إلى معرفة تاريخ عمليّة الهجرة بنفاوّة والذي ينقسم إلى ثلاث أطوار رئيسيّة وهي:

- طور ما قبل الاستقلال: هجرة خارجيّة شبه منعدمة: كما الحال على مستوى وطني كانت الهجرة نحو الخارج بجهة نفاوّة ضعيفة جدًا. في تلك الفترة غادر القليل من النّفاويين المنطقة وتوجّهوا نحو فرنسا بصفة مؤقتة بهدف العمل، ولم يتجاوز عددهم 20 مهاجرا، ثمّ تزايد هذا العدد قليلا ليبلغ قرابة الأربعين فردا على إثر الحرب ولقد التحق آنذاك ثلّة من النّفاويين بالجيش الفرنسيّة وشاركوا في معركة مونتني كاسينو (Baduel، 1980).

- طور الحكم الدّاتي بتونس: بداية التّدقّقات الهجرية المؤقتة: في هذه الفترة وجدت حالات من التّيّارات الهجرية بالجهة لكتّما ظلّت ضعيفة ومحدودة، وكانت حالات المغادرة على إثر جملة من التّوصيات المتأتمية من طرف مسؤول بجمنة والذي قام بتوجيه عدد من النّفاويين نحو فرنسا.

- طور تزايد الهجرة الخارجية: 1964 – 1973: عاشت الجهة في هذه الفترة تزايدا هاما للتّيّارات الهجرية، فقد بدأت التّوجّهات نحو الخارج سنة 1964 وتواصلت بصورة متزايدة حتى سنة 1973.

### 2- تطوّر ظاهرة الهجرة الخارجية بجهة نفاوّة

بما أنّ المجتمع كيان متغيّر تظهر الهجرة الخارجية معطى غير ثابت فهي عمليّة سكانية متزايدة في ديناميكيّتها بفضل تزايد عدد المهاجرين واتساع دائرة التّوجه نحو الخارج من جميع الفئات العمريّة والشّرائح الاجتماعيّة إلى أن أضحت ظاهرة ملفتة للانتباه.

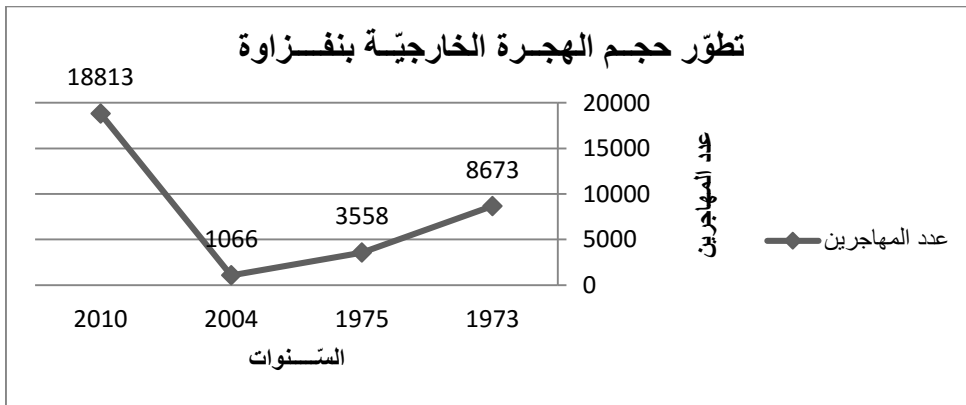
جدول رقم (1): معطيات إحصائية حول عدد المهاجرين بجهة نفاوّة

السنة	1973	1975	2004	2010
عدد المهاجرين	8673	3558	1066	18813

المصدر: بن حمادي، 1979، ص 249، المعهد الوطني لإحصاء

أثناء الفترة المتراوحة بين سنتي 1964 و1974، توخّت بلادنا سياسة هجرية هدفها تجاوز الأزمة الاقتصادية التي يعيشها المجتمع عبر إبرام جملة من الاتفاقيات مع دول أوروبية وأخرى عربية ممّا سهّل تدفّق المهاجرين نحو الخارج. ووقع تنظيم هذه التّدفّقات عبر عقود عمل تزايدت من (1.7%) من جملة العقود من قبل ديوان الهجرة لسنة 1964، لتصل (6.5%) سنة 1970، و(15.7%) سنة 1973 (Baduel, 1980). وهو ما يفسّر تزايد حجم ظاهرة الهجرة الخارجية في تونس وفي نفاذها على وجه الخصوص، حيث بلغ عدد المهاجرين بمجتمعنا المحلي سنة 1973، 8673 مهاجرا. وعلى ضوء الاحصائيات المتحصّل عليها نلاحظ تراجع هذا العدد سنة 1975 ليصل إلى 3558 مهاجرا فقط، وذلك مرده الاجراءات التي قامت بها فرنسا بغية توقيف التيارات الهجرية بسبب الأزمة التي تواجهها، وهو ما جعل البلاد تشهد عودة كمّ هائل من المهاجرين بدءا من سنة 1974. ورغم تواصل التّدفّقات الهجرية إلا أنّها ظلّت محدودة إلى فترة ما بعد الاستقلال وحتى بدء الستينات، لكنّها عرفت تزايدا مطردا في السنوات الأخيرة، بشكل وصل فيه عدد المهاجرين إلى 18813 مهاجرا سنة 2010 بعد أن كان سنة 2004، 1066 مهاجرا فقط. ما نستطيع استقراءه، هو تزايد ظاهرة الهجرة الدولية بنفاذها، ورغم اضطراب تطورها إلا أنّها تظلّ ظاهرة حيّة يقبل على خوضها متساكني المنطقة بطريقة تعكس ديناميكية المجتمع الذي تتصاعد تحركات أفرادها نحو الخارج. ونتبيّن بصورة جليّة تطوّر الظاهرة المدروسة من خلال الرسم البياني التالي:

الرّسم البياني رقم (1): يوضّح تطوّر حجم ظاهرة الهجرة الخارجية بنفاذها



كانت الهجرة في الماضي وليدة السياسة الاستعمارية والوضع الصّعبة التي تعيشها نفاذها على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، لكن اليوم أصبحت الهجرة نتاجا للعولمة وحرية الاقتصاد والتحوّلات الاجتماعية العميقة، إلى درجة أصبحت فيها الجهة غير ملائمة لعديد الأهالي من منتجين فلاحين صغار وحرفيين وطلبة وعاطلين عن العمل، من شباب ومن أرباب أسر، خاصة على إثر شعورهم بعدم الأمان في ظلّ تحوّلات عالميّة متقلّبة (الأزمات الاقتصادية، عدم استقرار الفلاحة) وتطوّر وسائل الاعلام التي تبث صورة متميّزة عن العالم الغربي، بشكل يقوّي الحاجة للمغادرة والاتّجاه نحو مجتمعات تعتبر آفاقا في ظلّها يرنو الفرد للزّقي بوضعه المني والشّخصي والأسري. في هذا المستوى يقول ويشول كاترين عند حوصلته للهجرة الخارجية في عصر العولمة "أولا ما يدفع الحركية ليس أبدا الهروب من البؤس بقدر، ماهي حالة جذب تمثّلها الدّول الغنيّة لشريحة ذات تعليم عال وسكّان حركيين للبحث عن فرص أفضل، وإذا كانت أوروبا تتطلّب هذه الكفاءات التي تمثّل نسبة هامّة من التّيّارات (Baduel, 1980)، فهي تظلّ أيضا إفرانزا للاستعمار والعولمة، خاصة في زمن تطوّرت فيه العلاقات بين الجنسين، الثقافة والصّورة المتميّزة التي تبثّها وسائل الاعلام حول أوروبا. من هذا المنطلق، وتحت ضغط ظروف عدّة بنفاذها تجلّت التّحركات نحو الخارج كحتمية توجب على العديد من الأفراد القيام بها سواء خولت لهم الطّروف ذلك أم لم تخول.

### 3- تحويلات المهاجرين :

يقوم المهاجر بمدّ أسرته الباقية بنفزاوة بتحويلات متنوّعة تتمثّل في التحويلات المالية والعينيّة والثقافية، وهي تبقى دليلا واضحا على الصلة الوثيقة بين المهاجر وأسرته. وبالرّغم من ضعف نصيب جهة نفزاوة من جملة التّحويلات (3%)، إلا أنّ العائدات الماليّة في هذه المنطقة، تسجّل تطوّرا متواصلا. والنّقص الكبير في مستوى إحصائيّات التّحويلات على مستوى الجهة، لم يمنعنا من الحصول على معطيات توضّح لنا حجم التّدقّقات الماليّة وتطوّرها خلال العشريّة الأخيرة، وقع جمعها في الجدول التّالي:

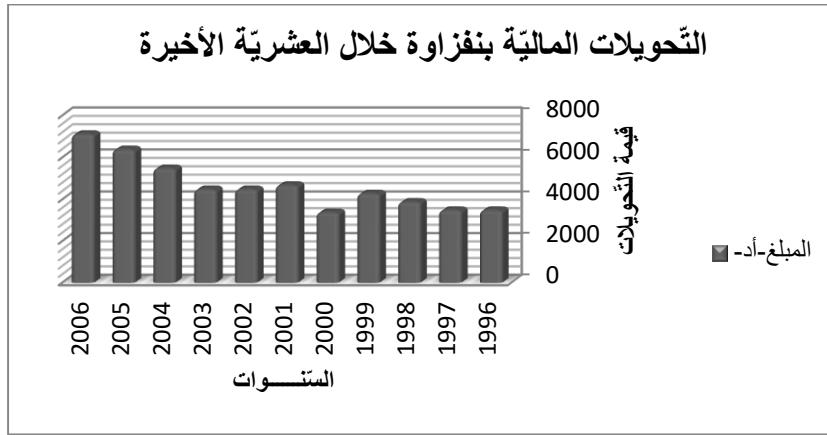
جدول رقم (2): يوضّح التّحويلات الماليّة بنفزاوة خلال العشريّة الأخيرة

السنة	المبلغ-أد-
1996	3500
1997	3500
1998	3900
1999	4300
2000	3400
2001	4700
2002	4500
2003	4500
2004	5500
2005	6400
2006	7130
الجملة	51330

المصدر: ديوان التونسيين بالخارج بولاية قبلي

تبيّن هذه المعطيات التّزايد المطّرد للعائدات الماليّة بجهة نفزاوة، فقد تطوّرت بوتيرة تصل إلى (6.34%) سنويًا في الفترة الممتدّة بين سنتي 1966 و2004، حيث انتقلت من 3500 ألف دينار إلى 7130 ألف دينار. ولمزيد تبيّن تطوّر هذه التّحويلات، نتبّع تزايدها في الرّسم البياني التّالي:

الرّسم البياني رقم (2): يوضّح تطوّر التّحويلات الماليّة في العشريّة الأخيرة بنفزاوة



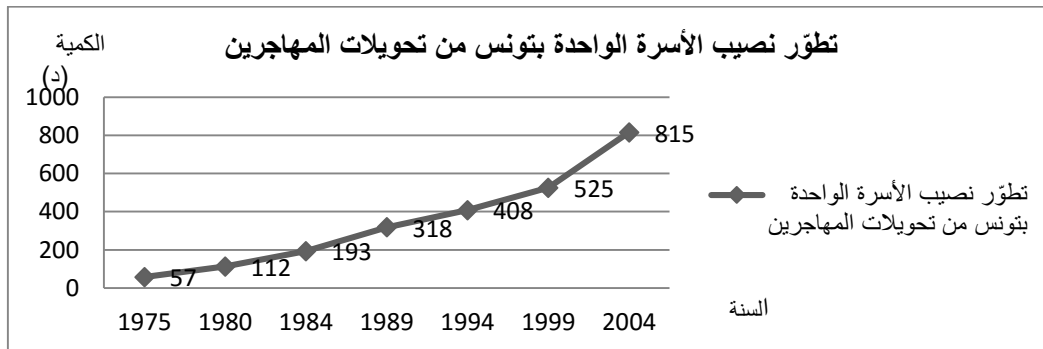
ودخل الأسرة الباقية أفضل ممّا كان عليه في السّابق ومردّد ذلك حسب بحث للمنظمة العالميّة للعمل أجر المهاجر الجيّد بالدّول الغربيّة والذي يكون أرفع خمس مرّات تقريبا من أجر العامل في البلدان ضعيفة الأجر. وحتى نترأى أكثر الدّور الفعّال للهجرة في الارتقاء بحياة الأسرة، وخاصّة على المستوى المادّي، سوف نعرض مؤشّرات هامّة تدلّ على تطوّر نصيب الأسرة الواحدة بتونس من تحويلات المهاجرين.

جدول رقم (3): يوضّح تطوّر نصيب الأسرة الواحدة بتونس من تحويلات المهاجرين

السنة	1975	1980	1984	1989	1994	1999	2004
الكميّة (د)	57	112	193	318	408	525	815

البنك المركزي لتونس

رسم بياني رقم (3): يوضّح تطوّر نصيب الأسرة الواحدة بتونس من تحويلات المهاجرين



#### 4 - انعكاسات الهجرة الخارجية على الأسرة الباقية بنفزاوة :

##### 1-4- الهجرة جسررقى وحدائة وتنمية لأسرة المهاجر :

بالرؤية الشاملة التي لم تغفل عن خصوصية المرحلة التي تمرّ بها الأسرة في ظلّ الهجرة، ندرك بأنّ الهجرة ظاهرة جد ملموسة داخل مجتمعنا النّفزاوي وأوّل تأثيراتها تكون على مستوى الأسرة الباقية التي تتشارك رغم المسافات مع الأب في تجربة التّحرّك نحو الخارج وتشهد تحولات هامة في بناءاتها الرّمزيّة والثّقافيّة والاجتماعيّة ومواقفها وسلوكيّاتها. وتسهم الهجرة الخارجية في تحسين حياة أسرة المهاجر الباقية، على إثر المكاسب التي تحقّقها، مكاسب تمثّلت في ارتفاع الدّخل وتزايد مستويات الاستهلاك بشكل يضمن الحماية الاجتماعية للأسرة، ودعم جدارتها الانتمائيّة للجهة (K. Mohamed, 2006). من هنا يكون تأثير الهجرة على أسر المهاجرين وعلى المنطقة ككلّ في المجال الاقتصادي لم يكن غائبا، ذلك أنّ التّأثيرات الايجابية في مداخيل الأسر حسّنت الأنشطة الاقتصادية بمختلف أوجهها، وسهّلت بروز الاستثمارات التي نجحت في الحدّ من معضلة البطالة، حتّى ولو بصورة نسبيّة، عبر خلق مواطن الشّغل (S. Nejib, 1996). كما طوّرت تحويلات المهاجرين مستويات السّكن والاستهلاك والفلاحة والتّجارة وعمليّة الادّخار التي "حققت الأمان بحصول عديد الأسر التي ليس لها دخل فلاحي على دخل جديد" (P. Baduel, 1980)، بشكل لعبت فيه عائدات الهجرة دورا مهمّا في تطوير التّمودج المعيشي الأسري بجعله يتلاءم مع الخصائص الاقتصادية لمجتمع الغرب وتمويل التنمية الاقتصادية بالجهة التي ساعدتها الهجرة على الخروج من عزلتها، وربطها بجهات أخرى بالبلاد والخارج، وانفتاحها على معالم التنمية، التي طالما كافحت من أجلها وضخّى عديد الآباء في سبيل تحقيقها بالابتعاد عن أسرهم وتحمل متاعب التّواجد في الغرب، لكنّ هذه التّضحية لم تذهب هباء، فقد وقع تلمّس مكاسبها على مستوى أسر المهاجرين، وعلى مستوى الجهة التي بلغت التنمية المنتظرة بفضل تزايد التّحرّكات السّكانيّة نحو الخارج.

من الأكيد أنّ الأسرة الباقية تتشرّب بتجربة الهجرة الدوليّة، بإتاحة الفرصة لها لاعتناق الحدائة والتّغيير نحو الأفضل، على إثر دعم قدرتها على تحسين مستوى عيشها والزّقيّ بنمطه. وتتجاوز تأثيرات الهجرة ذلك، لتحدث تحولات اجتماعيّة وثقافيّة ونفسيّة هامة لدى المغترب في حدّ ذاته، وفي حياة الزّوجة والأولاد، فتكون أداة فعّالة في تجاوز مخلفات البعد، ونسج علاقات قويّة بين مختلف أعضاء الأسرة، ودعم أدوارهم ومكانتهم، وتمكينهم من تحقيق ما يستجدّ من حوائج ماديّة ومعنويّة.

لقد بدت التّيّارات الهجرية أمرا واقعيّا، ساعد على تعزيز مكانة الزّوجة وأدوارها، سواء داخل أسرتها أو مجتمعها النّفزاوي، وتسهيل نجاحها في التّواصل مع أبنائها وزوجها، الذي ثبت أنّه يشاركها المسؤولية ويمدّها بشحنات معنويّة تزيد في قوتها وصبرها ومثابرتها للتّهوض بشؤون الأسرة والاحاطة بالأبناء، خاصّة وأنّ غياب الأب يرتبط ارتباطا جوهريّا بتعديل سلوك الأمّ تجاه الأطفال، وسلوك الأبناء تجاه الأبوين، إذ أظهرت المعطيات نضجهم وتكيفهم مع غياب أبيهم، بشكل يقدرّون فيه تضحيات الأمّ وأتعاب ومجازفة الأب، فيتولّد حسّ المسؤولية لديهم، ويكونون نموذجا حيّا في التّربية والأخلاق والتّفوق الدّراسي، بشكل ينعكس على الأسرة التي تشهد انسجاما كبيرا وتوازنا يدعّمه التّفاهم والتّرابط السّليم بين الزّوجين.

وفق هذا، تتجلّى انجازات الهجرة في اثرائها للحياة الأسريّة بالشّكل والمعنى، وتوطيد منزلة الأسرة في محيطها المحليّ وتوسيع علاقاتها ببقية المؤسسات الاجتماعية، كما تفرز داخل هذه الخلية الانسانية قيما رمزيّة وثقافيّة واجتماعيّة تجدد تصوّرات الأفراد حول الاستهلاك والسّكن والترفيه، وتدعم قيمهم التّضامنيّة. وهو ما يقويّ بناء الأسرة، ويخوّل لها الحصول على مكانة اجتماعيّة رفيعة تعكس قدرة الزّوجة الخالقة وحكمة الأب اللامتناهية ووعي الأبناء الرّشيد ونجاح مشروع الهجرة. وتتّسع دائرة انجازات الهجرة عندما تقف إلى جانب المجتمع المحليّ فتسهّل عمليّة التنمية به على المستويات الاقتصادية والاجتماعيّة.

من خلال دورها الرائد في التخفيف من عديد الآفات والمشاكل، من قبيل الفقر والبطالة واشكالية التشغيل، وتعزيز القوائم الأخلاقية، وهيئة أسس التقدّم والزيّ والحدّات، بخلق أسر متوازنة، قادرة على مجابهة الصّعب وفهم الواقع وبناء المستقبل. لا بدّ أن نشير إلى أنّ الهجرة الخارجيّة ظاهرة لا تفرزها عمليّة التّنشئة الاجتماعيّة، أي أنّ الفرد لا يتربّي على أن يكون مهاجراً بل لأنّ المجتمعات لا تستطيع أن تستمرّ في وجودها وتطوّرها وتواصلها مع بعضها البعض إذا تغيّبت ظاهرة الهجرة، لأنّ في ضمورها على حدّ قول الباحثة تندهور عديد الأسر ويغيب وجودها. ومن هنا، تكون الهجرة ظاهرة فرضتها وأفرزتها التحوّلات الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، ودوافع متعدّدة ومتنوّعة عاشها المهاجر، وهي تظلّ في خدمة الأسرة بدعم تواجد أعضائها، وتقوية وجودها، وجعلها قوّة فاعلة تساند المجتمع النّفزاوي في عمليّة التّنمية الاجتماعيّة التي باتت الهجرة الخارجيّة في العصر الرّاهن من أهمّ روافدها ومن "أهمّ عوامل التحول الاجتماعي" (باقر سلمان النجار، 2001).

من الأكيد ذكره، أنّ الهجرة الخارجيّة ذات مضمون إيجابي لكلّ طرف في الهجرة... ويلخصّ لنا رأي راسخ هذا بالقول: "إنّه لوضع لا يوجد فيه أيّ خاسر، فالمهاجر في انتقاله إلى دول أخرى يتلقّى بالإضافة إلى الأجر العالي التدريب الفتيّ والمهنيّ الذي فيما بعد يساهم في عمليّة التّنمية في دول المنشأ" (باقر سلمان النجار، 2001) ويعكس المجتمع النّفزاوي ذلك الذي استفاد كثيراً من مكتسبات مهاجريه.

وخلافاً لعدد التّصوّرات التي ترى بأنّ المنظومة الثّقافيّة بنفزاوة ذات ثقل واقعي ليس بالإمكان تغييرها أثبتت التّجارب البحثيّة بأنّ أسرة المهاجر تتشرّب العالم الاجتماعي وقواعده داخل المحيط المتواجدة به، إلى درجة تصل فيها إلى تبطن المجتمع والواقع الموضوعي، وفي نفس الوقت ترسخ لمحتويات الهجرة الخارجيّة بحيث تصبح ثقافتها أكثر وعياً وتقبّلاً لمستجدّات الحدّات المتعمّلة، فتغدو العقليّات والتّصوّرات والسلوكيّات داخل الفضاء الأسري قابلة للتّبدّل والتّحوّل. وحسب بيرغر تتوحّى الأسرة الباقية مساراً ثقافياً "يحتفظ باستمرار بالواقع ويعدّله في آن واحد... يقع التّخلّي عن بعض العناصر وتضاف أخرى وذلك إضعافاً لبعض مجالات الواقع ودعمًا لأخرى" (P. Berger, T. Luckmann, 1986)، أي أنّها بمجرد حلول الأب بالمهاجر واحتكاكه بالغرب تقوم أسرته الباقية بتبنيّ مسارات تتأسّس على علاقات تفاعليّة مع محتويات الواقع المحليّ للمجتمع النّفزاوي (التّماشي مع جملة من الممارسات الدينيّة والسلوكيّة، احترام العادات والتقاليد والتّمثّلات والمعتقدات...) والاتّصال بالواقع الجديد الذي سوف يكون داعماً للواقع الذاتيّ للأفراد فتكتسب بذلك الهجرة قيمة في تعزيز ثقافة الأسرة بتقوية اجراءاتها الدّفاعيّة والتي تتناسب مع حالة غياب الأب ومتطلّبات المجتمع المحليّ ومع الحدّات التي تأتت بها تحركات الأب، إلى أن تغدو الهجرة عمليّة تضمّ بناء ثقافة أسريّة تقوم على التّفاعل الواعي بين الثقافة النّفزاويّة الرّاسخة والتّجديدات المحاكية لأفكار العالم الغربي، وتتجاوز أسرة المهاجر ذلك لتكتسب في ظلّ الهجرة مكتسبات ديموغرافية خاصة فيما يخصّ بنيتها الحدّية المستقاة من العالم الغربي التي أصبحت تتميز بصغر الحجم والاستقلالية.

#### 4-2- هجرة الأب وغيابه شرح في حياة أسرة المهاجر :

حسب عديد الدراسات "الاندماج في المجتمع المستقبل يمثل مزايًا ورضاء من الصّعب التّخلّي عنها" (محمد الخاشاني) اليوم من قبل المهاجر وأسرته ومجتمعه، لكن هذا لا ينفى أنّ عدداً من الأسر مازالت تعاني الحاجة بسبب فشل مشروع الهجرة في النهوض بأحوالها المعيشية. ومن الأكيد أنّ تظافر جملة من العوامل المخلّعة بالتّكيّف الأسري في ظلّ الهجرة الخارجيّة يؤدّي حتماً إلى اهتزاز كيان أسرة المهاجر التي تكون عرضة لعدم التّوازن والوهن والاضطراب في بنيتها ووظائفها وعلاقات الأفراد وسطها. ورغم التّواصل بين الأب المتواجد في الخارج والأسرة الباقية بنفزاوة إلا أنّ البعد وغياب استمراريّة الوصال من شأنه خلق فجوة في حياة الأسرة التي تعيش العديد من الاشكاليّات والاختلافات بسبب غياب السّلطة الأبويّة والخلل الطّارئ في المهام

والأدوار واصطدام رغبات كلّ من الرّوجين والأبناء بالواقع الذي جعلته تنقّلات الأب يخالف ما ناشدوه وما عاشوه من أحلام وطموحات. وهو ما ينتج أجواء صراعية قد تكون مؤقتة سريعا ما تنتهي كما يمكن أن تكون مزمّنة بحيث تعيق الأداء الأسري وتفرض شرخا كبيرا في العلاقات والقيم والسلوكيات السّائدة لدى كافّة الأطراف، ممّا يفضي في نهاية المطاف إلى التّفكك الأسري وفي حالات مستعصية إلى الطّلاق بهدف القضاء على العوائق التي تواجه الرّوجين والأبناء في توافقهم الأسري، فتزيد بذلك حالات الطلاق وانحراف الأحداث في المجتمع المحلي الذي بات يعاني من عراقيل جديدة تعرقل مساره التنموي والتي كانت نتاجا لهجرة الآباء. هذه العراقيل تتمثل بالأساس في خسارة الموارد البشرية على إثر مغادرة الشباب واختلال التركيبة السكانية الشيء الذي يعمّق الهوة بين المجتمعين النفرانوي والغربي ويزيد من التبعية للخارج.

### III- الدراسة الميدانية :

#### 1- نوع الدراسة :

إنّ الطابع الديموغرافي لهذه الدراسة دفعنا إلى مقارنة ظاهرة الهجرة الخارجية واقعيًا بنفزاوة وقياس مختلف انعكاساتها على الأسرة الباقية بالاعتماد على الدراسة الكمية وتوخي المنهج الكمي وذلك عبر توخي الإحصائيات والمعطيات وتحليلها وتفسيرها لتتوصل إلى استنتاجات هامة يمكن تعميمها وتوخمها كقوانين عامة تصلح لكل الدراسات المستقبلية والمرتبطة بظاهرة الهجرة الخارجية.

#### 2- أدوات جمع البيانات :

لقد تمّ جمع بيانات الدراسة الحالية من خلال استمارة استبيان عن طريق المقابلة الميدانية بمفردات عينة الدراسة.

#### 3- عينة البحث :

يهدف مقارنة الظاهرة بصفة شاملة وتفاديا للانزياح عن الموضوعية عند الحديث عن الهجرة الخارجية وتأثيراتها على الصعيد الأسري، أثرنا على أنفسنا توجيه أربعة استبيانات وجهناها إلى أربعة مجموعات مختلفة، أولاها تمثلت في أسر المهاجرين الباقية بنفزاوة (عينة بها 300 مفردة) وثانيها تمثلت في الأسر العادية المأخوذة للمقارنة (عينة بها 200 مفردة) والثالثة تمثلت في مديري المعاهد الإعدادية والثانوية (عينة بها 14 مفردة) والأخيرة تمثلت في مواطني نفزاوة (عينة بها 200 مفردة). وقد كانت العينات عشوائية وهي طريقة تتناسب مع طبيعة الدراسة.

#### 4- تحليل نتائج الدراسة الميدانية :

انطلاقا من الإشكالية ومن خلال المعالجة النظرية والميدانية لهذه الدراسة توصلنا إلى نتائج هامة نتبينها كما يلي:

#### - نتائج تتعلق بخصائص المهاجرين عند القيام بعملية الهجرة :

أشارت البيانات إلى أنّ مهاجري منطقة نفزاوة يتميزون عند مغادرة المنطقة نحو المهجر بانخفاض المستوى التعليمي مع هيمنة للمهاجرين ذوي المستويات المادية المتدنية (80% من مفردات العينة) والعاطلين عن العمل، كما أظهرت النتائج أنه رغم وجود مهاجرين في حالة زواج عند المغادرة (30% من مفردات العينة) إلا أن النسبة الأهم تبقى لدى العزاب الذين يمثلون الفئة الأكثر ميلا للهجرة.

### - نتائج تتعلق بعوامل الهجرة ودوافعها بنفزاوة :

تبين لنا من معطيات البحث أنّ منطقة نفزاوة تمثل فضاء خصبا لانبثاق مشروع الهجرة الدولية من خلال توفر عديد العوامل والتي تمكننا من تبويبها إلى ثلاثة أصناف وهي كما يلي:

- عوامل طاردة: وحسب البيانات تتمثل في جملة العوامل الاقتصادية كالبطالة وقلة فرص التشغيل وتدني مستوى العيش وهو ما أدلى به 40% من مفردات العينة، وعوامل اجتماعية وأسرية تمثلت في رفض الوضع الفردي والاجتماعي، الهروب من ضغط المجتمع (التخلف، الانغلاق، الرقابة...) وهذا ما صرح به 11% من مجموع أفراد العينة، هذا زيادة على عامل تدني نوعية التعليم العالي والبحث العلمي ومحدودية الآفاق عند التخرج وقلة فرص التشغيل خاصة في المناطق الداخلية بتونس.

- عوامل جاذبة: أكدت البيانات بأنّ التوجه نحو الخارج تحكمه الرغبة في العيش في دول الرفاهية والحدثة، هذا بالإضافة إلى التفاوت بين المجتمعين النفزاوي والغربي ووجود عوامل نفسية تلح بمغادرة نفزاوة والتحرك نحو الخارج على إثر التأثير بمن هاجر ومحاولة تقليده أو التأثير بما تبثه وسائل الإعلام والشبكة العنكبوتية عن الغرب ومغرياته.

- عوامل موضوعية: تبين لنا من نتائج البحث الميداني أنّ الخصائص المناخية الصعبة بنفزاوة (الجفاف، الحرارة، الرياح...) والتحولات الاجتماعية خلقت احتياجات للأفراد الذين باتوا يرون الخارج السبيل الوحيد لتحقيقها.

### - نتائج تتعلق بانعكاسات الأسرة وأثارها على الأسرة الباقية والمجتمع المحلي :

\* على الصعيد الاقتصادي: أدلت البيانات بأنّ التحويلات التي يرسلها الأب تلعب دورا كبيرا في تحسين الحياة الاقتصادية للأسرة ويظهر ذلك من خلال تحسن ظروف عيش الأسرة (90% من الأسرة المستجوبة حالتها جيدة) وتحسن الدخل الشهري فحسب خصائص العينات يتراوح دخل أسر المهاجرين الباقية بين 300 و1000<sup>د</sup> في حين يتراوح لدى الأسر المأخوذة للمقارنة بين 300 و500<sup>د</sup>. كما أسهت الهجرة في تحسين استهلاك الأسرة التي استفادت من التحويلات في تمويل الإنفاق على الحاجيات الأساسية ومصاريف الأبناء التعليمية والعلاجية (48% من مجموع العينة أدلت بذلك). هذا واستفادت الأسر من التحويلات في القيام بعمليات ادخارية أو استثمارية ويوجه الاستثمار بصفة أولية لقطاع السكن ومن ثم للفلاحة ومن ثم لقطاعات أخرى.

ورغم المكتسبات الاقتصادية التي تتحقق للأسرة في ظل تواجد الأب بالخارج أفادت المعطيات بأنّ الهجرة لم تنجح في تحسين حياة جميع الأسر الباقية حيث تبين من البحث الميداني أنّ 35% من مجموع مفردات العينة عجزت عن تحسين دخلها وحتى في صورة تحسنه فقد كان ذلك بشكل محدود. كما أظهرت المعطيات بأن القطاع الفلاحي بجهة نفزاوة في ظل الهجرة بات يشكو الإهمال وضعف الإقبال من حيث الممارسة (25% من عينة أسر المهاجرين صرحت بذلك). هذا وأكدت البيانات أنّ الهجرة لم تكن لها مساهمة قوية في دعم الاستثمار بنفزاوة حيث كانت أغلب الأسر توجه استثماراتها لقطاعات ضعيفة المردودية، كما أن تحرك الآباء نحو الخارج كان له انعكاس خطير على الجهة من خلال ترسيخ عقلية التواكل واستنزاف القوى البشرية وخلق المزيد من التبعية للخارج وأدلى بهذه الحقائق 18% من مجموع مفردات عينة أسر المهاجرين.

\* على الصعيد الاجتماعي: تبين جليا من خلال معطيات البحث الميداني بأنّ الهجرة ساعدت على تحسين الأوضاع الاجتماعية والنفسية للأسر الباقية وذلك من خلال:

- تثمين دور زوجة المهاجر التي أصبحت في ظل غياب الزوج تتبنى العديد من الأدوار المتناسقة وتتمثل في الأدوار الاقتصادية عبر تلقي التحويلات والتصرف في الممتلكات، الأدوار التربوية والتعليمية التي تخص الأبناء، وأكدت المعطيات بأنّ هذه الأدوار تشهد اتساعا عند عودة الزوج أثناء زيارته للأسرة.

- حصول الزوجة على منزلة اجتماعية راقية على إثر نجاحها في التخلص من نموذج حياتي رجعي واعتناق نموذج حياتي حديث ونظام فكري عصري. كما مكنت الهجرة الزوجة على إثبات نفسها كزوجة وكامراة بالحصول على المزيد من الحرية والاستقلالية وتحمل المسؤولية.

- دعم قيمة المهاجر من خلال تمكينه من إثبات نجاحه في التغلب على الغربة والتضحية وبلورة نجاح ذاتي وأسري واجتماعي وهو ما عزز دوره كمهاجر وزوج وأب له اسهامات جادة في النهوض بأحوال أسرته وضمان استقرارها وتواجدها بالمجتمع المحلي.

- إثراء الحياة الزوجية من خلال تقوية الروابط بين الزوجين وتمكينهما من تلبية الحاجيات المادية والمعنوية ودعم التوحد بينهما من خلال تحمل مسؤولية مشتركة في كنف من التفاهم (78% من الأسر أدلت بأن التفاهم جيد، 80% أدلت بأن العلاقة جيدة، 50% أدلت بأن القرارات تتم بالتشاور وبأن الهجرة جعلت حياة الزوجين أفضل من الماضي بتحقيق الاستقرار الأسري المنشود).

- تحسين الأوضاع التربوية والتعليمية لأبناء المهاجر فقد صرحت 50% من مجموع مفردات عينة أسر المهاجرين بتحسين نتائج الأبناء، كما أفاد 50% من عينة مديري المعاهد الإعدادية والثانوية بأن نتائج أبناء المهاجرين المدرسية أفضل من نتائج بقية التلاميذ.

وأظهرت نتائج الدراسة الميدانية بأن التأثير الإيجابي لهجرة الأب لا ينكر خطورتها على الحياة الاجتماعية والنفسية للأسرة فقد أشارت بعض الأسر إلى وجود ظاهرة التفكك الأسري الذي لم تألفه قبل عملية الهجرة فقد صرحت بأن تواجد الأب بالمهجر أفضى إلى اختلال الأدوار واضطراب العلاقات (صرحت بذلك 36% من مجموع أفراد العينة) وانحلال السلوكيات (16% من الأسر المستجوبة أكدت ذلك). من هنا نتبين حقيقة اصطدام توقعات أفراد الأسرة مع واقع معقد أنتجته الهجرة بشكل بات كل من الأب والزوجة والأبناء يعانون إشكاليات متعددة من أبرزها عبء المسؤولية على الزوجة وصعوبة تعويضها للأب خاصة في ظل وجودها في محيط اجتماعي يكبلها بعادات رجعية ووقوعها تحت رقابة الأسرة الموسعة وضغوطات الانتقادات الجارحة المشككة في قدراتها (عبرت عن ذلك 48% من الأسر المستجوبة). هذا إلى جانب تدهور أوضاع الأبناء السلوكية والتربوية والتعليمية وتردي وضع الزوج المهاجر الذي بينت المعطيات بأنه بات يعاني الغربة في الخارج وفي نفاوة ويشعر بأنه مجرد مصدر مالي يمول أسرته، كما أفادت البيانات بأنه بدأ يتشكى من الأسرة بسبب: تبيذ الزوجة (32%)، إتهام الزوجة بارتكاب سلوكيات سيئة (10%)، ضعف تربية ونتائج الأبناء المدرسية (10%)، انحراف الأبناء وعدم سيطرة الأم عليهم (10%)، ضعف قيمته نفسانياً وعاطفياً لدى الأسرة (18%)، عدم مده بكافة ما يدور في الأسرة (15%)، تدخل الأهل في شؤون الأسرة (5%).

تظهر البيانات بأن هجرة الأب تتسبب لدى قسم من الأسر في خلق أجواء صراعية تعيق الأداء الأسري مما يفرز التفكك الأسري وفي حالات أخرى الطلاق. فقد عبرت (30%) من أسر المهاجرين عن عجز الهجرة عن تحقيق رقيها النفسي والعلائني.

\* على الصعيد الثقافي: أفضت بيانات الدراسة الميدانية أهمية الهجرة في تعزيز ثقافة الأسرة وجعلها في ظل الانفتاح على الغرب أكثر حداثة (60% من مفردات العينة أدلت بذلك) حيث أصبحت تتبنقها جديدة ساعدتها على تجديد أنماط التفكير ونماذج العلاقات داخلها ومع محيطها المحلي دون القطيعة مع ثقافة نفاوة المحافظة، الشيء الذي حفز الأسر العادية لتقليد أسر المهاجرين في مستوى بنائها وعلاقاتها وقيمها ووظائفها وسلوكياتها. هذا وقد أظهرت النتائج بأن المزاوجة بين الثقافة الغربية والثقافة المحلية يفقد الأسرة هويتها بطريقة تخل بقيم أفرادها وسلوكياتهم، كما عبر 30% من عينة مواطني نفاوة عن التأثير السلبي للهجرة على ثقافة الأسرة.

\* على الصعيد الديموغرافي: إنّ البيانات المتحصل عليها أظهرت بأنّ هجرة الأب تسهم في خلق تحولات إيجابية في خصائص الأسرة الديموغرافية وذلك من خلال تغيير سلوكها الإنجابي والسعي للتخفيض في معدل الولادات بشكل جدّد بنيتها بتحويلها إلى أسرة نواتية تتماشى مع النموذج الأسري الغربي وهذه الحقيقة عبّرت عنها 76% من مجموع عينة أسر المهاجرين، كما أفادت النتائج بأنّ تحرك الآباء نحو المهجر عزّز عمليّة التّحضّر وهو ما أفادتنا به 18% من الأسر المستجوبة وخصّص من ظاهرة الزواج (عبّر عن ذلك 30% من مجموع أفراد عينة أسر المهاجرين). هذا وأدلت البيانات أنّ الهجرة ساعدت المجتمع المحلي على الضّغط على النّمو الديموغرافي وتحقيق التّوازن بين الموارد البشريّة والموارد المحليّة والتّخفيف من اختلالات التركيبة الديموغرافيّة. هذه المكتسبات الديموغرافية لا تنكر بتسبّب الهجرة فيإفراغ المنطقة من الشّباب والكهول في سنّ العمل وهو ما يؤدي إلى نقص الفئة النّشيطة وهيمنة الإناث على الذّكور في تركيبة السّكان بشكل يخلّ بالتركيبة الديموغرافيّة عبر إفراس الّلاتوازن بين الجنسين. هذا الوضع يعرقل المسار التّنموي للمجتمع النّفزاوي خاصّة على الصّعيد الاقتصادي.

#### \* آثار الهجرة الخارجية :

أظهرت البيانات أنّ حراك أرباب الأسر نحو مجتمع الغرب يخلّف أثارا متنوّعة داخل الوسط الأسري والاجتماعي ويمكن تبويبها حسب المعطيات الميدانية إلى آثار اجتماعية وتمثل في الطلاق وانحراف الأحداث وانتشار ظواهر الاختلافات الاجتماعية والهجرة الغير شرعية والهجرة النسائية وأثار ديموغرافية وتمثل في اختلال التركيبة السكانية عبر تزايد عدد الإناث بالمجتمع المحلي على حساب عدد الذكور واختلال هيكله الفئة النشيطة من خلال تزايد عدد المسنين على حساب عدد الشباب الذين يمثلون القوى المحركة لعملية التنمية بمجتمع نفاوة وتونس عموما.

#### خاتمة:

من عرضنا السابق لنتائج الدراسة النظرية منها والميدانية نتبين حقيقة مهمة مفادها: «أنّ الهجرة الخارجيّة ظاهرة سكانيّة تتخلّل الحياة الأسريّة ثري وتحسّن وتدعم حياة أسرة المهاجر والمجتمع رغم ما تتسبّب فيه من اشكاليات وأثار. فالهجرة تظنّ أبوابا شاسعة فيها تجد الأسرة السبيل الذي عبره تبلغ حاجياتها التي تتعطّش لتلبيتها وإشباعها وهي دواء للمشكلات التي اعترضت المهاجر في حياته. وطالما كانت الهجرة على النّحو المشار إليه، فإنّها تقوّي البنى الأسريّة والاجتماعيّة التي تصبح بمعزل عن عوامل الحاجة والتّفكّك والعجز، كما تحمي المهاجر وأبنائه وزوجته من عوامل الاضطراب والتوتّر وتحمي المجتمع من التّخلّف والانفلاق". ورغم ما أحدثته الهجرة في حياة الأسرة من نجاحات ومكتسبات استفاد منها كافّة أفراد أسرة المهاجر، وإنجازات يسرت بلوغ أسس التّحديث والتّنمية داخل المجتمع المحلي والوطني عموما، إلّا أنّ هذا لا يخفي بأنّ الهجرة الخارجيّة تتحوّل في بعض الأحيان إلى أزمة تقوّض الكيان الأسري وتتسبّب في تصدّع العلاقات الأسريّة وانهيار عديد الأسر فيعاني المجتمع آثار ذلك من خلال تزايد حالات الطلاق وظاهرة انحراف الأحداث. وقد تكون الهجرة أكثر خطورة وتهديدا لحياة الأسر إذا لم تلق هذه الظاهرة حولا جوهريّة واهتماما يساعد على تيسير نجاحها وسموها على أرض الواقع داخل الفضاء الأسري والاجتماعي دون عواقب.

#### \* توصيات الدراسة :

في ضوء ما انتهت إليه الدراسة من نتائج توصلنا إلى صياغة جملة من التوصيات لضمان نجاح وفاعلية الهجرة الخارجية في دعم استقرار وتوازن الأسرة الباقية:

- توصيات أسرية: على الأسرة توجيه سلوك أفرادها الوجهة الاجتماعية السويّة، فهي النّسق الذي يكون له أثر عميق في بناء شخصية الأبناء وتحديد اتّجاهاتهم ومواقفهم إذ تظلّ حلقة الوصل بين الفرد والمجتمع من جهة، وبين المهاجر ووطنه الأصلي

من جهة أخرى. فهي الدرع الإنساني الحصين لأفرادها من مخاطر الهجرة عبر نقلها لثقافة المجتمع وعاداته وتقاليده بشكل يمكنهم من الصّلاح في ظلّ غياب الأب والمساهمة بحيويّة في عمليّة البناء الاجتماعي.

- توصيات مجتمعيّة: أهميّة دور أصحاب القرار السّياسي في سنّ قوانين ووضع سياسات تعمل على حماية أسرة المهاجر وتعالج اشكاليّاتها.

- توصيات علمية: نوصي بإجراء بعض الدراسات التي تثيرها الدراسة الحالية منها: دراسات تتبعية للنموّ النفسي لأبناء المهاجرين بمنطقة نفاوة، دراسات مسحية وصفية للمشكلات التي تواجه زوجات المهاجرين في دول الإرسال، دراسات تقييمية لتأثير ثقافة الغرب المتأثية عن طريق الأب المهاجر في ثقافة الأسرة وسلوكياتها، دراسات الحاجات النفسية والارشادية لأسر المهاجرين بدول المنشأ.

#### قائمة المصادر والمراجع:

1. الأمين الكلاعي ، الهجرة التونسية إلى الدّول العربيّة ، (تونس: مركز النّشر الجامعي، 2000).
2. باقر سلمان النجار، حلم الهجرة للثروة: الهجرة والعمالة المهاجرة في الخليج العربي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، تشرين الثاني نوفمبر، 2001).
3. سناء الخولي، الأسرة والحياة العائليّة، (مصر: دار النّهضة للطباعة والنّشر، 1988).
4. يونس حمّادي، مبادئ علم الديموغرافيا، (بغداد: جامعة جامع الموصل، 1985).
5. سكينّة أحمد محمّد هاشم، علاقة المهاجر بالمجتمع الأصلي: إنعكاسات الهجرة الدّوليّة على المجتمع اليمني، (اليمن: المركز الوطني للمعلومات، 2004).
6. محمّد الجوهري، التغيّر الاجتماعي، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعيّة، 1995).
7. محمّد كاشاني، المرأة المغربيّة المهاجرة في الحيز الاقتصادي للدّول المستقبلية: بعض المعالم، (المغرب: مجلّة قانونيّة وسياسيّة واقتصاديّة ، مرجع النّساء والهجرات، عدد خاص).
8. مجموعة من المؤلّفين، دراسات في المجتمع العربي المعاصر، تحرير الأستاذ زكريّا، (سوريا: دمشق، ط1، مطبعة الأهالي للطباعة والنّشر والتّوزيع، 1992).
9. وزارة الشّؤون الاجتماعيّة والتّضامن: ديوان التّونسيّين بالخارج: التّونسيّون بالخارج: تواصل حضاري وسند للتنمية، (تونس، 2009).
10. البنك التونسي المركزي، بعض الإحصائيات المتعلقة بالتحويلات.

- Baduel (Pierre Robert), société et émigration temporaire au Nefzaoua: sud Tunisien, (1980)

- Ben Hammadi: La population des oasis de Nefzaoua, Thèse de 3ème cycle de géographie, (France : Lyon II, France, 1979).

11. -Khachani, Mohamed, Khachani, Mohamed, L'impact de la migration sur la société Marocaine, International congress, (Rabat Marruecos : Madrid, Human development, Universidad Mohamed V, 2006).



- Safir, Najib, "La dynamique migratoire au Maghreb", (Switzerland : Geneva IOM/ UNFPA, Policy Workshop On Emigration Dynamics In the Arab Region, ,7-8 october, 1996).

12. -P (Berger), T (Luckmann), La construction sociale de la r alit , traduit par Pierre Taminiaux, (Paris :  dition m ridiens, klincksieck, 1986).



## LA PME FAMILIALE EN ALGERIE ET LES PROGRAMMES DE MISE A NIVEAU

D<sup>r</sup> Lyes OUABDESSELAM/ Centre de recherche scientifique et technique en Analyses Physico-chimiques (CRAPC), Algérie

147

### RESUME :

Afin de soutenir les PME/PMI dans leurs efforts de modernisation et de compétitivité, Les pouvoirs publics ont mis en place une stratégie d'accompagnement à travers les différents programmes d'appui piloté par le ministère de l'Industrie et des Mines en collaboration avec la Commission Européenne tel le programme Euro Développement PME. Ce travail a été mené afin de contribuer à apporter des éclairages sur l'un des programmes de mise à niveau menés en Algérie. Le but est de découvrir la situation réelle de l'une des PME familiale en Algérie. Dans cette étude, nous avons adopté une démarche qualitative sur le mode de management souvent intuitive des dirigeants l'entreprise. Cette étude a permis de faire un état des lieux et un diagnostic stratégique de l'entreprise familiale ciblée et tente de mettre la lumière sur les freins à la l'atteinte des objectifs globaux des opérations de mise à niveau et une capitalisation d'expérience.

**MOTS CLES :** Entreprise familiale, diagnostic, programme, mise à niveau, Algérie.

### INTRODUCTION :

L'économie Algérienne a connu un changement historique au début des années 1990. Ce changement économique est dû au changement politique. Après des décennies de gestion administrée ; caractérisée par une absence de compétitivité internationale et une orientation vers les entreprises public. Les entreprises Algériennes du secteur privé se sont retrouvées fortement désavantagées (Assala, 2006). Avec l'ouverture du marché ; le développement de la petite et moyenne entreprise (PME) en Algérie a connu un essor considérable favorisé par les politiques publiques incitatives en termes d'encadrement institutionnel, d'aides publiques, de réglementation et de mise à niveau **DAOUD S.**, (2006). Les pouvoirs publics ont ainsi mis en place une stratégie d'accompagnement pour aider les entreprises dans leurs efforts de modernisation et de compétitivité à travers différents programmes notamment le programme d'appui aux PME / PMI algériennes ou programme de mise à niveau des PME. Malgré le choc pétrolier actuel, l'Etat a progressé dans l'amélioration du climat des affaires et œuvre à une stratégie à long terme pour transformer le modèle de croissance du pays de manière à promouvoir l'activité du secteur privé et la diversification de l'économie plaçant la PME au centre de sa stratégie <sup>1</sup>.

Dans ce contexte, notre travail tente d'établir un état des lieux d'une entreprise familiale ayant bénéficiée de l'application des différentes mesures de promotion et d'aide aux PME (tels que le programme de mise à niveau). Son objectif est de faire une évaluation ex-poste des programmes et de dévoiler les problèmes rencontrés par les PME. Le but poursuivi n'est pas d'évaluer les

---

<sup>1</sup> Rapport du Fond Monétaire International (FMI) du 20 Mars 2017.

politiques de soutien et d'aide aux PME, mais de découvrir la situation actuelle et réelle des PME en Algérie.

## 1. APERÇU SUR LES PME EN ALGERIE.

Les PME sont un acteur central de toute économie (RAHMANI et Co., 2006). Dans le contexte économique actuel, marqué par un mouvement de mondialisation et de concurrence acharnée à tous les niveaux et suite au choc pétrolier subit; Il est désormais établi que les PME constituent un élément indispensable dans le processus de développement économique en Algérie. Elles dynamisent les régions, créent des richesses et de nombreux emplois (Malmberg et Co., 2006). C'est un facteur déterminant dans la promotion des exportations hors hydrocarbures<sup>1</sup>. Les PME offrent des contraintes managériales moins complexes, des procédés de production plus souples et des capacités plus grandes d'adaptation aux différents contextes des marchés (Malmberg A. et Co., 2006). En Algérie, les contraintes de l'économie centralisée ont cédé la place aux contraintes de l'économie de marché où la concurrence se fait au niveau international. Les accords signés entre l'Algérie et l'Union Européenne ainsi que les préparatifs de son adhésion à l'OMC ont créé une prise de conscience sans précédent des facteurs de compétitivité et de performance des entreprises. Des changements profonds ont dû être adoptés (Malmberg et Co., 2006). Plusieurs efforts des pouvoirs publics ont été déployés parmi lesquels les programmes de soutien et de mise à niveau des entreprises qui ont été adoptés avec un intérêt particulier à l'égard des PME. A cette fin, des PME Algériennes ont décidé de s'inscrire dans le cadre offert par le « Programme d'appui au développement des PME/PMI en Algérie » (Programme MEDA / UE). Notamment les entreprises de charcuterie (Daoud, 2006). En 2009, par exemple, 4 698 entreprises ont été radiées contre 17 163 entreprises créées. Une analyse par secteurs d'activité fait apparaître une forte concentration des PME privées dans les services (45,98% de la population) y compris le transport et les télécommunications, le commerce, l'hôtellerie et restauration, les services fournis aux entreprises, les services fournis aux ménages, les établissements financiers, les affaires immobilières, et les services pour collectivité; ou dans le BTP (34,10%)<sup>2</sup>. Durant le 1<sup>er</sup> semestre 2016, 12 650 entreprises ont cessé leurs activités (PME privées) contre 1 784 214 PME créées. Nous remarquons qu'à la fin du 1<sup>er</sup> semestre 2016, la population globale des PME s'élève à 1 014 075 entités dont près de 57% sont constituées de personnes morales, parmi lesquelles on recense 438 Entreprises Publiques Economiques. Le reste est composé de personnes physiques (43%), dont 20% de professions libérales et 23% d'activités artisanales<sup>2</sup>. Pour ce qui est des PME publiques, leur nombre a nettement diminué. Des travaux de recherche antérieurs expliquent la décroissance du nombre des PME publiques par deux phénomènes aux effets contradictoires. D'un côté, la restructuration des grandes entreprises publiques qui débouche sur la création de nombreuses filiales quasi autonomes et éligibles à la privatisation ou au partenariat. D'un autre côté, le processus de privatisation (totale ou partielle) réduisant le nombre de PME publiques qui basculent vers le statut de « privé » (Mimoune et Kheladi, 2006). Ces raisons expliquent pourquoi le nombre total de PME publiques est passé de 778 PME en 2004 à 874 PME en 2005, puis à 739 en 2006 et à 666 en 2007<sup>2</sup> et enfin à 438 en 2016<sup>3</sup>.

<sup>1</sup> Selon les statistiques du Ministère de la Petite et Moyenne Entreprise et de l'Artisanat, Bulletin n°17, décembre 2009.

<sup>2</sup> Selon les statistiques du Ministère de l'Industrie et des Mines, Bulletin n° 29, Décembre 2017.

## 2. MATRIEL ET METHODES

### 2.1. Description de l'entreprise :

L'entreprise concernée par cette étude est spécialisée dans la transformation et la commercialisation des viandes et de volailles. La Société a démarré ses activités en 1982 dans un premier site au sud ouest d'Alger avec un statut SNC. Depuis 1999, le statut de la société est passé à une SARL réparti entre six actionnaires (Frères). Une recapitalisation a été effectuée en 2006, c'est ainsi que le capital social de la Pme est passé de 600 KDA à 35 000 KDA. Actuellement, et depuis l'année 1999, la société est implantée à la zone d'activités El Alia, Bab Ezzouar. L'entreprise a émarginé au programme MEDA durant le 2<sup>ème</sup> semestre 2005, c'est ainsi qu'elle a bénéficié entre l'année 2006 jusqu'à la fin 2008, de quatre actions dans le cadre de sa mise à niveau dont les intitulés étaient :

Période	Action
1 <sup>ère</sup> action (début 2006)	Formalisation de l'organisation cible
2 <sup>ème</sup> action (fin 2006)	Elaboration d'une étude technico-économique
3 <sup>ème</sup> action (2007)	Assistance à la rédaction des procédures
4 <sup>ème</sup> action (2008)	Préalables HACCP

Tableau 1 : les actions dans le cadre de sa mise à niveau entre l'année 2006/2008

(Enquête interne dans l'entreprise)

### 2.2. Méthode employée dans cette étude :

#### a. Réunion de briefing

Des réunions de briefing marquant le lancement de la mission en présence du gérant de l'entreprise, et son Assistant Principal ayant porté sur la présentation de la PME, la stratégie du gérant à court et à moyen terme ainsi que les objectifs visés à travers notre action. Suivi par des réunions hebdomadaires ayant pour but, la récolte et l'énonciation du contenu et les objectifs visés pour chaque intervention.

#### b. Visite des installations

Des observations physiques sur le site ont été effectuées à travers des visites fréquentes des lieux de fabrication, des aires de stockage et du laboratoire.

#### c. Entretien individuel approfondi

La présente étude a été réalisée surtout à travers des entretiens approfondis avec le gérant et les responsables des différentes structures ainsi qu'à travers la consultation de la documentation existante et les formulaires d'enregistrements et une consultation de tout le système documentaire managérial de l'entreprise, en particulier les procédures opérationnelles de gestion de la qualité. Ces discussions nous ont permis de constater les livrables des actions de mises à niveau et apprécier leur application par l'industriel.

### 3. OBSERVATIONS, ANALYSES ET DISCUSSIONS

#### 3.1 Profil du patron

Le gérant n'a pas de compétence académique (niveau secondaire). Néanmoins, De part son expérience, il est chevronné dans la filière viande. Sa stratégie vise essentiellement le développement et l'élargissement de la gamme en vue d'une occupation progressive des parts de marché. L'amélioration des capacités managériales en vue d'adapter les bonnes pratiques de gestion.

150

#### 3.2. Organisation de la SARL

L'organigramme de l'entreprise familiale dont a fait l'objet notre étude, tel que telle que constater lors de nos passages est le suivant :

Supérieur hiérarchique	Titre
/	Gérant
Gérant	Co Gérant
Gérant	Assistant Management
Gérant	Chef de production
Gérant	Laboratoire
Production	Responsable qualité
Production	Maintenance
Gérant	Gestion stocks
Gestion stocks	Magasinier

Tableau 2 : hiérarchisation des postes de la SARL

(Élaborer à partir de l'organigramme de l'entreprise)

En interrogeant le gérant et les responsables, nous avons constaté que la majorité du personnel de la production peut être chargé de plusieurs tâches et peut être sollicité pour accomplir d'autres tâches, tels que précisés par les contrats de travail signés par les agents (polyvalence). L'entreprise emploie 33 agents.

Catégorie	Affectation			Total
	Cadres	Maîtrise	Exécution	
Commercial	1	3	0	4
Production	3	4	18	25
Administration	2	0	2	4
<b>Total</b>	6	7	20	33

Tableau 3 : Effectif de la SARL (Source interne de l'entreprise)

Nous avons estimé utile de décrire le niveau de qualification par catégories ; En effet :

- L'encadrement administratif d'un niveau universitaire (personnel hautement expérimenté, ayant dirigé des fonctions de responsabilité)
- quatre ingénieurs (laboratoire, contrôle de qualité, gestion de stocks et maintenance)
- capital d'expérience très important dans le domaine de la charcuterie (gérant et chef de production)

Nous jugeons suite à une analyse des risques que les compétences techniques disponibles sont largement satisfaisantes à la bonne conduite des opérations de production, à la maintenance du matériel et aux contrôles de qualité. Néanmoins, certaines compétences, ayant été acquises « sur le tas » ; ne sont pas en totalité formalisées. Dans notre étude, nous avons élaboré des liaisons hiérarchiques transversales, nous les relatons comme suit :

Niveau	Fonction	Responsable de	Pouvant assurer les tâches de : (polycompétence)
N	Gérant	Relations extérieures	Gestion de l'entreprise
		Achats	Suivi production
		Maintenance de fond	Commercial
N-1	Co-gérant Actionnaires	Gestion de l'entreprise	Commercial
		Suivi production	
N-2	Gestion administrative	Gestion administrative	Relations extérieures
		Système documentaire	Management qualité
N-3	Responsable production	Suivi production	ventes et gestion des stocks
		Récapitulatif des ventes	
		Responsable laboratoire	Contrôle de conformité Paramètres de fabrication

Commercial	Administration des ventes	/
Gestion des stocks	Stocks MP et PF	/
Responsable qualité	Suivi BPH/F Plan de nettoyage	Suivi production
Responsable maintenance	Maintenance curative et préventive	Suivi rendement équipement

N-4

152

Tableau 4 : Les liaisons hiérarchiques transversales

(élaborer à partir de l'organisation interne de l'entreprise)

### 3.2.1. Gestion de la ressources humaines

L'activité du personnel se résume à la mise à jour des dossiers administratifs du personnel et au suivi et l'apurement des dossiers avec les organismes extérieurs. En effet, l'entreprise n'assure pas une gestion en ressources humaines proprement dite, le responsable du service personnel est chargé d'exécuter les tâches suivantes : Déclaration CNAS, IRG (impôts), Paie et masse salariale, Tenue des registres réglementaires y afférents aux services, Tenue des dossiers administratifs (suivi congés, attestations de travail, suivi médical (visites périodiques, maladies, accidents de travail)).

A travers nos différents entretiens, il s'avère que l'entreprise souffre d'une mobilité remarquable (turnover important), à titre d'exemple, dans la période allant du 2<sup>ème</sup> semestre 2007 au premier trimestre 2008, il y a eu départ de six cadres, occupant des postes stratégiques :

un administrateur, un gestionnaire de stock, deux commerciaux, une assistante de direction, Un comptable. Une forte mobilité est notée aussi dans le service de la production. Parmi les formulaires utilisés dans le cadre de la mise à niveau pouvant être améliorés nous citons la fiche de suivi carrière et un tableau de bord mensuel en matière de gestion du personnel (mouvement personnel, absentéisme, récapitulatif de la paie, masse salariale, évaluation frais personnel par structure, cotisation et charges (CNAS, IRG). Notons que le dossier personnel comprend les pièces suivantes : état civil, CV, diplôme, certificats de travail, état de santé. Les frais du personnel de l'année 2008, affichent une évolution positive de 45 % par rapport à l'année 2005. Cette évolution est due principalement à l'impact induit par la mise en place de l'organisation et de son renforcement par des capacités aptes à mener à bien l'opération de mise à niveau et à la dotation en tenue de travail du collectif production et soutien.

Suite aux différents entretiens avec les responsables de cette Sarl et la consultation de la documentation existante, il s'est avéré que :

- L'assistant principal est parmi le personnel de la SARL depuis le 2006 ;
- Une nouvelle structure organisationnelle mise en œuvre, fait suite aux recommandations des missions d'accompagnement par les experts de l'ANDPME portant sur l'organisation cible;
- Elaboration d'un guide méthodologique destiné à la gestion des stocks et comptabilité matières mises en œuvre dès septembre 2006 ;

- Fascicule de protection et de surveillance de l'usine établi en 2006 avec émargements de tous les destinataires ;
- Rédaction et diffusion de douze procédures (12) dans le cadre de la mise à niveau ;
- Création, en 2007 : d'un conseil de direction de l'entreprise (CDE), d'un comité qualité, cahier des charges ventes et achats, d'une commission d'inventaire ;
- Création d'une cellule hygiène et sécurité suite à la mission sur les préalables HACCP.

Il est important de signaler au passage, que le responsable de production (actionnaire) capitalise une expérience très importante acquise sur le tas depuis le premier site de fabrication. Le magasinier est fortement impliqué dans la production. Leur expérience de travail en commun leur permet de se suppléer l'un à l'autre en cas d'indisponibilité passagère de l'un d'eux. Le même constat est établi entre le responsable qualité et celle du laboratoire. Si cette polyvalence est un atout pour le bon fonctionnement et le maintien de la productivité de l'entreprise, elle fait cependant ressortir la nécessité de la mise en place rapide de procédures écrites pour la transmission des consignes et instructions de travail à des tiers si l'un de ces permanents doit être remplacé à l'improviste.

### 3.2.2. Gestion comptable

L'entreprise dispose en son siège d'un service comptabilité chargé de la saisie des écritures comptables, de l'analyse des comptes, et de la situation financière. Toute cette gestion est vérifiée à la fin de chaque exercice comptable par un bureau agréé du commissariat aux comptes externe lequel établit et soumet son rapport spécial relatif à la vérification des comptes de l'exercice clos, à l'assemblée générale des actionnaires. A cette occasion, le gérant établit et soumet lui-même son rapport moral et de gestion au titre de l'exercice clos, tel que précisé par les statuts de l'entreprise. Depuis l'action de mise à niveau relative à l'organisation, la Sarl a connu un changement radical, et a permis de mettre en place un système de gestion et de comptabilité formalisé selon les bonnes pratiques de la gestion comptable et administrative conformément aux dispositions réglementaires relatives au statut d'une Sarl.

#### i) Volet Achats

L'ensemble des opérations d'approvisionnement (Matières premières, emballages, équipements et autres) depuis le lancement, négociation, formalisation par bon de commande écrit et parfois verbal ainsi que les règlements fournisseurs, est assuré principalement par le gérant et à moindre fréquence par les actionnaires. En d'autres termes, la décision de l'acte d'achat est centralisée au niveau actionnaires. S'agissant des importations, les opérations de dédouanement sont prestées par un transitaire.

#### ii) Volet vente

L'entreprise s'est dotée entre 2006 à 2008 de moyens adéquats pour assurer la livraison par l'intermédiaire des actionnaires qui sont organisés par secteur (Centre, Est, ouest), en plus des clients qui viennent prendre leur marchandise sur le site de l'usine. L'entreprise dispose de moyens de transport frigorifiés adaptés habillés par l'ensemble de la gamme produite et commercialisée : 6 camionnettes (1200 kg) et 3 camionnettes (3200 kg).

**Le chiffre d'affaires en 2008 s'est élevé à 31000 KDA dont 70% (seulement pour le produit cachir) et 30% (pour le produit pâté et autres). Selon nos calculs, ce dernier affiche une évolution négative de l'ordre de 18 % par rapport au chiffre d'affaires réalisé l'année précédente. Cette régression est due principalement à l'indisponibilité en quantité suffisante et qualité de la gamme conditionnée en emballage divisionnaire, celle-ci étant le fait de**

l'existence d'un équipement inadéquat souvent en panne. En ci dessous, nous avons décomposé les ventes pour une meilleure analyse :

#### a) Décomposition des ventes totales par destinataires

Selon les renseignements fournis par l'entreprise, les ventes sont réparties :

Désignation	En millions de DA		
	Grossistes Distributeurs	Restaurants collectivités	et Divers
Cachir	33,74	13,12	1,49
Patés	15,34	2,50	1,70
Divers	2,04	0,00	1,07

Tableau 5 : La décomposition des ventes totales par destinataires

(Elaborer à partir des chiffres internes de l'entreprise)

**La société est non concernée par la vente directe (détails), sauf pour le personnel de la société.**

**Les principaux clients sont les trois frères actionnaires qui assurent la distribution :**

(Client 01 : 15000 KDA, Client 02 : 5000 KDA, et Client 03 : 2,500 KDA).

#### b) Dispersion des ventes par année

Année	2006	2007	2008
Nombre clients	25	20	27
Nombre de commandes	850	750	900
Nombre factures	850	750	900

Tableau 6: Dispersion des ventes par année (source interne de l'entreprise)

La société a lié des liens de fidélité avec ses clients, ce qui fait que ceux-ci sont pour l'essentiel les mêmes d'une année à l'autre : grossistes et distributeurs (80%), restaurants et collectivités (17%) et divers (3%). Les ventes sont formalisées par le biais des bons de livraison et factures dont les données statistiques sont reprises régulièrement par le comptable qui assure la saisie et l'élaboration de leur déclaration au niveau des services extérieurs concernés (impôts). Les contacts avec la clientèle se font essentiellement par voie orale, à l'occasion de rencontres ou par téléphone. Les informations statistiques par catégories de produits, de clients, par zone géographique, sont disponibles, mais ne sont pas suffisamment dispersées pour permettre de connaître les zones occupées par la SARL.

En l'absence d'un service marketing, la société a une image de qualité reconnue sur le marché Algérien à travers ses qualités organoleptiques. En reconnaissance de cette qualité, certains clients sont fidélisés à la marque du produit, en particulier le cachir. La politique commerciale est basée

sur cette image, qui se transmet de bouche à oreille parmi les acheteurs potentiels. L'entreprise participe souvent à des foires en qualité de vendeur. L'entreprise consciente de sa stratégie d'occupation progressive du marché, a jugé nécessaire d'accompagner son produit par des supports publicitaires. Ainsi, elle a commencé à mettre en œuvre, dans une première phase, la conception des affiches, dépliants et brochures. La publicité audio visuelle nécessitant la mobilisation d'une enveloppe très importante, sera envisagée dans une deuxième étape.

### c) Estimation de la part du marché

En absence d'une organisation professionnelle structurée au niveau national capable de collecter les données et d'établir les statistiques pour la filière de transformation des viandes, cette entreprise n'a pas réalisé d'étude de marché et ne dispose donc pas de références objectives sur son positionnement sur le marché Algérien. Il est impossible pour l'entreprise de se situer par rapport à l'ensemble de la l'activité. D'autant plus que ce marché connaît une avancée considérable dans la production de ces produits, par l'augmentation du nombre d'industriels et l'élargissement de la gamme des produits exposés. Compte tenu de l'absence de documents découlant d'un sondage officiel précis permettant un chiffrage rationnel dans le secteur viande en Algérie et Afin de compléter notre travail d'estimation de part de marché<sup>4</sup> pour situer l'entreprise. Il nous a paru important de réaliser une enquête auprès des grossistes.

a-Elaboration de l'enquête :

L'enquête a pour objectifs estimer la part de marché de cette entreprise.

b-Elaboration de questionnaire :

Le questionnaire utilisé dans notre enquête est de type questions fermé afin de simplifier au maximum l'enquête notamment lors de dépouillement.

d-Le recueil d'information :

Nous avons choisis l'enquête en face à face, en utilisant l'échantillonnage de convenance qui signifie que l'enquêteur peut choisir n'importe qu'elle grossiste dès qu'il accepte volontairement de répondre aux questions. Nous avons distribué 45 questionnaires.

e-Le dépouillement de questionnaires :

Nous avons d'abord vérifié chaque questionnaire et procéder à l'élimination s'il est incomplet. Nous avons opté pour le logiciel SPHINX pour concevoir une codification pour chaque question et chaque réponse et à percevoir le traitement statistique à réaliser.

e-Le codage :

Une fois le plan de dépouillement prévu initialement mis en place, nous avons codé chaque questionnaire. La saisie informatique suit la phase de codage à faire l'objet d'un contrôle rigoureux.

f-Le traitement des données enregistrées :

Selon le plan de dépouillement prévu initialement, nous pouvons choisir une analyse à plat, pour dénombrer les réponses à chaque question et d'en calculer le poids en pourcentage.

g-Résultat de sondage :

La part du marché en Algérie est de l'ordre de 15% dont 5%, dans la région Centre<sup>4</sup>. Afin de s'imposer sur le marché, la société a entrepris une démarche stratégique de développement et de diversification de sa gamme accès essentiellement sur l'emballage divisionnaire « chapelets » à

l'effet d'élargir la consommation de son produit aux ménages disposant d'un faible pouvoir d'achat.

#### d) Données sur la concurrence

L'entreprise ne dispose pas de documents ni de données suivies et enregistrées sur la concurrence. Compte tenu du contexte général du marché Algérien, dans lequel le relationnel joue un rôle essentiel, le gérant et ses délégués commerciaux, de par leurs contacts commerciaux réguliers ont une idée assez précise de la concurrence, tant en disponibilité de produits que de prix. Les estimations effectuées à dans notre étude situent la société au quatrième rang par rapport aux concurrents les plus sérieux. (Cette étude était effectuée en 2008.)

Les principaux concurrents sont : Bellat, Amour, Nour suivi de From, CK Fleisch, Isla délice, Bahdja<sup>4</sup>. Il est à noter que la situation du marché de la filière présente un déséquilibre, suite au non respect des règles commerciales par certains concurrents. La commercialisation des produits finis est assurée par les actionnaires. C'est le gérant, en collaboration avec les actionnaires qui fixent les prix de vente à partir de leur connaissance aigüe du marché.

#### 3.2.3. La production

La capacité actuelle de la production varie de 2,5 à 3 tonnes/jour, l'effectif du personnel de production est de 25 personnes dont 3 cadres, organisé en une équipe et demi pour un cadre horaire global de 12h. L'entreprise fabrique une gamme variée et diversifiée totalisant 45 produits répartis sur 12 familles conditionnée chacune en emballages divisionnaires variant de 200g à 2kg. La gamme des produits peut être regroupée comme suit :

Famille	Nombre de produits
Pâté	21
Mortadelle	5
Salami	5
Cachir	4
Cocktail	2
Chawarma	2
Galantine	2
Escalope dinde	1
Filet dinde	1
Brochette	1
Blanc de poulet	1

Tableau 7 : La gamme des produits de l'entreprise (source interne de l'entreprise)

La production réalisée au titre de l'exercice 2008, affiche une régression de l'ordre de 16 % par rapport à l'année précédente, cette diminution pourrait s'expliquer d'une part, par les irrégularités et les perturbations fréquentes vécues en matière d'approvisionnement en outil de production, matières premières et emballages de qualité. D'autre part, par l'indisponibilité quasi totale de l'équipement destiné à la production de la gamme en petit conditionnement, qui reste très demandée par les clients potentiels spécialisés dans la grande distribution. Dans la présente étude, nous avons estimé le coût total de production par jour que nous présentons en ci-dessous :

Désignation	Coût total de production en DA
Main d'œuvre	11 195
Matières premières	103 621
Énergie	3 600
Consommables	1 692
Entretien des machines	2 580
<b>TOTAL</b>	<b>122 688</b>

Tableau 8: Estimation du coût total de production par jour de l'année 2008

(Calculée à partir des données internes de l'entreprise)

Notons que l'intervention régulière suite aux pannes fréquentes enregistrées au niveau de la polyclip existante, ayant nécessité un apport en pièces de rechanges importées pour une valeur équivalente d'environ 1,6 Millions de dinars destinée à la réhabilitation de l'équipement de production. L'unité dispose d'un parc Machines de 19 installations constituant une seule chaîne de fabrication, ce qui ne lui limite sa flexibilité en cas de pannes. L'équipement de production est semi-automatisé. La production actuelle peut être doublée du fait que l'entreprise a déjà mis en œuvre un plan d'investissement pour l'optimisation de l'outil de production. Les investissements réalisés durant l'exercice 2008, dans le cadre de la mise à niveau de l'entreprise affiche une augmentation de l'ordre de 14% par rapport aux investissements réalisés en 2007. La société exploite un site de production de 2600 m<sup>2</sup>, situé à la zone d'activité à Bab Ezzouar, et possède également une superficie mitoyenne à l'unité de production, pouvant être utilisée en cas d'extension ou d'aménagement de l'actuel site. Le coût de production est stable et permet de dégager des marges suffisantes pour investir. Il n'existe aucun standard ni ratio sur la profession en guise de standard.

#### a) Le stockage

La gestion des stocks aussi bien de la matière première que les produits finis. Assuré par un responsable gestion des stocks, assisté par un ingénieur chargé des magasins (recrutés tous les deux depuis fin 2006). Leur mission consiste à :

- Suivi des stocks (comptabilité matière) ;
- Définition avec le responsable de la production (actionnaire), les aménagements nécessaires en fonction des volumes prévisionnels et des flux de vente ;

## b) Planification et suivi de la production

Malgré l'existence d'un programme annuel de production validé en revue de direction (CDE), la production se fait au jour le jour. La majorité des contrôles et vérifications réalisés tout au long du processus de fabrication, sont basés sur des constatations et appréciations visuelles non enregistrées et ce, depuis la réception jusqu'au conditionnement du produit fini. Il n'y a pas de fiches produit rédigées. En effet, les modes opératoires de la fabrication sont du ressort exclusif du responsable de la production. Les données concernant : les charges de travail des machines, les charges de travail des opérateurs, les en-cours des volumes de production, les paramètres de production ne sont ni enregistrées ni exploitées, malgré leur importance dans la traçabilité. Les produits recyclés ne sont pas formalisés (quantité globale et taux d'incorporation).

### 3.2.4. Gestion de la Qualité et analyses de laboratoire

L'entreprise dispose d'un laboratoire qui assure les analyses microbiologiques en interne et exploite les analyses microbiologiques des laboratoires prestataires. En effet, additionnellement aux analyses microbiologiques réalisées en interne, la Sarl est en relation avec d'autres laboratoires pour des analyses de confirmation de la conformité des à titre d'exemple la partie Physico-chimie est assurée par l'institut pasteur. Tandis que la gestion de la qualité à travers des opérations de contrôle qualité quotidiennes, et le suivi des paramètres de la fabrication, et le respect des bonnes pratiques hygiéniques de fabrication ainsi que l'exécution du plan de nettoyage et désinfection.

### 3.2.5. Activités sous-traitées

Notons que les activités de commissariat aux comptes, traitement des dossiers litigieux et conseils juridiques, analyses de la qualité (Laboratoires prestataires (Institut pasteur, laboratoires privés, et Laboratoire vétérinaire), opérations de dédouanement, Suivi médical (médecine de travail), la maintenance des équipements, vérification des extincteurs sont assurés par des sous traitant.

## CONCLUSION

Cette étude dénote que le mode d'organisation et de gestions actuelles de cette entreprise et le niveau de prise de risque casé absent ne leur permettent pas de se maintenir profitablement sur le marché. C'est le même constat de quelques travaux antérieurs (Gillet, 2003), (Melbouci, 2004). La nécessité de s'aligner sur les standards internationaux d'organisation et de gestion s'avère indispensable pour améliorer significativement leurs compétitivités afin réussir la mutation en entreprise de deuxième génération qui permettra de consolider et encadrer son développement futur. Malgré toutes les politiques de soutien mises en œuvre ; Beaucoup de PME ont ainsi décidé de se désinvestir complètement dès qu'ils se sont aperçue que, inversement à la phase de diagnostic, dans la phase de réalisation du plan d'action validé conjointement avec les experts de l'EDPME, le financement de l'Etat est plafonné à 20% du montant global de l'opération<sup>3</sup>. Cette entreprise est rentière et peu innovatrices; son aspect familiale favorise surtout le management traditionnel, Elle est peu favorables à la prise des risques. A l'instar des autres PME, Le secteur informel a une part importante dans son activité que ce soit dans le financement (Nait- Merzoug, 2006), la production, la commercialisation ou l'approvisionnement. Le niveau d'instruction des gérants est limité ce qui a des effets néfastes sur la stratégie poursuivie par l'entreprise et empêche de rénover les formes de gestion des PME; La qualité des biens (Ouabdesselam et Co., 2014) et des services (Gillet, 2003) produits par la majorité des PME est inférieure à celle des produits concurrents étrangers. L'entreprise objet de cette étude a adopté un type de management inhibant la créativité notamment des taux d'encadrement très faibles, une structure d'organisation permettant au dirigeant d'être l'acteur principal de la décision et de la coordination.

## REFERENCES BIBLIOGRAPHIQUES

**ASSALA K.**, 2006. «PME en Algérie : de la création à la mondialisation» communication dans le colloque international «L'internationalisation des PME et ses conséquences sur les stratégies entrepreneuriales », 25, 26 et 27 octobre 2006, Haute école de gestion (HEG) Fribourg, Suisse.

**DAOUD S.**, 2006. «Développement de la petite et moyenne entreprise en Algérie : politiques et blocages», communication dans le colloque international «Mondialisation, institutions et systèmes productifs au Maghreb» 22 et 23 juin 2006, Hammamet, Tunisie.

**Malmberg A., Maskell P.**, 2006. "Localized learning revisited ", In Growth and Change, 37. connaissance: Quels enjeux pour l'Algérie dans le cadre de la mondialisation?, Ed. Universitaires européennes. Sarrebruck.

**GILLET A.** , 2003. «Les entrepreneurs algériens de petites entreprises: un groupe hétérogène entre logiques domestiques et logique économique capitaliste» - Document de Travail 16- Griot-Cnam.

**MELBOUCI L.**, 2004. «L'essor des PME algériennes par la théorie des ressources», 7eme Congrès International Francophone en Entrepreneuriat et PME –CIFEPME, 2004.

**Ministère de la Petite et Moyenne Entreprise et de l'Artisanat, 2007.** Bulletin d'Information n°12, indicateurs de l'année 2009.

**Ministère de la Petite et Moyenne Entreprise et de l'Artisanat.** Bulletin n°17, décembre 2009.

**Ministère de l'Industrie et des Mines,** Bulletin n° 29, Décembre 2017.

**MIMOUNE L., KHELADI M.**, 2006. «Partenariat Algérie- Union européenne et mise à niveau des entreprises algériennes». Colloque international «Economie Méditerranée Monde Arabe; Le Partenariat euro-méditerranéen : Construction régionale ou dilution dans la mondialisation?», 26 et 27 mai 2006 Université Galatasaray, Istanbul, Turquie.

**NAIT MERZOUG ML.**, 2006. «Financement de la petite et moyenne entreprise en Algérie», Colloque international : Les PME dans les pays arabe, 17 et 18 avril 2006, université Hassiba Ben Bouali, Chlef.

**RAHMANI T., P. SANMARCO et TABARD S.**, 2006. «Comment appuyer de manière efficace la création et la croissance des PME?» Séminaire sur l'appui financier et technique du développement de l'entrepreneuriat, du 11 au 14 décembre 2006, Tunis, Tunisie.

**OUABDESSELAM L. et SAYAD A.**, 2014 La mise en place du système HACCP dans une entreprise Agro-alimentaire : Etude de cas (Charcuterie), Edition Universitaires Européennes (EUE) , ISBN 978-3-8417-3879-0. Sarrebruck, Allemagne.

### Site internet :

<http://www.imf.org/fr/news/articles/2017/03/20/pr1790-algeria-imf-staff-completes-2017-article-iv-mission> (Dernière Consultation le 21/03/2017).

<http://www.mdipi.gov.dz/?Bulletin-de-veille-statistique> (Dernière Consultation le 02/01/2017).

## LISTE DES TABLEAUX

Tableau 1 : les actions dans le cadre de sa mise à niveau entre l'année 2006/2008.

Tableau 2 : hiérarchisation des postes de la SARL.

Tableau 3 : Effectif de la SARL.



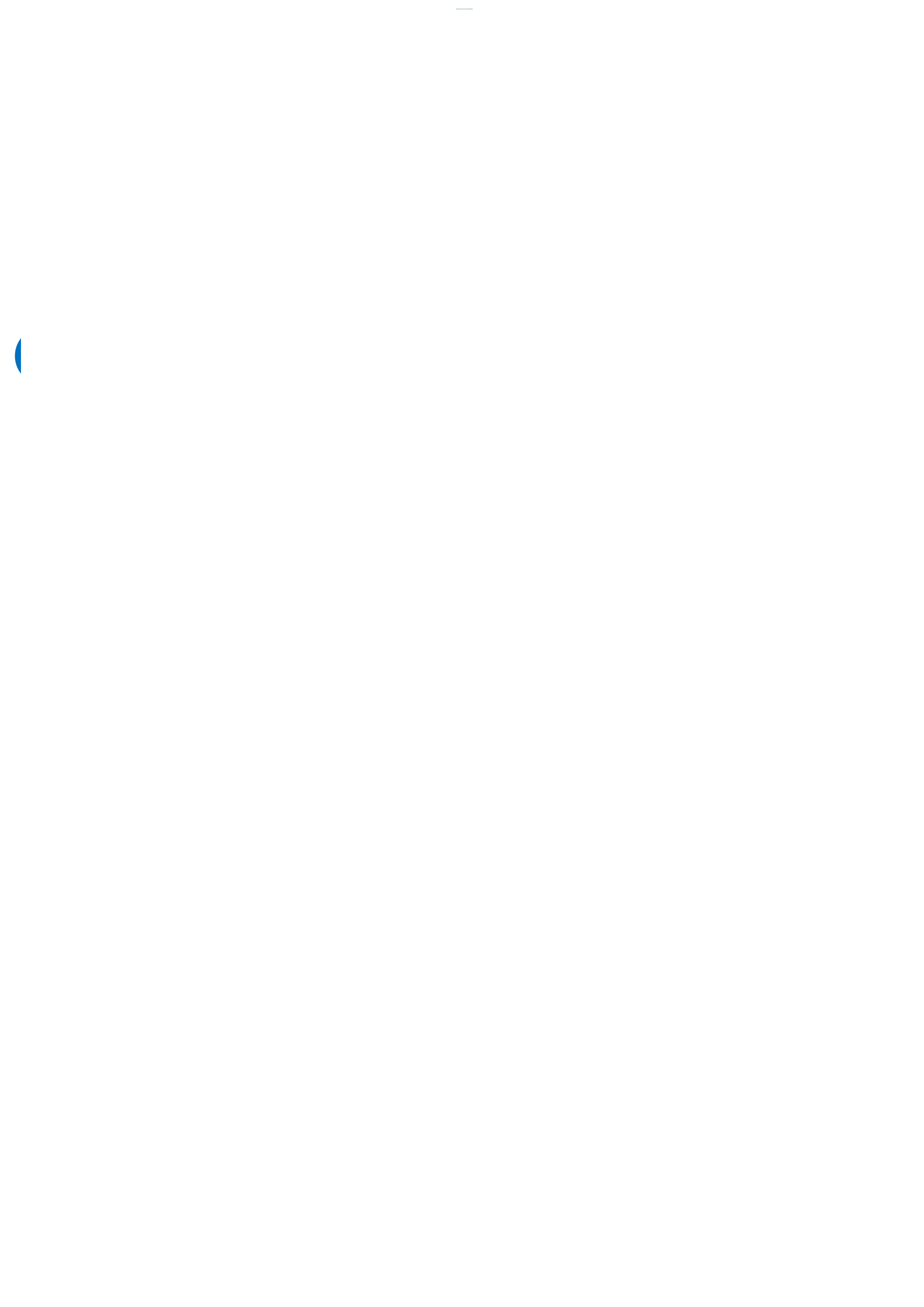
Tableau 4 : Les liaisons hiérarchiques transversales.

Tableau 5 : La décomposition des ventes totales par destinataires.

Tableau 6: Dispersion des ventes par année.

Tableau 7 : La gamme des produits de l'entreprise.

Tableau 8: Estimation du coût total de production par jour de l'année.







جميع الحقوق محفوظة

لمركز جيل البحث العلمي © 2017

ISSN 2311-5181